عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الأول

الدار المصرية اللبنانية

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن. – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
304 مج 1؛ 20 سم.
تدمك: 9 – 496 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
2– الملاحم العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 26976 / 2024

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

إهداء

إلى أهل قريتي «الوصلية» التي أكلها النيل في فيضانه قبل قرن، فهرب أهلها بالحكايات. وحين غرسوها في صفحات الأيام وصلت إلى مسامعنا نحن الأحفاد أسطورة كبرى، بينما كانت أقدامنا تدب في شوارع قرية جديدة أسموها «الإسماعيلية»، تعيش الآن وديعة مجهدة في وسط الصعيد.

الرُّبَى واليَمَام

(1)

الأقدام الغليظة التي تدوس العشب لن تعيق نموه طالما المطر ينهمر. غلق النوافذ لن يمنع الرياح من الانطلاق، إن جاء أوان هبوبها. الستائر السوداء السميكة لن تحرم نور النهار من معانقة الغرف الحبيسة. الزمن يجري سريعًا، ويجرف أمامه كل شيء، لكنه لا يقدر على تبديد الحكايات.

نزع «آل صابر» حكايتهم من قبضة النسيان. أورثوها لأولادهم قبل المال. وضعوها في أرحام النساء قبل نطف البنين والبنات. أطلقوها في مجرى النهر فحملها الماء إلى الآذان والنفوس، بعد أن غنّاها القوّالون على الرباب وهم يغلبون دموعهم، ويلقون في مجراها الطويل عبارات وألحانًا جديدة.

كما تنمو الذرية تكبر الأساطير، لكنها لا تشيخ، ولا تموت. كيف يموت مَن يسكن الحناجر المشبوبة بالأناشيد والغناء؟ كيف يتلاشى ما تردده الألسنة من جيل إلى جيل في الأوجاع والمسرات، وساعات السمر على المصاطب أمام بيوت الطين الخفيضة، وفي الحقول وقت القيظ؟

يتوه الناس فينطلق لحن من الزمن القديم، وينشد القوّالون وعيونهم مغمضة:

صابر والزمن غدّار .. يعانـــد اللي يريده

بيده كاس مُر دوار .. كل ما ينقص يزيـده

(2)

في تلك الليلة الشتوية التي اعتزلها القمر، ملأ نور مبهر عيونهم وهم ساهرون على طرف نجع صغير لا يزيد على عدة بيوت من الطمي، يسند بعضها بعضًا. كان النور قويًا حتى ظنوا أن الشمس قد طلعت في قلب الليل. تبعته سهام على رؤوسها شُعل تعقب الظلمة. حل صمت مطبق. مات النور، وانطلقت الأقاويل الحائرة.

لم يكن برقًا. السماء لم ترعد. السحب الخفيفة التي تضربها الريح ليس بوسعها، حتى لو تعاركت، أن ينفجر غضبها بضوء غمر الزرع والبيوت. بان سور الحديقة العالي، الذي طالما داروا حوله حائرين. كانوا كلما سألوا أهلهم عن هذه الحديقة، قال كل منهم: «لا نعرف إن كان شجرها قد نبت في الأرض، أم نزل من السماء».

لم يمر يوم إلا واليمام يدور قبيل الغروب فوق سماء الحديقة، صانعًا أشكالًا عجيبة تخطف الأبصار، وتملأ القلوب نشوة. في الليل يتهادى عزف الرباب، وينطلق معه صوتٌ نديٌ لم يطربنا مثله من قبل، ثم تبدأ حمحمات من صدور ملتهبة، كأنها في حضرة ذكر.

(3)

كان شباب نجع «مشتول» قد هرعوا نحو سور الحديقة تحت سماء ترمي فوق رؤوسهم المجهدة رذاذًا خفيفًا. قلوبهم ترتجف. أقدامهم تغوص في أرض موحلة رواها أصحابها أول المساء. هم الآن هاجعون في مخادعهم الخشنة، يصارعون البق والبراغيث والكوابيس.

رفع «رضوان» سبابته نحو السور في خوف، وقال: السهام انطلقت من هنا، شُفت النار الحمراء تخرم النور، وتجري إلى السماء.

رد «حمزة»، وهو يحكم الكوفية السوداء حول عنقه: صوت كأنه غناء أو بكاء، لا أعلم، لكنه جاء من بعيد، ربما من عند النهر.

وجم بقية الرفاق متطلعين إلى الأشجار العالية الكثيفة التي تتعانق تحت ستائر الليل فتزيده سوادًا. هم يحسبون أن الباب الحديدي السميك سيُفتح، ويأتيهم بخبر ما يجري داخله. لكنه ظل مكانه واقفًا أمام العيون الشاخصة إليه. كمشوا مكانهم ساعة لم يخرجوا منها بشيء سوى سعال أجش، وضحكة رنت في الفراغ، وكلام قصير وصل إلى أسماعهم همسًا خفيًا.

بينما هم رابضون يتخبطون في حيرتهم نبحت الكلاب عند الطرف الأيمن للحديقة، وماءت قطط شريدة. سمعوا صهيل حصان تضرب حوافره قطعة صلدة من الجسر، نقراته القوية المتواصلة سرعان ما خفتت حين دخل إلى التراب الناعم. ماتت هناك في البعيد.

أعاد «رضوان» بصره الذي كان ذاهبًا إلى الجسر، وقال: هو الحصان الأبلق، الذي رأيته وقت الضحى يرعى، حين كان باب الحديقة مواربًا.

لكنهم جميعًا كذّبوه. لم يرَ أحدهم الباب مفتوحًا ولا مواربًا من قبل. كانت الحيرة تأكلهم حين يرون خفر الحديقة يجوسون شوارع النجع ليلًا، ولم يكن أي منهم يعرف من أين أتوا؟ ومتى يعودون؟

كان هؤلاء الخفر يمرون على البيوت، ولا ينظرون إليها. يرفعون

قاماتهم المديدة إلى الأمام. يشمخون بأنوفهم العريضة. لا يلقون السلام إلا على مَن لا ينشغل بهم، متجنبًا النظر إليهم، حتى يصلوا إلى دكان في منتصف القرية، ليبتاعوا حاجاتهم من قرفة وينسون وأقماع سكر ودخان. أما ما يأكلونه ويشربونه فلا يعرفه غيرهم.

ظن أهل القرية أنهم لا يملأون بطونهم إلا من فواكه الحديقة المتنوعة، لكن أحدهم أجاب البقّال مرة واحدة حين عرض عليه ما على أرفف دكانه من طعام: عندنا خبزنا وغموسنا.

شيخ طاعن في السن يسمى «محروس»، يقال إنه الوحيد الذي اجتاز الباب العالي ذات يوم، أنبأ الشباب أن لدى سكان الحديقة أجولة دقيق، وفرن خبيز، وبلاليص مملوءة بالعسل الأسود والمش، وصفائح من عسل النحل، وأن بالحديقة دجاجًا وإوزًا وبطًا وديوكًا رومية وخرافًا ونعاجًا وماعزًا وبقرًا، وأواني عتيقة.

طالما سعى الرفاق إلى تجاوز القليل الذي عرفوه. كانوا يدورون حول السور العالي متطلعين إليه في رهبة، يدركون أن ما بداخله يبدو فرحًا على الدوام باستعصائه عليهم. هم الذين خرجوا في البكور والضحى وساعة القيظ والغسق وفي قلب الليل تاركين خلفهم بيوتًا تنتظرهم، تأكل الريح من جدرانها كل يوم، يبدون في عجز تام عن فك اللغز الكبير.

صغار كانوا في أعمارهم وأحلامهم. كان حلمهم الأكبر أن يهتكوا سر هذ الحديقة مترامية الأطراف، لكنهم في كل مرة لا يعودون إلا بنسمات رخيّة، وأسئلة تنشب في رؤوسهم كأشواك الشجر الذي يرمي أفرعه الملتفة على السور، ويخرج في الربيع زهورًا بيضاء

كالطلع، وحمراء كالدم.

اكتفوا من أحلامهم بمحاولة القبض على أي ثمرة مدلاة من أشجار المانجو العالية، المنتظمة في صفوف مستوية. أبلغهم «محروس» أن في الداخل صفوفًا من أشجار الجوافة والرمان والتفاح والبرتقال والتين والليمون، وتكاعيب عنب، وثلاثة صفوف من النخيل في المنتصف، يتبعها مثل ما سبقها، في هندسة عجيبة تتخللها قنوات مربوطة بالنيل.

لكن أمانيهم تموت عند السور. لا يبقى لهم إلا استحلاب ريقهم مفتتنين بطعوم لم يتذوقوها لثمار يانعة، تتراءى أمام عيونهم، لكنها لا تتهادى لهم أبدًا، وإن مد أحدهم ذراعه محاولًا أن يقبض على أي منها، تلسعه أشواك أشجار «الدرادكس»، فلا يعرف في فمه سوى طعم الدم الفائر. أحيانًا يلدغه سوط، أو ضربة عصا قاسية، يتبعها سباب جارح.

قبل سنين كانوا يرمقونها وظهورهم منحنية بين أعواد الزرع. عيونهم مدفونة بين السيقان والأوراق والبتلات الكثيرة التي تُغرق رؤوسهم في ظلال لا تمنحهم أي فرصة لتجاوز الزمتة الساخنة التي تجعل العَرَق يتصبب من جباههم، ويتساقط على الأرض الشراقي.

كانت الفراشات ترفرف أمام أعينهم. تروغ منهم حين يمدون أيديهم محاولين الإمساك بها. تعلو في الفضاء فتتابعها أعينهم لتراها وهي تطير صوب الحديقة الغريبة، الواقفة هناك تتحداهم بشموخها وعصيانها عليهم. تحدت الحديقة الغريبة أجيالًا متتابعة سبقتهم، ودبت أرجلها على هذه الأرض، وانحنت ظهورها إليها، وهي تزخر

بالزرع الذاهب إلى الحصاد.

كانوا دومًا يخوضون في حديث عن الحديقة، فينسون في بحر الخيال والحكايات الغريبة متاعبهم الشديدة، الناشبة في ظهور أضناها الانحناء والاستواء والميل إلى الأمام طويلًا.

لم يكن يشغلهم في هذا الوقت المبكر من أعمارهم الغضة أن يجيبوا عن أسئلة عصية حول صاحبها، مكتفين بما سمعوه من «محروس». أبلغهم أنه رجل بهي الطلعة، طويل القامة، عريض المنكبين، ذو وجه مستدير يشع منه نور عجيب، لا يمكنه أن يخفي أنفه القاطع كسيف مشرع في وجه عدو بغيض.

أخبرهم أيضًا بأن هذا الرجل ليس سمينًا، ولا نحيفًا، إنما بين ذلك، يبدو حين يضطجع في عباءته السوداء السميكة مثل حصان شارد في غابة داغلة. حين يقف يبدو أسدًا هصورًا. تقدح عيناه بشرر يحرق الأحراش المتناثرة على جذوع الشجر العالي. يظهر فارسًا مغوارًا، أو ملكًا متوجًا، أو سلطانًا عظيمًا، كأنه السلطان «برقوق» نفسه، الذي يسمعون عن هيبته، لكن لا يمكن لأحد منهم أن يتمكن يومًا من أن يتأكد مما يقوله الناس عنه في كل مصر.

قال «رضوان»: سمعت أن الرجل من قادة المماليك، وأنه مقرب من السلطان.

شكك «حمزة» في هذا، وقال: كثيرون يزعمون في بلادنا أنهم مقربون من السلاطين.

قهقه «محروس»، وقال: لا أظن أن هناك سلطانًا على الأرض له هذا

البهاء والمهابة.

كان «محروس» قد أخبرهم أيضًا بأنه لم يرَ هذا الرجل سوى مرة واحدة، وأن الظلام الحالك حال دون أن يعرف أوله من آخره، لكنه حين سعل اهتز الشجر، وتساقطت ثمار المانجو والجوافة والرمان. دفقة نور رماها القمر حين غلب السحب الكثيفة جعلت بوسع «محروس» أن يرى جسد الرجل ووجهه اللذين سرعان ما غاما حين هجم السحاب فخنق القمر.

لم يكن لدى «محروس» أي شيء آخر يقوله سوى أن صاحب الحديقة رجل غريب، أتى من مكان لا يعرفه أحد، ومن زمان أبعد مما يتصوره أولئك الذين يتناوبون على خدمته ويحرسونه، ويشنفون آذانهم بأي حرف ينطق به، وتتابعه أبصارهم لعله يمنح أيًا منهم شرف إشارة أو إيماءة.

كانوا، وهم يدسون عيونهم بين أعواد القطن المتشابكة، بحقًا عن بيض الفراشات «اللُّطَغ»، يتشاركون في رسم ملامحه كاملة، مما سمعوه متناثرًا ومن خيالهم، لكنهم يعجزون عن استخلاص صورة كاملة ناصعة له، غير ما وصل إلى آذانهم، وهم منه في شك عميق.

جن هو أو أنس، لا يعرفون على وجه الدقة، لكنهم يدركون أنه جبار، يملك تلك الحديقة الغنّاء، الممتدة على مرمى أبصارهم من الجسر إلى النهر، وتبدو معرفة ما يجري داخلها محفوفة بخطر شديد.

حين يصرفهم الخولي، بعد أن تمضي ساعتان كاملتان عقب أذان الظهر، يجرون إلى الترعة الوسيعة التي تحاذي سور الحديقة،

يسبحون في مياهها لاهين، ويرسلون أبصارًا حسيرة إلى السور العالي. تملأ أنوفهم رائحة الثمار التي استوت على الفروع المائلة. يسحبون ريقهم في حلوقهم الجافة، مستحلبين ما يروق لهم من طعم الفاكهة، بينما الجوع يأكل بطونهم الضامرة.

صاروا مع الأيام منجذبين إلى الحديقة، كدراويش يتطوحون في حلقة ذكر وسيعة. رأى كل منهم أخاه وعظامه تكتسي لحمًا طريًا، وصوته يخشوشن، وينبت عشب أسمر خفيف تحت أنفه، وفوق شفتين تزدادان غلظة. لكن السؤال ظل حائرًا في الرؤوس التي تكبر، وتطل أشواكه من العيون التي تفارقها براءة الطفولة.

كبروا، وكل منهم يخشى أن ينقضي أجله دون أن يتمكن من تجاوز السور العالي، ومقابلة الرجل الغريب، الذي سمعوا ذات يوم نقرات حصانه على الجسر العالي، ثم ابتلعه الظلام، بعد دقائق معدودات ملأ فيها النور المبهر المكان، وكشف وجوه الشجر وصفحة السور الممتد، بينما كان الزرع يغط في سبات عميق.

تمنى الأشرار منهم لو أن السهام التي مرقت قد سكنت صدر أو رأس الرجل الغريب، وأن تكون دماؤه قد سالت لتسقي شجرة الكافور العتيقة التي لا يحلو له إلا الجلوس تحت ظلالها الوارفة، لكن ها هم يسمعون نقرات حصانه، ويحاولون عبثًا أن يلحقوا به.

ليلتها جروا ما وسعهم نحو الجسر، لكن الوحل أبطأهم. التراب ملأ عيونهم. هبت عاصفة هوجاء كانت تدفعهم إلى الخلف. زامت الريح في آذانهم فامتنعت عن السمع، حتى إن كلا منهم لم يسمع صراخ صاحبه، وهو يحاول أن يتفادى الحصى الدقيق الذي هاج وماج

وضرب الوجوه.

أين يذهب هذا الرجل في بعض الليالي على ظهر حصانه؟

لا أحد يعلم، فهو يخرج حين لا يكون أحد ماشيًا على الجسر، أو باقيًا في حقل قريب منه. هل يقف الرجل على أطول فرع في أعلى شجرة، ويرقب الطريق جيدًا قبل أن ينطلق؟ وحتى لو كان يفعل ذلك فما الذي يجعله يضمن ألا يكون أحد مختبئًا في خصه، أو رابضًا تحت شجرة سنط أو صفصاف من تلك التي تقف على رؤوس الحقول، فيخرج فجأة ويلاقيه؟ ولو أنه يركب أعلى شجرة في الحديقة ليطمئن إلى خلو الطريق من المارة فكيف ينكشف له كل هذا الخلاء في الظلمة الحالكة؟

رجل آخر زعم أنه قد قابله، طلب منه كل الذين تجمعوا ذات ليلة أمام باحة المسجد يتحدثون عن الغريب بعد صلاة العشاء؛ أن يصفه لهم، فتلجلج، ورسم أوصافًا لم تدخل عقل أي منهم، وحين حاصروه بالأسئلة، اعترف أنه كان يمزح.

واستسلم الجميع لما سمعوه من «محروس» الذي كان لا يخرج الكلمة إلا بشق الأنفس. يتوه قليلًا، ثم ينطق حروفًا متقطعة، وهو يتلفت حوله، وكأن الرجل يراه، أو هو يرى الرجل، ويتلقى من عينيه شررًا حارقًا، أو يسمع منه تحذيرًا لا يسمعه كل السائلين. في كل مرة بدأ «محروس» الكلام، ثقل لسانه، وارتعش جسده، وقال للناس وهو ينفض جلبابه الواسع من غبار الشارع: لا يمكن أن أزيد.

ما كان مأذونًا له أن ينطق به كان شحيحًا، لا يشفي غليل كل الذين أكلتهم الأسئلة التي تتكاثر بمرور السنين. فكل ما عرفوه إلى جانب

ما سبق أن صرح به، وهو كل شيء، أن أحد خفر الرجل الغريب طلب منه أن يحكي له عن كل ما يدور في القرية، يصف له البيوت، ووجوه الناس، رجال ونساء وأطفال، وعدد البهائم في كل بيت، ومساحة الأرض التي يملكها كل فلاح، وأبرز الحوادث التي مرت بالقرية من أحزان وأفراح، ثم أشار إلى شاب كان يجلس على مقربة منه أن يدون كل ما يقال في ورق ناصع البياض، ممتد لا تبدو له نهاية.

يفتح الشاب، الذي لا أحد يعرف اسمه، صفحة الدفتر، ويغمس ريشة في محبرة، ويبدأ في الكتابة، فيطوي أمامه كل مساحة تمتلئ بالحروف. تمتد مساحة أخرى بيضاء. هكذا، حتى ينتهي، فتكون الورقة قد انطوت. صارت أسطوانة بيضاء لا اعوجاج فيها. يمدها إلى الرجل المُهاب ويمضي.

هذا كل ما قاله «محروس» قبل أن يسقط ميتًا على أول القرية ذات ليلة. كان قبل أن تفارقه الروح بثوان معدودات يسعل. زجر كلبًا نبح عليه بشدة. طلب من أحد الساهرين أن يصب له كوبًا من قرفة تغلي في آنية من نحاس اسودت من طول استعمالها. كانت مدفونة في راكية نار صافية، تهتك ستائر الظلام التي يلفها نور خافت. ثم سعل مرة ثانية، وزجر من جديد الكلب الذي كان يقترب منه مادًا لسانه يلهث. قبل أن يصل إليه كوب القرفة كان قد فارق الحياة. قلّبه رجل يمنة ويسرة، فوجده جثة هامدة. صرخ فشرخ السكون المخيم على البيوت الخفيضة. تقلب الناس في مخادعهم. لمّا توالى الصراخ هبوا فزعين. جروا ناحية الصوت الصارخ. وجدوا أمامهم وجه «محروس» ناظرًا إلى السماء.

كانت عيناه مفتوحتين، يتطاير منهما شرر كثيف. وجهه يدمي من جرح غائر، وكأن سيفًا قد شجه. جبينه صار فحمة. يده كانت مرفوعة في اتجاه الحديقة القريبة البعيدة. من فمه يخرج رغاء، يسيل على الأرض كأنه سحابة بيضاء ممتدة، تحتشد فيها حروف تتساقط على التراب. تتلاشى قبل أن يتمكن أي من الواقفين حوله من قراءة ولو حرف واحد.

قال أحدهم: يبدو أن الرجل مسموم. الرغاء الذي يتدفق من فمه ليس عاديًا.

قال آخر: بل عضه الكلب المسعور.

قال ثالث: جبهته محروقة وشعره، وكأنه قد دفن رأسه في راكية النار.

تدخل رابع، وهو ينظر إلى الحديقة وقال: ليست عضة، ولا حرقًا، ولا شمًا. هي رمية سهم أتته من خلف سور الحديقة.

عدلوه حتى استوى جذعه أمامهم. نزعوا عنه ملابسه. أشعلوا قشًا من جديد، فهرب الظلام الراقد حول جثته. فحصوها جيدًا، فلم يجدوا أثرًا لقذفة سهم.

قال أحدهم: إنها صاعقة.

لكن الخفير طوح يده في الهواء مستنكرًا ما سمع، وقال في غضب: كنت إلى جانبه، ولو كانت صاعقة لقتلتني مثله.

وجموا حائرين، وهم يفكرون في الغُسل والكفن والدفن. وحده

«رضوان» الذي شرد وهو يرفع عينيه إلى السور العالي، كان يصارع الأفكار المضطربة التي اندلعت في رأسه، فهزته هزًا، فجعلت مَن حوله يعتقدون أن حمى قد أصابته فجأة من أثر ما يرى، أو أنه يكتم دموعًا تتزاحم داخله وتريد أن تنفلت، لتغرق الوجوه والتراب.

تركهم يتخبطون في الحيرة، وظل صامتًا، فلمّا عادوا إلى النجع، وأخلدوا إلى النوم، خرج هو يمشي حذرًا، وانبعث في الليل، يغالب ارتجافه، ويدفع قدميه اللتين لا تقدران على حمله، في اتجاه الحديقة.

(4)

اقترب «رضوان» من الحديقة في جرأة. وقف عند السور، يتطلع إليه، سأل نفسه: كيف أشب عليه دون أن يراني أحد؟ لاح له طيف «محروس» في الظلام، فجفل وتردد. وخزه شوك الأسئلة. خارت ساقاه، فسقط مكانه مغشيًا عليه، وكأن صاعقة قد ضربته، أو سهمًا زُشق في قلبه أو رأسه.

انتبه إلى يد تضرب كتفه في لطف. فتح عينيه، فإذا برجل لم يرَ مثله من قبل، سخي اللحم والعظم، بهي الطلعة، يقف إلى جانبه حصان لم يرَ «رضوان» في قوته وملاحته. أمره الرجل: «اركب خلفي، أو أسرع بعيدًا، فقد حان وقت الهروب.»

حاول النهوض لكن شيئًا كان يجذبه إلى الأرض، بينما عيناه ذاهبتان إلى حيث صاحب الوجه المليح المهيب. مد الرجل يده، وجذب «رضوان» بقوة. ألقاه فوق الحصان بيد واحدة. قفز خلفه، ورمح بعيدًا.

(5)

بينما الحصان يرمح هجم الماء عفيًا. طوفانًا كان أو سيلًا عرمًا، وليس مجرد فيضان كما اعتاده الناس. راح يجرف أمامه كل شيء. ضرب سور الحديقة العتيق فأسقطه. خلع الأشجار من مكانها. تهاوى النخيل. اندلع صراخ في النجع، اختلط بنباح كلاب ومواء قطط وصياح ديكة، ترسل استغاثة أخيرة قبل الغرق.

سقطت جدران بيوت الطمي فوق رؤوس مَن لم يتمكنوا من الفرار. مَن فروا جروا غربًا وشمالًا، يسابقون موجًا هائلًا يطاردهم، لكنه لحق بهم وجرفهم. ضاع كل شيء كأنه لم يكن. انتهت المعالم الدالة على أن حياة كانت تدب على الأرض هنا.

لم تبقَ سوى حكايات تلاها الناس على المصاطب في القرى الناجية بعد انحسار الماء كاشفًا الخراب والأوجاع.

(6)

رمح الحصان ساعات، وفوقه جسد الرجل يمزع الريح، و«رضوان» ملقى أمامه كأنه زكيبة شعير. بلغ ربوة عالية. كان الصبح قد انبلج عن نور غامر. ظهر اليمام في الأعالي يدور، بعد أن فارق الحديقة التي طمرها الماء.

توقف الحصان. ترجل مَن يقوده، ثم رفع «رضوان» وحطه فوق ربوة صلدة، كأن عاصفة هوجاء قد حملتها من الجبل إلى الأرض الطينية في زمن سحيق، ونسيها الناس. غمز الرجل كتف «رضوان». ضرب خده خفيفًا حتى أفاق، فإذا بالشمس بازغة فوق سن الجبل.

ضرب شعاع الشمس عيني «رضوان» ففتحهما، فرأى وجهًا عليه آثار نعمة مقيمة، مستديرًا كالبتاو، وناعمًا كالدقيق. يشع منه نور عجيب، لا يقدر مَن ينظر إليه على أن يستبين الملامح المدقوقة فيه في انتظام وامتثال.

سأله «رضوان» وهو يرتجف: مَن أنت يا عم؟

ابتسم الرجل، وقال في هدوء: أنا الذي حملك من الهلاك إلى النجاة.

سأله: أي هلاك؟

أجابه: الفيضان جرف أمامه حديقتي بأشجارها ورجالها وماشيتها وطيورًا كانت نائمة في الخنان. هجم الماء على نجعكم فكأنه لم يكن. لم ينجُ سوانا.

فزع «رضوان» لما سمعه، وسأله: هل مات أهلي؟

كرر ما قاله: لم ينجُ سوانا.

انهمرت دموع غزيرة من عيني «رضوان»، وبرقت في شعاع الشمس، ونور الوجه الذي يتطلع إليه في امتنان عجيب. سأل الرجل: وأنت، أين أهلك؟

صمت برهة، وقال: لم أتزوج قط، ولم أقترب يومًا من أنثى.

سأله: أراهب أنت؟

أجاب: لا، لكن اكتفيت بذاتي.

استرد «رضوان» شجاعته الهاربة، وسأله من جديد: هل أنت عنين

أم عقيم؟

رفع الرجل وجهه في اتجاه الشمس التي كانت قد فارقت سن الجبل، وقال: في الحياة ما يُشتهى غير النساء.

ثم مد يده فنهض «رضوان» وسار به إلى خص صغير من البوص والجريد على طرف الربوة، ووقف أمامه، ونادى: يا مجذوب.

كان رجل ينام في ركن الخص، فنهض يفرك عينيه. حين رأى الرجل تهلل وجهه، وقال: سيدنا العظيم. انتظرتك منذ أن زرتني قبل سنين تعبت من عدها.

نظر الرجل إلى «رضوان»، ثم إلى المجذوب، وقال له: أوصيك بهذا الفتى خيرًا، اعتبره ابني الذي لم أنجبه. أما أنا فذاهب لأفعل ما ينبغي عليّ.

وسأله المجذوب وهو يملأ عينيه من نور الوجه المستدير: ماذا ستفعل؟ فأجابه: سأنبه الناس في كل قرية أصادفها إلى هجوم الماء، حتى أصل المحروسة، وهناك مقامي إلى جوار الحُسين. رحلة طالما أجّلتها، وحان أوانُها.

دفع الرجل يده في خُرج يتدلى على جنب الحصان. أخرج صرة مملوءة بالنقود والذهب. مدها إلى المجذوب، وقال: هذه لك. لكن المجذوب قهقه حتى بان حلقه، وقال: أنت تعرف أن هذا ليس لأمثالي. ابتسم الرجل، وقال: هي للفتى، وأنت مؤتمن عليها. ثم وضع يده على كتف «رضوان» وواصل: وعليه.

دخل الرجل المهاب الخص، فإذا بضرة مهترئة ملقاة وسطه، فتحها

عن كسور يابسات. التقط واحدة منها، وراح يقضمها على مهل. شرب من قُلة ينز الماء من جسدها البني. خرج من الخص على مهل، حتى وصل إلى حصانه، وشب فوقه. ضربه في جنبيه خفيفًا بقدمين مدسوستين في خف لين، فانطلق نحو الشمال، يعاند الريح.

أمّا اليمام، فبعضه راح يطير فوقه، والحصان يجري ما وسعه. بعضه حام حول الخص، ثم حط على أطرافه، وسكن.

(7)

نظر «رضوان» نحو الجنوب، وقال وهو يشير إلى البعيد: سيهجم الماء من هنا. ابتسم المجذوب، وقال: طالما هجم في سنوات بعيدة، ولم يبلغ في أي مرة تلك الربوة العالية، فلا تخف.

في اليوم التالي جاء الماء جارفًا معه جثث آدميين، وبهائم نافقة، وريش إوز وبط ودجاج، وأشياء كانت عزيزة في البيوت التي انهارت بين غمضة عين وانتباهتها، وجذوع وفروع شجر، وعراجين نخل وجريد، وقوارب صيد لم يتمكن أصحابها من رفعها بعيدًا.

دار الماء حول الربوة، فصارت جزيرة ناجية، ليس عليها سوى رجل وفتى، وخص هش، وسرب يمام يطير فوق الموج الهادر ويعود.

(8)

انتبه «رضوان» بعد أيام إلى أن قُلة المجذوب لا ينقص ماؤها، وصرة الخبز كلما أكلا منها سويًا عادت ممتلئة. أخرسه العجب أيامًا، ثم سأل المجذوب: مَن أنت يا عم؟ ابتسم، وقال: دعك مني،

فأسماء أمثالي يجب ألا تهم أحدًا، ألم تسمع الرجل المهيب يناديني بالمجذوب، حتى هو لا يهتم باسمي، ولم يسألني عنه في مرتين التقيته، مرة جاء حين ناديته وسمعني، والأخرى حين أتى به الماء المنهمر. ثم نظر إلى «رضوان»، وقال: المهم هو اسمك أنت، وبالأحرى اسم جدك، فهو مَن سيظل يتردد في هذا المكان، يغيب سنين طويلة، ثم يعود، ويبقى.

وضع «رضوان» رأسه بين كفيه، وأجهش بالبكاء، ثم رفعهما، وقال: انقطع ما خلفي، فأبي وأمي وإخوتي ماتوا في الفيضان، وقراريط أرض كنا نزرعها أكلها الماء، وربما لا تعود. وضع المجذوب يده على رأس «رضوان» وقال: انظر أمامك، فمَن أتى بك إليّ يعرف مثلما أعرف، أن هذا مكانك، وأهلك إلى آخر الزمان. ثم أمسك المجذوب يد «رضوان»، وقال له: أنت رضوان بن عبد القيوم بن خليفة بن عرفان بن سدّاد. فتح «رضوان» عينيه متعجبًا، وقال: هذا ما حفظني إياه أبي. ابتسم المجذوب، وقال: أبوك لا يعرف مَن كان جدك الكبير، لقد كان صاحب سر عظيم. كان أمهر جندي في جيش منتصر، فلما بغى الجند خالفهم، ولم يرضَ أن يلطخ سيفه بدم أحد، رمى السيف، وعاش شهورًا في جوع وحاجة، حتى صفت روحه، وحمل الفأس، فأكل من ضرباته حتى مات.

شرد المجذوب قليلًا، ثم عاد: جدك رأى الطريق في الفأس، لكنه لم يضربه إلا بمقدار ما يأكل وأهله.

- ومَن أتوا بعده؟

- حافظوا على ما كان عليه، فعملوا أجراء في أرض الناس، حتى

جاء أبوك.

- ذرية بعضها من بعض.

- معك ستفيض الفأس بما فوق حاجتك، لكنك لن تبخل على أحد.

(9)

انحسر الماء، وظهرت الأرض حول الربوة، فتطلع «رضوان» إليها، ثم نقل بصره إلى المجذوب وسأله:

- أرض مَن هذه؟

- ليست لأحد، إنما هي طرح النهر، رواسب من طمي جاء من كل البلاد.

مد «رضوان» بصره فإذا بها أرض عفيّة، تنتظر الحبّ، وقال:

- لي في الزراعة، فقد تعبت منها إلى جوار أبي سنوات.

- هل تريد زراعتها؟

- أريد، لكن أين لي بفأس لأغرس، ثم منجل لأيام الحصاد؟

- لا تتعجل، فالكل آتيك دون أن تبرح مكانك هذا.

وما إن انتهى الرجل من وعده، حتى ظهر في قلب النهر قارب عليه سبعة رجال، يمسك اثنان منهم مجدافين، يضربان بهما الماء على مهل. اقترب القارب من الشاطئ، ونزل الرجال. ساروا نحو الربوة، لا يقصدون غيرها. فوق أكتافهم فؤوس، وفي أيديهم مناجل، ومقاطف من خوص. فلمّا صارت بينهم وبين المجذوب

خطوات، تهلل وجهه، وقال لهم: مرحبًا، بأهل الطريق.

مد «رضوان» يده إلى أحدهم، فأخذها بين يديه، وقال له: أهلًا بحفيد «الصابر».

ولم يدرِ «رضوان» إن كان الرجل يصفه، أم ينطق اسمه، فنظر إلى المجذوب، فقال: ما أطيبه من اسم، إنه مقام لا يؤتاه إلا أولو العزم، وهذا يليق بك، فلتكن من الآن رضوان الصابر، فليس أفضل على هذه الأرض من رجل يغرس، ثم يصبر حتى يأتيه الحصاد.

(10)

التقط «رضوان الصابر» الرسالة التي جاءته من حيث لا يدري. خرج في البكور يضرب الأرض بفأسه، ليهيئها للزرع. نظر إليه المجاذيب، بعد أن خرجوا من الخص، ورفعوا فؤوسهم في الهواء، وهبطوا إلى حيث كان.

«ما الذي تنوي زراعته؟» سأله أحدهم، فأجابه: هذا موسم الفول، وبعده موسم القمح والقطن. وتذكر «رضوان» الصُرة التي تركها الرجل الغهاب، فجرى إلى الخص، وأتى بها، وسكب منها في كفه، فضرب ما فيها بعضه بعضًا في رنين، طرب له هو، لكن الرجال الواقفين لم يطربوا. مد ما في يده إلى أحد المجاذيب وقال: لنشتري حبّ الفول من قرية قريبة.

هز الرجل رأسه، وصعد إلى أعلى، ثم غاب في الأرض الخلاء، يمشي على الطين ولا تنغرس قدماه، حتى لم يغد أحد يراه. عاد عند الظهر، يحمل فوق ظهره زكيبة فول. حطها على الأرض وفتحها،

فاندفعت إليها الأيدي، تغرف وتغرس.

شق «رضوان» قناة من عند النهر، وقف الرجال على فوهتها، يغرفون بأيديهم من الماء، فيجري في القناة، متوزعًا على السرائب. في اليوم التالي اشتروا أواني فخارية، فزاد الماء الذي يجري نحو البذور. لم تمضِ سوى أيام حتى ظهرت البراعم عفيّة.

أشار صاحب الخص على «رضوان» أن يدفن ما تبقى من النقود في مكان لا يعرفه غيره، فالرجل الجليل قد ترك المال له وحده، وكأنه كان يعرف أنه سيعينه على أن يبدأ طريقًا يُحصّل فيه رزقه من عرق جبينه. بعد أن اطمأن إلى اقتناع «رضوان» بما نصحه به، قال له: الرجل الذي حملك إلى هنا، سيسعى في خير كثير لك ومَن معك، لكن حين يأتيكم لن تراه عينيّ.

(11)

انتبه «رضوان» إلى أن بقية المجاذيب ليسوا كصاحب الخص، فهم إن أكلوا من طعام نقص، وإن شربوا من قُلة فرغت. حين اختلى بأحدهم، وسأله عما استرعى انتباهه، ابتسم، وقال: ليس بيننا مثل مَن أتينا إليه، فنحن في أول الطريق. وتذكر «رضوان» ما قاله له المجذوب عن جده الذي اختار طريقًا آخر، فقال في نفسه: «إنما جاء الرجال ليزرعوا ويحصدوا، ويأكلوا من عمل أيديهم». أما المجذوب، فقال له: أتوا ليؤنسوا وحدتك بعد رحيلي، وبذا أكون قد أديت الأمانة التي علقها في عنقي الرجل الجليل.

ذات ليلة كان قمرها بدرًا، يملأ الأرض نورًا، مات المجذوب. جمعهم قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقال لهم: أوصيكم بالطريق الذي

عرفتموه. دفنوه إلى جانب الخص، وهموا أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، لكن أحدهم، قال: بل صلاة الغائب، فروحه لن تفارقنا، إلا إذا نسينا العهد وخالفناه.

في أيام لاحقة، بنوا إلى جانب هذا الخص زاوية، ولم يهدموه، وقال «رضوان»، وهو يستعيد ما سمعه من المجذوب حين كان ثاني اثنين هنا: هو النقطة التي بدأ منها كل شيء هنا.

(12)

صار لكل مجذوب خصه، يكدح في النهار بين الزروع، وفي الليل يصلي ويلهج لسانه بالتسابيح قبل أن ينام. ولأن الفلاحين يرون أن المجاذيب من أهل الله لم ينازعهم أحد على الأرض التي طرحها النهر، بل كان جيرانهم في الأرض يشيرون عليهم أحيانًا بما يعرفونه من فنون الزراعة.

في كل ليلة جمعة يقيمون حضرة ذكر. ينشد أحدهم بصوت طليّ، يحمله الليل إلى آذان الذين يروون أرضهم ليلًا، أو يعزقونها على ضوء القمر، لا سيما في الصيف، هربًا من صهد النهار. بعضهم يترك ما في يده، ويهرع نحو الذاكرين. مع الأيام صارت للمجاذيب ضحبة في القرى القريبة من أخصاصهم.

أبلغهم «رضوان» ذات يوم، بأنه يريد أن يبني بيتًا، واقترح عليهم أن يكون لكل منهم بيته. ثلاثة منهم وافقوه، وأربعة أصروا على استمرار عيشهم في أخصاصهم. اختار الموافقين على الاقتراح بقعة على يسار الربوة وأقاموا عليها بيوتًا بسيطة.

رأى «رضوان» فتاة اسمها «مفيدة» تمشي وراء أبيها حاملة عنه الطنبور، فراقت له. مع كل مناوبة للري كانت تأتي، فراقبها جيدًا. فاتح المجاذيب في أمر خطبتها، ففرحوا له. وجد الثلاثة الذين انتقلوا من الأخصاص إلى البيوت يفاتحونه في أمر زواجهم، فقال لهم متهللًا: يصبح الفرح أفراحًا.

بعد الحصاد، تزوج «رضوان» من «مفيدة». تزوج أحد المجاذيب من امرأة طلقها رجل من قرية بعيدة. تزوج الاثنان من أرملتين. كانت الفتاة والنساء ولودات، فلم تمضِ سوى سنوات قليلة، حتى أصبحت الربوة شاهدة على شغب الصغار.

أنجب كل مجذوب ولدًا وبنتًا، وأنجب «رضوان» ثلاثة أولاد وبنتًا. وكانوا قد زرعوا أشجارًا ونخيلًا، راحت تمتشق في وجه الريح، فسكنها اليمام وباض، وفقس بيضه عن صغار طير، كان يطاردها الأطفال كلما حطت على الربوة أو بين الزراعات.

كان الحصاد وفيرًا، فتمكن «رضوان» من ادخار مال، زاد به ما معه، حتى اطمأن إلى أنه صار قادرًا على تأجير أرض جديدة ليزرعها، وأتى إليها بفلاحين من قرى مجاورة، فانحنت فوقها ظهورهم يكدحون. نما الزرع عفيًا، وزاد الحصاد.

(13)

كبر الصغار، فبنى «رضوان» والمجاذيب بيوتًا لأولادهم. تزوج أبناء «رضوان» الثلاثة من بنات المجاذيب. تزوجت ابنته من أحد أولادهم. أما الولدان الآخران فتزوجا فتاتين من قرية قريبة. تجاورت البيوت فأطلق عليها الناس «نجع المجاذيب».

حرص «رضوان» على أن يُعلّم أولاده الثلاثة فنون الزراعة. أظهر أكبرهم «وهدان» براعة فائقة في هذا، فأسند إليه أبوه الكثير من الأمور، مطمئنًا إلى حكمة كان يرجعها الأب دومًا إلى سلامة الطريق الذي سلكه أجداده، وبركة المجاذيب.

جاء جُند بعد ظهر أحد الأيام شاهرين سيوفهم، وكان «رضوان» يشرف على أنفار يحصدون القمح. دخلوا النجع، وسأل قائدهم: أين الزاوية؟ أشار إليها أحد المجاذيب، وهو يتوجس خيفة: إنها هذه. سألوه عن «رضوان الصابر»، فأرسل مَن يستدعيه، فلمّا جاء أبلغه الجُند أن هناك مَن سعى لأن يحبس لهذه الزاوية رزقًا من قبل السلطان، وأن الموافقة قد جاءت، وأنه هو مَن سيقيم على هذه الأحباس، ويكون له حق الانتفاع بها، وينفق منها على أعمال البر.

وحين سلمه الجند مرسومًا سلطانيًا بهذه الرزقة، قال له كبيرهم: هي معفاة من المكوس، لكن لتعلم أن من حق السلطان استعادتها في أي وقت شاء. هز «رضوان» رأسه في امتنان، وقال: أطال الله عمر السلطان المعظم.

في المساء رفع كفي الضراعة، ودعا كثيرًا للمجذوب صاحب الخص والزاوية، وللرجل الوجيه، الذي لا يخامر «رضوان» شك في أنه هو مَن سعى لتخصيص ارتزاق للزاوية. تحققت النبوءة التي أطلقها المجذوب الطيب قبل رحيله بأيام.

(14)

ضرب الطاعون البلاد، فمات خلق كثير، وانكمش أهل «نجع

المجاذيب» في بيوتهم، واعتزلوا ساكني القرى المجاورة، واكتفوا بأنفسهم في أعمال الفلاحة. حين اضطروا إلى ذلك، أبلى الأولاد بلاءً حسنًا، إلا أن الوباء اللعين لم ينقشع إلا وقد خطف رجلين من المجاذيب، والابن الأصغر لـ «رضوان»، وثلاثة آخرين من أطفال النجع.

مع هذا جاءت لـ «رضوان» ما اعتبرها منحة في قلب هذه المحنة، فكثير من فلاحي القرى المجاورة ماتوا، ومَن لم تكن له ورثة، استرد أهل الحكم أرضه، فلمّا عرضوها للبيع، وكانت قد سنّت في البلاد قوانين تسمح بالتملك، اشتراها «رضوان»، وأضافها إلى ارتزاق الزاوية وأرضه، واشترى أرضًا أخرى من تلك التي استأجرها، فصارت له زراعات كثيرة.

فكر «رضوان» في تخصيص جزء من أرضه لزراعة شتلات الفاكهة والخضراوات، فصار الناس يقصدون مشتله من كل القرى، لينفتح له باب رزق واسع.

ولمّا اشترط أهل الحكم أن يُدفع عن كل فدان من أرض الارتزاق مائة درهم دفعها عن طيب خاطر، إذ كانت تغل له محصولًا وفيرًا. زاد المال في خزينته، فبنى مسجدًا على مقربة من الزاوية، وعلى سطحه بنى كُتّابًا يصعد إليه الصغار من سلم حجري جانبي. جلب من إحدى القرى إمامًا للمسجد، كان عليه أيضًا أن يُحفّظ الصغار القرآن.

أدرك «رضوان» أن النجع في حاجة إلى أهل الحرف، فتحدث مع مزين ونجار وحداد من قرية مجاورة، فأرسل كل منهم ابنه ليلتقط

رزقه في أرض جديدة. حين جاءوا ساعدهم «رضوان» في بناء بيوت لأسرهم، فانتقلوا إلى النجع عن طيب خاطر.

فاض المال في جيب «رضوان» فرأى أن يبني لنفسه سرايا وسط الزراعات. غرس حولها أشجار الفاكهة، وأحاطها بسور من شجر الوحواح الممشوق، وبينه أشجار الدرادكس ذات الأشواك المسنونة. احتاجت السرايا إلى خدم، فجلب رجلًا يسمى «بخيت»، كانت له زوجة وبنتان وثلاثة أولاد، فصاروا جميعًا من خدم السرايا وغمالها.

حين ركب «رضوان» النهر ذات يوم لزيارة مسجد الحسين في المحروسة، عاد ومعه جاريتان من سوق الجلابة، واحدة من بلاد الحبشة، والأخرى شركسية. الأولى لها سمرة رائقة، وجسد لولبي ساخن. الثانية كانت حمراء ذات عينين زرقاوين.

اشتعلت الغيرة في قلب «مفيدة»، وهي ترى في ذهابها وإيابها «رضوان» منشغلًا بجاريتيه الحسناوين. حاولت أن تجاريهما، فاهتمت بزينتها، لكنها يئست من كف زوجها عن الشغف بالجاريتين. ولمّا ضجرت، واستعانت بولديها المتبقيين على قيد الحياة «وهدان» و«طاهر»، لجأ هو إلى إمام المسجد، فقال لسيدة السرايا: ملك يمينه ولا تثريب عليه، وعليك بالصبر.

أدركت الجاريتان ما تشتعل به نفس سيدتهما، فكانتا تحضان «رضوان» أمامها على ألا يهملها، وقالت له الحبشية ذات يوم: «هي الأصل ونحن الفرع»، ونقل قولها إلى «مفيدة» فرضيت بنصيبها، لا سيما أن «رضوان» كان قد أهملها قبل استقدام الجاريتين، منشغلًا بالأرض، وفض نزاعات تنشب بين حين وآخر في النجع والقرى

المجاورة، الذي صار هو كبيرها جميعًا. لكن مع قدوم الجاريتين، استرد صباه، بفضل وصفات العطارين. وكان كلما صار في فراش «مفيدة»، قال لها: لم تشبعني غيرك.

كان يكذب، لكن زوجته أسعدها أن تسمع منه ما لم يقله حتى في أيام العسل، وقبل أن تنجب له أولاده الثلاثة وبنته. ارتاحت «مفيدة» لالتزامه بشرطها، وهي ألا ينجب من أي جارية، فكان يأتي كلًا منهما في أيام لا تحمل فيها النساء. ساعده على الإيفاء بما تعهد به اختلاف أوقات الطمث بين الجاريتين.

وحتى الخادمات من «آل بخيت» كن لا يسلمن من تلصصه عليهن وهن ينظفن السرايا، أو يقدمن له الطعام. كان يكتفي بالنظرات الطويلة إلى عجيزاتهن المكتنزات، أو مغازلتهن بين حين وآخر، فكن يعتبرنه رجلًا فاضلًا أسكن الله في قلبه محبة الذكر والأرض والنساء.

حين أنجب «وهدان» ابنه «غنوم»، نظرت «مفيدة» إلى «رضوان» وقالت: صرت جدًا، وعليك من الآن أن تحتشم. لكنه لم يطاوعها. استمر على حاله حتى مات وهو في الخامسة والثمانين، يمشي بلا عكاز، ويصلي واقفًا، ويطوح رأسه في حلقات الذكر، ويشمر عن ساعديه أحيانًا لينزع بالفأس الحشائش النابتة حول جذور أشجار الحديقة.

كان قد اشترط على ولديه أن يدفناه إلى جوار الزاوية، في وسط قبور المجاذيب الثمانية، ثم دفنوا بعد سنة واحدة أمهما إلى جواره.

(15)

لم يُنقص «وهدان» الأرض التي تركها له أبوه، بل زادها. زاد أيضًا عدد المحاريث التي تجرها الثيران. شق ترعة تسحب الماء من النهر، وتوزعه على قنوات تمزع أرضه من أدناها إلى أقصاها. أقام جسرًا ليقي الزرع من الفيضان حين يأتي، وأقام قنطرة يجري من تحتها ماء الترعة في قواديس فخارية واسعة، جعل أمامها بابًا من حديد، يوصده الفلاحون إن هجم الماء.

كان «وهدان» على النقيض من أبيه، فاكتفى بزوجته، رغم أنها لم تنجب له سوى ولد واحد، ثم انقطع حملها. حرم على نفسه الجاريتين لأن أباه قد وطأهما سنوات، وكانتا تقربانه في العمر. ومع أنه اشترى جارية أخرى، فقد أبقاها إلى جوار أمه ترعاها حتى فارقت الحياة.

هام «وهدان» بتربية الخيول، فبنى إسطبلًا بالقرب من السرايا. يركب أي فرسة يستملحها، ويرمح فوق الجسر، ليشرف على العمل في أرضه بنفسه، رغم أنه عيّن فلاحًا أمينًا خوليًا عليهم، وجعل له أربعة مساعدين.

وكما فعل معه أبوه حرص على أن يُطلع ابنه على كل شيء. كان يترك له الإشراف على الأرض أيام ابتعاده عنها في زياراته المتكررة إلى المحروسة حيث يزور مسجدي «الحسين» و«السيدة زينب»، أو قصده مقامي «أبو الحسن الشاذلي» في «عيذاب» أو سيدي «عبد الرحيم» في «قنا»، أو في الأيام التي ذهب فيها إلى أرض «الحجاز» ليحج إلى بيت الله الحرام.

وكلما عاد من رحلته، أقام حلقة ذكر، يأتي إليها بمشايخ الطرق

الصوفية. استمال بعض المريدين أن يسكنوا النجع فأطاعوه، وكان يقول دومًا: لا يجب أن يخلو النجع من المجاذيب. ولما سمعه «غنوم» يقول هذا ذات يوم ضحك، وقال: كيف يخلو وسيد الزمام هو أكبر المجاذيب؟

(16)

كرّت الأيام على حالها، لا يتغير فيها إلا شراء «وهدان» لأرض جديدة، حتى جاء يوم ليس ككل الأيام. طار خبر أن بني عثمان قد دخلوا المحروسة، وشنقوا السلطان المملوكي طومانباي. نزل الخبر كالصاعقة على رأس «وهدان»، ورآه «غنوم» مهمومًا، لا يبرح السرايا، فقال له: لم ينزعوا الملك منا حتى نأسى عليه. صمت برهة، وقال: لا تنسَ أن مَن ذهب ملكهم هم مَن خصصوا لنا أرض الارتزاق، وأقروا ملكية الأرض فصار لنا منها الكثير. هز «غنوم» رأسه، وقال: لا أعتقد أن شيئًا سيتغير، وقد ينكسر الغزاة.

لكن وقع ما قدره «وهدان». وضع السلطان، الذي أتى من بعيد غازيًا، يده على كل أرض مصر، وأعاد توزيعها وفق نظام جديد، يزرعها القادرون، مقابل تسديد ما عليها، ليذهب الخراج في نهاية الأمر إلى «الآستانة»، ويكدح فيها الضعفاء بالسخرة، أو لقاء مبلغ زهيد.

بدأ التوزيع في وجه بحري، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان جُند بني عثمان على أرض الصعيد. كان «وهدان» مستعدًا لهذا اليوم. فتح خزينته العامرة بالنقود والذهب، فدفع منه الكثير كي تبقى أرضه معه، بل أضيفت إليها أرض أخرى في الشمال، نزعت من

أصحابها، حتى صار واحدًا من كبار الملتزمين في بلاد الصعيد.

بقيت أرض أخرى في الجنوب، مد «وهدان» بصره إليها، وفاتح السنجق المملوكي الذي عيّنه بنو عثمان، لكنه قال له: ستؤول إلى شاب في مثل عمر ابنك، يقال له إبراهيم الجابر، دفع الحلوان، وسجلت له في دفاتر الروزنامة.

(17)

قبل أن يستلم «إبراهيم» أرضه، جاء إلى سرايا «وهدان» صُبحًا، وطلب مقابلته. قادته الخادمة إلى بهو وسيع، فجلس منتظرًا، يغالب دقات قلبه، وهو يوقن أنه الطرف الضعيف في علاقة جوار يجب أن تدوم.

هبط إليه «وهدان» من الطابق العلوي، فلما رآه «إبراهيم» نهض ومشى نحو. صافحه ثم اقترب وقبّل رأسه، وقال: أنت في مقام والدي، وسيرة المرحوم الوالد «رضوان»، عاشت في بيتنا سنوات، ولا تزال.

كانت بداية مريحة، بددت مخاوف «وهدان» وهواجسه. ومع أنه كان يريد أن يضم الأرض الواقعة في جنوب النجع إلى التزامه، لكنه لم يبتئس كثيرًا حين آلت إلى غيره، فما صار بحوزته أكبر مما كان يحلم به، حتى وإن غيّر أهل الحكم الجدد شكل العلاقة بين كبار المزارعين والأرض.

نظر في وجه «إبراهيم»، وقال:

- كيف كانت سيرة أبي ثُروى في بيتكم؟

- الوحيد الذي أنقذه السيد الكبير المهاب، الذي قيل إنه صديق السلطان، ورضي صاحب الخص أن يشاطره خلوته.

هز «وهدان» رأسه مستملحًا ما سمع، لكن لم يستطع أن يخفي العجب السابح في بحيرتي عينيه. وكان «إبراهيم» شابًا ذكيًا، ففطن إلى ما يدور في رأس الرجل الذي يجلس إليه في تأدب، فقال، وهو يشير من النافذة: المجذوب صاحب الخص والزاوية والضريح يمت بصلة قرابة لجدي. مد «وهدان» بصره إليه، فواصل «إبراهيم» دون أن تفارق الابتسامة مُحيّاه: جئت طفلًا إلى هذا النجع لزيارة زاوية المجذوب مع والدي، وشعرت براحة عجيبة في هذا المكان، وتملكني إحساس وقتها بأن لي هنا أيامًا.

سأله: هل جئت لزيارة الزاوية؟

- أبي تاجر، جاء ليشتري القطن منكم يا سيدي، ثم أخذني لزيارة الزاوية، وحكى لي عن صاحبها.

- مَن أبوك؟

- اسمه «مساعد الجابر».

- أعرفه، ويبدو أنه قد أورثك الكثير.

- هل تقصد المال؟

- الصفات والمال، وربما أشياء أخرى.

ودخل «غنوم» فقال له أبوه، وهو يشير إلى ضيفه: جارك في السنين القادمة.

(18)

بنى «إبراهيم الجابر» في شمال أرضه بيوتًا لفلاحين جاء بهم من مسقط رأسه، وقيل إن أغلبهم من أهله. كانت تفصل بين البيوت وبين «نجع المجاذيب» مسافة قصيرة.

مع الأيام راحت بيوت أهل «الجوابر» تنمو في اتجاه الشمال، وبيوت النجع من «الصوابر» و«آل بخيت» تتمدد في اتجاه الجنوب، حتى تلاقتا، فأضيف ما بناه «إبراهيم» إلى النجع، ولم يكن لديه أدنى اعتراض على أن يصبح السيد «وهدان» هو كبيره، وأن يؤول هذا الموقع إلى ابنه من بعده.

حتى حين بنى «إبراهيم» بيتًا لنفسه، وآخر لأخيه «يونس»، لم يجعلهما بالاتساع الذي عليه سرايا «وهدان». كان يعرف أن الرجل قد ورث عن أبيه «رضوان» هيبة كبرى في المكان، وله صلات جيدة بقادة المماليك في زمام الصعيد، ضاربة جذورها من قبل حكم بني عثمان، وأن الناس يحبونه ويكبرونه، وشخص مثله يجب على مَن يجاوره، لا سيما إن كانت أرض التزامه أقل، أن يتقرب إليه بالطاعة والمحبة.

لم يُغيّر «إبراهيم» موقفه هذا بعد موت «وهدان» وذهاب الالتزام بما عليه لابنه الوحيد «غنوم» الذي كان قد تعلم من أبيه الكثير، لكن جاءت الأيام حبلى بما لم يكن في الحسبان.

اشتعلت النفوس بالغضب. نفرت العروق من فرط الغيظ. بدأت أيام عصيبة، لم يكن أي من أهل النجع وقتها يظن أنها ستطول، وتزرع في طريقها حكاية غريبة طويلة، يرويها الناس جيلًا بعد جيل.

ورفع القوّال ربابته في وجه الغضب العارم، وأنشد بصوت مجروح:

الأرض وش مقسوم

بين الغنم والديابة

والفتنـــة لـمّا تقــوم

تكسر قلوب الغلابة

الصَّوابِر والجَوابِر

(1)

سرى عزف الرباب يداعب نسائم الليل، وقلوب الساهرين، وينذر بما هو آتٍ في قادم الأيام. دار في الفضاء قليلًا، وعاد إلى آذان السائرين والجالسين والنائمين. هز الفلاحون العائدون من حقولهم في المساء رؤوسهم ألمًا. رقصت النسوة دامعات في البيوت. دار الصغار حول أنفسهم موزعين بين ضحك وبكاء. هاجت البهائم في الحظائر، فاختلط الثغاء بالنعير والنهيق. نقنق الدجاج، وزبط الإوز، وهدل الحمام، وهو ينظر إلى سماء طليقة حانية، شاهدة على الغربان والثعابين والتماسيح والضباع التي تفكر وتنطق، وتزرع في الأرض شرًا في طريق مَن يشدون عربة الحياة الثقيلة إلى الأمام.

(2)

كان الناس نائمين حين غضب الماء. تصادم السحاب فوق الهضاب البعيدة، وتدفق الموج غزيرًا من بين الصخور، فجرف أمامه كل شيء. لم يصلهم خبر ما جرى هناك حين ذهبوا إلى مخادعهم البسيطة، يتوسدون أذرعهم التي كلّت من الكدح نهارًا في الحقول، ويحلمون بصبح لا يختلف عن المساء.

شق صراخ قلب ليلة صيف صافية في «نجع المجاذيب»، سبقه نباح الكلاب. انتبه صاحب أول بيت على طرف النجع، فهب مفزوعًا، يفرك عينيه، ويرسلهما إلى عمق الظلام، وهو يقاوم التثاؤب، لعله يتبين مَن يصرخ، لكنه لم يكن في حاجة إلى هذا، حين سمع الكلمة

التي يعرف ما يأتي بعدها: فيضان.. فيضان.

كررها الرجل في صراخ يشتد. ضربت قدماه التراب الذي سيصير بعد قليل طينًا، فأثار عجيجًا خلفه، وهو يجري في الشارع العمومي. مرق صراخه من النوافذ الضيقة، واقتحم الغرف المقبضة. سمع أزيز أبواب البيوت وزمجرتها، ثم شاركته الصراخ، واحدة، فاثنتان، فثلاث من النسوة اللاتي يعرفن جيدًا ما ينتظرهن.

زاد العدد في ثوان معدودات، آتيًا من كل الشوارع الضيقة والأزقة، مختلطًا بعويل ونحيب، وأصوات صغار بدت كثغاء عنزات جوعى. فرقع دق الطبول، لينبه الناس، فأدركوا أن كبيرهم قد وصله الخبر. كان قد أطلق خفره وخدمه ينبهون، على طريقة سيدهم، مَن لا يزال غافلًا من أهل القرية.

انفتحت أبواب الدور عن آخرها، واندفع منها الفلاحون وزوجاتهم وأولادهم. كل واحد يسحب ما لديه من ماشية، بقرة كانت أو جاموسة، أو حمارًا لا غنى عنه في أي بيت. بعضهم كان لديه قليل من الضأن والماعز، فساقه أمامه. جرت الكلاب فالتحقت بأصحابها، تبعتها كلاب الشوارع وقططها التي لا صاحب لها. الكلاب سارت إلى حيث يمضي الناس خائفين.

حملت النسوة ما قدرن عليه، من الأواني الرخيصة والطعام. مَن لديها شيء من ذهب أو فضة طوقت به معصميها أو عنقها على عجل. حتى الصغار حملوا ما استطاعوا من أشياء البيوت القليلة.

كانوا يعرفون إلى أين يذهبون، فتزاحموا نحو الجسر، حين بلغه أولهم كان آخرهم ينسحب من طرف الشارع المؤدي إلى الزروع. لم

يفكر أي منهم في أن يقف لينظر خلفه، فيرى ما إذا كان الماء الهادر قد اقترب أم لا، فأخطار الطبيعة في لحظة المداهمة لا تحتاج أحيانًا إلى مواجهة، إنما هروب، ولا شجاعة في البقاء داخل بيوت إن بلغها الماء عفيًا لن تصمد سوى ساعة ثم تنهار، كأنها لم تقم ولو دقيقة واحدة من نهار أو ليل.

كانت أقدام السابقين تثير الغبار على اللاحقين، فيتصاعد كثيفًا، ويحجب النجوم الزاهية، لكن أحدًا لم يتوقف بحثًا عن نسمة صافية شاردة، فيمد إليها أنفه، ويلتقط أنفاسه المبهورة. كان عليهم أن يسبقوا خطواتهم ليبلغوا الجسر، فيضعونه بينهم وبين الماء الذي لا محالة بالغه بعد وقت قصير.

تجمعت النساء والصغار في الخلف، وعلى الطرف الأيمن دُقت الأوتاد للبهائم، وأُدخلت الأغنام والماعز إلى حظيرة واسعة من الجريد، ووقفت أمامها الكلاب تحرسها، بينما استعدت الحمير لمهمتها الخالدة.

يضرب رجال فؤوسهم في الأرض، ويرفعون التراب إلى المزابل المنصوبة فوق ظهور الحمير. آخرون يجمعون القش، وأعواد الذرة الجافة المكوّمة على الجانب الأيسر، ثم يُرمى هذا فوق الجسر، ويُهال عليه التراب، لعله يرتفع قليلًا، في المكان الذي يحتمي فيه الناس من هجوم الماء.

بينما هم غارقون في عرقهم، انشقت الأرض عن الشيخ «غنوم الصابر» فوق جواده، يلهب حماسهم بقوله الذي اعتاد تكراره في المُلمّات: «الهمّة يا رجالة».

(3)

أكل الماء النجع. راح كأنه لم يكن كما تركه الأوائل، واحتفظوا باسمه معتقدين أنه يأتي إليهم بالبركة ونعمة العيش ولو على الحافة. وحده قصر السيد الذي بقي واقفًا، يصد عنه سور صلب، ومعه بيت «آل الجابر» الذي كان نصف جدرانه من أحجار الجبل. شارك النخيل والأشجار العالية هذين البيتين الصمود، ومعهما مئذنة الجامع الذي كان الجد «رضوان» قد بناه بالأحجار قبل خمسين عامًا أو يزيد.

اختفت المعالم التي ألفتها العيون سنين عددًا، ولم يبقَ منها سوى الحسرات على ما ضاع. انقبضت القلوب بالمخاوف من الأيام الآتية، وكاد يقتلها القلق العارم. لم ينعقد الرجاء سوى في كرم صاحب القصر، الذي يعرف الناس كيف يجود بكل ما يقدر عليه حتى تنزاح الغُمة.

للقصر طريق آخر إلى الجسر، لا يصل إليه الماء، فيصبح هو الرئة الوحيدة التي تتنفس منها القرية طوال أيام الفيضان. ينفتح الباب الخلفي عن العبيد والخدم، وهم يحملون قفف الخبز، وبلاليص الجبن القديم والعسل. ينبعثون وسط الناس، يوزعون عليهم ما حملوه.

الشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياة المنكوبين هو قضاء حاجاتهم، إذ لم تكن في بيوتهم أكنفة ولا مراحيض، فكانوا يتسللون إلى الغيطان. يحفر كل منهم التراب تحته، ولمّا ينتهي، يهيل التراب على ما أفرغه، فيصير للزرع سمادًا. النسوة كن قد اعتدن إمساك

ما في البطون، حتى يجن الليل فيتسللن إلى الزروع، أو يقضين حاجتهن في أحواش البهائم، أما الرجال فلهم النهار والليل كالعادة. الصغار، الذين يتبولون في الشوارع، لم يكن شيء يمنعهم عن التقدم نحو الجسر، فيقضون حاجتهم الثقيلة على طرفه فرحين، وكأنهم ذاهبون إلى اللعب.

مع الأيام غاض الماء. جاء بغتة، ورحل على مهل. وقف الفلاحون فوق الجسر، ينظر كل منهم إلى زرعه الغارق والماء ينجاب عنه رويدًا رويدًا، حتى ينحسر. اقتلع الماء كثيرًا من الزرع، وأفسد ما تبقى، لكن هذا كله كان في نفوسهم، على قسوته، مقدورًا عليه. أما ما لا طاقة لهم به فهو غياب البيوت. تهاوت جدران الطين اللبن واستوت، وجرف الماء بعضها، فصارت أرضًا أخرى صالحة للزرع، ورعي الماشية، وقت أن يعود إليها النبات من جديد.

وقف فلاح على أعلى نقطة فوق الجسر، رفع إصبعه وغمسها في الخلاء، وقال: كان هنا بيتي. تبعه الجميع، وكل منهم يتحرى موضع بيته بين الغرقى، ووجوههم يكسوها الأسى من فرط خوفهم مما ينتظرهم من جهد في سبيل إعادة القرية التي صارت أثرًا بعد عين. حتى الأطلال حرمهم الماء منها، ولم تبقَ سوى الذكريات الحارة الحيّة.

سرى بينهم خبر، وهم يتابعون انحسار الماء في رجاء وحسرة، أن سيد القرية سيختار لها موضعًا آخر، خلف الجسر، من أرضه الفسيحة. أشاع شيخ الخفر بينهم ما تقرر، وهو يقول: سيبنيها سيدكم من ماله، والجهد عليكم.

هللوا، ورفعوا الأكف إلى السماء داعين له بطول العمر والبركة. لاحت في عيونهم أيام جديدة، بعد أن أجيبوا عن سؤالهم: متى نبدأ؟ فقيل لهم: اليوم، قبل الغد.

قسّم المَسّاح الأرض. أعطى «الصوابر» المكان القريب من القصر على اليسار في وجه النسيم. عن يمينهم بيوت «الجوابر». أعطى «آل بخيت»، الذين منهم عبيد السيد وخدمه، قطعة أرض في الخلف، إلى جانب بيوت النصارى. كان في القطعة الأخيرة شارع صغير فيه مكان للمزين، والنجار، والحداد، والمقرقرين الذين يذرون أجران الحصيد، وكانوا من النصارى. أقيم دكان بقالة يتبضع منه الناس ما يأتي به من البندر صاحباه «إسحاق» و«باراك»، وهما اليهوديان الوحيدان في القرية، مع زوجتيهما، ولهما أربعة، ولدان وبنتان.

حدد المسّاح الشوارع والحارات، وحرص على أن تكون مستقيمة، على خلاف ما كانت في القرية الغارقة. لم يحرم كل واحد من جاره عن اليمين والشمال، وفي الأمام والخلف، وكان كل هذا ليس خافيًا على مَن يمسك قصبة القياس، ويرفعها ثم يحطها على الأرض ليقرر مصير الناس.

وسط أهله اختار «إبراهيم الجابر» مكانًا لبيت جديد، بدلًا من بيته الذي صار وحيدًا هناك وسط الأراضي التي غمرها الماء. نقل أثاثه الثمين على الجمال والحمير. شارك «الجابر» صاحب القصر في بناء مسجد آخر، فُرش بالحصر، وبنى له جرجس النجار منبرًا من خشب الزان. سمح للنصارى أن يتخيروا غرفة فسيحة، يقيمون فيها عبادتهم، وأشرف على هذا القس الوحيد في القرية. أما اليهوديان

فقد كانا يلتقيان وأهلهما في بيت أي منهما كل سبت لتلاوة أجزاء من التوراة والمزامير والأدعية.

بنى خليفة شيخ الطريقة لنفسه خُصًّا من الجريد والبوص على طرف القرية، اختار له الربوة مكانًا ليواجه الخلاء والريح، وجعل له بابين ضيقين، واحد في اتجاه النيل والجبل الذي يحده من الشرق، والثاني يمكن لمَن يقف فيه إن دقق النظر أن يرى رمل الصحراء الغربية. أطلق الناس على الخص «خلوة المحب»، فالرجل طالما حدث الناس عن نبذ الكراهية.

عبر رجال إلى الضفة الأخرى حيث الجبل. رفعوا سواعدهم، وانهالت الأزاميل على الصخر تمزقه. حملته المراكب إلى حيث ستكون القرية الجديدة. كان السيد قد أمر أن يكون ثلث الجدران الخارجية لكل بيت من الحجر، اتقاء فيضان آخر قادم لا محالة. حرص على أن تكون في البيت الواحد حظيرة للماشية، وغرفة للخزين، وأخرى للصغار، وثالثة لرجل البيت وزوجته.

رفعت النساء الطين في الطسوت والحلل. استوت المزابل فوق ظهور الحمير. حملت الجمال التبن من شونة القصر، والقش من الزروع الخلفية التي لم يمسسها ماء. خطف رجال مطالع النخل، ومعهم البلَط المسنونة، فتهاوى الجريد، ليُقلِّمه آخرون، وينظموه في حبال فتلوها من ليف النخل، استعدادًا لفرشه على الأسطح المنتظر نصبها.

أسبوع واحد، وقامت في الدنيا بدايات قرية جديدة. أرباع الجدران قد وقفت، مطوقة الغرف المحددة. صار بوسع كل أسرة أن

تضمن مكانًا يستر نصف الأجساد واقفة، وكلها مستلقية بعد ساعات الكدح المتواصلة بالنهار والليل.

في النهار تهدي الشمس كل مَن يبني بيته نورًا يساعده في الكدح. في الليل يتواصل العمل تحت المشاعل، التي أمدها قصر السيد بالزيت. وزعها الخدم والعبيد على كل الدور. نصبوا بعضها في الشوارع التي أخذت تتهيأ لأقدام السائرين.

ولمّا انحسر الماء تمامًا عن البيوت المهدمة، نظر الرجال إلى أكوام طين بقيت من بعضها. شمروا السراويل وخاضوا إليها، يتلمسون الطرق إلى ما تبقى هناك من أشيائهم، التي لم يتمكنوا من حملها في تلك الليلة العصيبة.

وجدوا بعض الفخار، وحلل النحاس، وفؤوسًا ومناجل، لكن أغلبها جرفه الماء إلى بعيد. عرف كل منهم ما له، وعاد به. لكن الجميع استكمل بعض الأواني البسيطة، التي تحتاجها البيوت الوليدة من دكان اليهوديين الاثنين. جاء الفواخرية من قرى بعيدة وبغالهم تجر عربات كارو محملة بالفخار من كل الأصناف: قُلل وأزيار وبلاليص وقدور وزراوي وقواديس، ومن الصفيح والنحاس حلل وأطباق ومغارف، ومن الحديد فؤوس ومناجل وقواديم وبُلط، فابتاع الناس منها على قدر استطاعتهم.

دعا الشيخ «غنوم الصابر» سنجق الإقليم «خليل شهاب الدين»، فجاء على فرس أشهب في عصر أحد الأيام. نزل في القصر، وطلب «إبراهيم الجابر» فجاء على عجل. نظر إلى الصابر والجابر، وسألهما: هل اخترتما اسمًا للقرية الجديدة؟

تبادل الرجلان النظر، ولاذا بالصمت، وهما يهزان رأسيهما بالنفي. ابتسم الحكمدار، وقال: ما رأيكما أن نسميها الصابرية؟

وجم «الجابر»، بينما نطق «الصابر»: إذا وافق الحاج «إبراهيم»، فلتكن ما قلت. وقال «إبراهيم»: الأرض التي أقمنا عليها القرية هي لسيدنا، أعطاها للناس من فيض كرمه، فليكن هذا اسمها. التفت الصابر إلى الجابر، وقال: لكنك عوضتني بأرض بدلًا من التي منحتها لأهلك. ابتسم «الجابر»، وقال: أغلب المكان لك، وأهلك هم الأكثر، وما منح لغير عائلتنا كان منك، والكل هنا مدين لك بالكثير يا سيدنا. فعاد «الصابر» يقول: بعض أهل القرية تبرعوا بذهب نسائهم. قهقه الحاج «إبراهيم»، وقال: هذه قطرة في بحر، ولولا جودك لظل أهلنا في العراء. تمتم «الصابر» قائلًا: كنا نتبارك بالاسم القديم، ونعرف أنه سمي لثلاثة من مجاذيب أبي الحسن الشاذلي، كانوا هم مَن بنوا أكواخًا هنا، والتف الناس حولهم متباركين بهم، وسموا النجع باسمهم.

قهقه السنجق، وسأل: أي بركة لمكان أكله الماء؟ فأجابه «الصابر»: بركة السيرة القديمة التي رواها الأجداد، والقدرة التي مكنتنا من أن نعيد بناء ما تهدم أفضل مما كان. هز السنجق رأسه، وقال: الاسم القديم ذاب مع الماء، والبركة التي تحكي عنها بقيت في يديك، وما سعيت إليه يستحق أن يحمل اسم عائلتك الكريمة.

انتهى المجلس إلى تسمية القرية بـ «الصابرية»، وسجل السنجق الاسم في دفتره، وانصرف بعد أن تناول وجبة دسمة في بيت السيد. وصل الخبر إلى الفلاحين المنهمكين في استكمال دورهم

الخفيضة، فقال بعضهم: اسم على مسمى، فلا نظن أن هناك مَن صبر على غدر الماء في القُطر كله، مثلما صبرنا.

وخصص شيخ الجامع أول خطبة في المسجد الجديد عن فضائل الصبر في القرآن، وكذلك فعل القس أمام السامعين منه غارفين ما تيسر من الإنجيل، واستعاد اليهوديان آيات الصبر في التوراة.

(4)

عادت أيام الناس إلى سابق عهدها، كدح في النهار وغطيط في الليل، وساعتان بين الظهر والعصر يتجمعون في ساحة أمام المسجد، يقضونها في التحطيب ولعب السيجة. أما في أول الليل فيحلو للصغار ألعاب «الاستغماية» و«دارت» و«البجعة».

على الجسر في أيام الربيع عادوا ينظمون سباق الحمير. في النهر يتسابقون في سباحة قلّما تُبلغ واحدًا منهم الشاطئ الآخر. لكن بقي السباق الأهم لهم جميعًا هو ما تغله الأرض في مواسم الحصاد.

جاء فيضان العام التالي أقل، فغمر الأرض، ولثم الجسر، لكنه لم يتجاوزه، فنجت «الصابرية» من الغرق، ورفع أهلها أكف الدعاء لسيدهم، وهم يتغنون بحكمته التي أهدته إلى اختيار مكان يجعلها لا تستسلم لفيضان اعتيادي، ولا يقدر عليها إلا فيضان كالطوفان.

(5)

يطارد الشرُّ الخير، كما تطارد الضواري فرائسها فوق الجبل الذي يراه الناس إن ركبوا الجسر أو اعتلوا أسطح الدور. تُخبئ الأيام في جعبتها ما لا يكون في الحسبان، وترمي بحمم الجحيم إلى الجنة

الوديعة الهانئة، فتغلي القلوب بالضغينة والبغضاء.

تهب العواصف على الزروع التي تنيخ للنسيم العليل في هدوء، وتضرب نوافذ البيوت، فتصطك محدثة جلبة عارمة، تثير في النفوس خوفًا مما يلوح في الغيب، لا سيما لأولئك الذين يعرفون أن الشيطان الرجيم لم يترك بقعة على الأرض إلا ونصب فيها فخاخه.

جاءت العاصفة ذات ظهر، فاقتلعت الأقدام التي ظن أصحابها أنها ستمضي على مهل، حتى آخر العمر. هاج الناس وماجوا، ولم يجدوا أمامهم أحدًا من الخلائق ليستجيروا به إلا سيدهم، الذي كان ينتظر مولوده الأول في لهفة وامتنان.

(6)

امتلأت باحة الديوان الفسيحة بالفلاحين. جاءوا بأقدام حافية، والشكوى تقف على ألسنتهم تريد الانطلاق، وأفئدتهم يعتصرها حزن شديد على ما جرى لأرض انحنت ظهورهم فيها شهورًا. كان النيل قد فاض من جديد، فغمر الزروع التي كانت على وشك الحصاد، وصدته الجسور، على قدر استطاعتها، عن البيوت الخفيضة، لكن الماء كنس العشش الواقعة على طرف قرية «الصابرية»، وطمر أكواخًا أقامها الفلاحون، فذاب طينها، واختفت آثارها تمامًا، بين مياه حمراء مغبرة برمال جبال الحبشة.

وقف الحاضرون صامتين في انتظار السيد «غنوم الصابر»، والأمنيات تسري في نفوسهم بأنه سينظر في مظلمتهم بعين العدل والرأفة، ويرفعها إلى الوالي فيعفيهم من دفع ما عليهم هذه السنة من أموال نظير استئجار أرض الالتزام.

حين دخل الشيخ من الباب أفسحوا له حتى جلس في الصدارة على أريكة عالية. رمى ظهره مفرودًا إلى مسند خشن، ثم اتكأ إلى حاشية قرمزية لينة، ونظر إليهم، بعينين يملؤهما القلق. كان قد ترك زوجته تعاني من آلام المخاض، ولولا أن المصاب جلل، ما كان قد غادر قصره، وأتى إليهم على عجل في هذه الظهيرة القائظة.

تلفت الشيخ حوله، وسأل: أين القائمقام؟ فبرز رجل طويل القامة من طرف الحشد، ومشى نحوه، فأشار إليه أن يجلس عن يمينه، ثم سأل من جديد: أين الشاهد؟ فنطق شيخ الخفر: أرسلت خفيرًا في طلبه منذ ساعة.

أشار الشيخ بيده إلى الواقفين أن يجلسوا في أماكنهم، فالتصقت أجسادهم الملفوفة في أسمال بالية. عيونهم لا تفارق محياه. أفواههم مغلقة على كلام كثير مرير. كان الشيخ يتوقع ما حبسوه في صدورهم، فالأرض المحيطة بقصره، لم تنجُ من الغرق، فصار معهم فيما هم فيه، بل يسبقهم بخطوات، فقبل عام دفع الحلوان إلى الوالي، نظير توسيع التزامه، وجاء وقت السداد.

تنحنح الشيخ، وقال للفلاحين: اختاروا أحدكم يتحدث عنكم. تبادلوا نظرات حيرى، ثم حطت عيونهم على الخولي الذي جلس في منتصفهم. كان قد طاف أمس على الأرض جميعًا. أحصى الخسائر التي خلفها الفيضان، وامتلأت أذناه بشكوى الفلاحين من سوء الحال، ووعدهم بأن ينقلها إلى الشيخ، لكنهم لم يصبروا، وجمعوا أشتاتهم وأتوا مسرعين.

وقف الخولي، وقال: هلك الزرع، والبيوت خاوية. ضاعف قوله

من أسى السيد «غنوم»، فهو لن يقدر فقط على جمع الإيجار نيابة عن الفلاحين، بل عليه أيضًا أن يمد الناس بشيء من الغلال والعسل والتمر المخزن في شونته، وإلا جاعوا، أو يوزع على كل منهم مائة بارة على الأقل، يشتري بها طعامًا إلى أن يأتي الفرج بعد الشدة.

لم يكن الموقف جديدًا عليه، فالنيل طالما غضب بين سنة وأخرى، لكن غضبته هذه المرة كانت قاسية، إذ جاءت بينما الزروع قد حان حصادها، ولم تفلت منها سوى أشجار الفاكهة والنخيل.

كان مطمئنًا إلى أنه لم يقصر، فقد فعل كل ما عليه قبيل هجوم الماء. أطلق الجرافات التي تجرها ثيرانه العفية، لتكدس التراب على الجسور. جاء بحفارين ساعدوا الفلاحين في تطهير الترعة والمصرف اللذين أمر بحفرهما قبل سنوات. بنى جدارًا من حجر أمام ثغرة نفذ منها الماء إلى البيوت في الفيضان السابق فهدم بعضها. أوصى خطيب المسجد، الذي بناه بالقرب من قصره البسيط، أن يُذكّر الناس دومًا بالتعاون حين تندفع المياه، وطلب من الخفر أن يدوروا على البيوت ليدفعوا الفلاحين إلى حصاد زرعهم فور نضوجه، لكن جاء الماء قبل موعده الذي حسبوه، وأغزر مما توقعوه.

قبل أن يُكمل الخولي ما بدأه، وقف فلاح، وقال موجهًا كلامه إلى السيد: اعتدنا منكم الرحمة، فأنت رجل كريم شريف. ابتسم السيد، ورد: كلنا نستحق الرحمة في هذا الموقف العصيب. صمت برهة، ثم واصل: أنتم تعرفون ما عليّ من التزام واجب السداد، وإن كنت أنا أشفق وأعذر، فغيري لا يريد إلا المال.

قال الخولي: العسكر العثمانلي والمماليك يعرفون ما جرى لنا

ولغيرنا في بر مصر كله، وهذا لا يخفى على الوالي. فتدخل السيد «غنوم»: نامة التي أقرها السلطان العثماني، أعزه الله، تعطيني الحق في تخفيض مال الالتزام هذه السنة، لكنهم يعودون لتعويضه في السنوات اللاحقة.

أدرك الفلاحون أن هذا يعني أن نظير الإيجار قد يرتفع، فمَن يدفع ألف بارة سيكون عليه أن يزيدها إلى ألف وثلاثمائة. ومَن يدفع إردبًا من القمح أو الفول أو الذرة سيزيده ثلاث كيلات على الأقل.

قال الخولي: قادر رب كريم أن يعوضنا في السنة القادمة. فنادى الشيخ على الكاتب، الذي كان يجلس على مقعد خشبي وفي يديه دفتر وقلم ودواة حبر، وقال له: سأملي عليك كتابًا إلى الروزنامجي.

فتح الكاتب دفتره، وغمس قلمه في الدواة، وتطلع إلى فم الشيخ، الذي أملى ما يُطلع به القائمين على الأمر، هناك في قلعة الجبل وحولها، لعلهم يرأفون بحال مزارعين أكل الماء ما غرسوا، ولم يترك لهم شيئًا. قبل أن يرسل مَن يركب النيل إلى القاهرة حاملًا رسالته، أطلع عليها الشاهد والصرّاف والقاضي والكاشف، وطلب منهم التوقيع بأختامهم إلى جانب اسمه، حتى يصدقه مَن راسلهم، ثم عزم على أن يذهب بنفسه في اليوم التالي إلى السنجق المملوكي ليأخذ توقيعه وختمه على ما كتبه، والذي كان دائمًا يوافق على مثل رسائل السيد هذه، ثم ينصحه: أرسل هدية مع رسالتك، فهذه شفاعة مقبولة.

في اليوم التالي، قام الشيخ «غنوم» باستدعاء الخولي، وقال له: اجمع خدم القصر وعبيده. افتح الشونة، وأحصِ ما فيها من قمح

وذرة وفول وعسل وتمر، اترك نصفه لنا، ووزع النصف الآخر على الفلاحين. لكل منهم على قدر ما يعول. صمت الخولي، برهة، ثم مال على أذنه، وهمس سائلًا: هل ما فيها يكفي يا سيدي؟

قبل أن يجيبه، قطع كبير العبيد الطريق إلى «غنوم»، ومال عليه، قائلًا: مبروك يا سيدي، جاء إلى الدنيا ابنكم، يتربى في عزكم. تهلل وجه السيد، وجال ببصره في وجوه الفلاحين الجالسين أمامه، وقال لهم: أراد الله أن يخفف عني الحزن، بمولود انتظرته.

تعالت التبريكات، وراح الجالسون ينهضون تباعًا، ثم انصرفوا صامتين. لم يبقَ منهم سوى رجل طاعن في السن، تتدلى لحيته الشهباء تحت عمامة بيضاء. كان يمشي على مهل متوكئًا على عصاه التي سواها من فرع شجرة نبق. تقدم إلى السيد بوجه مملوء بالبشر، فقام مستقبلًا إياه، حين رآه يمد إليه يده. صافحه، ثم قال: رأيت في منامي شيئًا طيبًا لك يا سيدي، وكثير مما أراه يتحقق.

نظر إليه السيد متعجبًا، متشككًا فيما سمع، لكن الرجل عاجله: يضع الله سره في أضعف خلقه. فهز السيد رأسه، وأنصت إليه، وقال: يعطي الله في الخفاء. تنحنح الرجل، وقال: احفظ مولودك من خطر آتٍ. سرى انزعاج في وجه الشيخ، وسأل: هل هذه رؤيتك؟ فأجاب الرجل: الفتنة نائمة، لعن الله مَن أيقظها. هكذا سمعتها من شيخ الجامع.

شرد السيد في الرؤية التي كان هو قد رآها في منام قبل أسابيع، وقال: أعطاني الله بعض ما عندك، ونحن في شهر صوم فضيل. ثم مد يده في جيبه، وأخرج كل ما به، وكان مائة بارة، ومدها إلى

الرجل، لكنه قال: يكفي ما سآخذه من الشونة. ابتسم السيد، وقال: تُعطى من الشونة كغيرك، أما هذه فلتنبيهك لي مما يأتي.

أخذ الرجل النقود ومضى، بينما الشيخ ينادي خفره أن يسارعوا إلى الشونة للإشراف على تسليم الناس بعض أقواتهم. خرج من المجلس يكاد يجري في اتجاه القصر، حتى بلغه، بينما الشمس تميل إلى المغيب.

(7)

كان الخدم قد رصوا أطباق طعام الإفطار فوق المائدة، ووقفوا بالقرب منها منتظرين أوامر سيدهم وأسرته، التي ستتحلق حولها بعد قليل. مر السيد بالمائدة، ناظرًا إلى خادمات متلهفات إلى أذان المغرب، أشار إلى واحدة منهن أن تتبعه، فأسرعت على الفور، ودخلا إلى غرفة الأم.

كانت القابلة لا تزال في مكانها، وواحدة أخرى من الخدم تقدم إلى زوجته صحنًا مملوءًا بعسل ولبن خلطته بالدقيق، ووضعته على النار حتى نضج. أشار إلى القابلة أن تبقى مكانها، ثم تقدم إلى زوجته، وأخذ يدها بين راحتيه، وداس عليها في لطف، ثم انحنى إليها وقبّل رأسها، وقال لها: مبروك لنا الرزق الجديد يا «منصورة».

ردت، بصوت واهن، وهي تحاول أن تعتدل في جلستها: جئت لك بـ «خلف»، لتكون له أرض أبيه. صمت برهة وقال لها: اسم محبب إليّ، لكني سأسميه «سالم». تعجبت من الاسم، وقالت: اسم جديد علينا، فكيف اخترته؟

قال لها: رأيت قبل أسابيع في منامي بابًا سميكًا طويلًا عريضًا، أكبر كثيرًا من كل أبواب قصرنا، بل أكبر من أبواب قلعة الجبل. كان مغلقًا. وقفت أمامه حائرًا، لا أعرف كيف أفتحه، لكنني رأيته ينفتح، ويتدفق منه سيل من نار. مددت كفيّ. فجأة خرج قارب عجيب الألوان، يسبح في النار، ولا تحرقه، يجلس عليه رضيع، راح ينظر إليّ بعينين ضاحكتين، ويشير إليّ لأطمئن.

قالت القابلة: هذه بشرى عظيمة يا سيدي. فقال السيد: شدة يتبعها فرج. واحتارت الأم في تأويل ما سمعت، لكنها قالت: يتربى في عزك يا «غنوم». ابتسم، وقال: أتمنى أن يكون عزه أكبر.

رفع «غنوم» الرضيع بين يديه، وهو ينظر إليه في امتنان، ثم انزلقت عيناه على صدره، فاندهش لما رأى. كانت كفًّا صغيرة مطبوعة فوقه، لونها أكثر حمرة من جسده. نظر إلى مَن حوله، ثم قال لزوجته:

ـ ألم تلاحظي شيئًا في «سالم»؟

ـ يشبهك.

مد إصبعه إلى صدر الرضيع، وقال: هذه. فاعتدلت «منصورة» في جلستها، ومدت بصرها لترى، ثم قالت: لا يزال لحمة حمراء. فقال السيد: هناك علامة أكثر احمرارًا. تفرست الأم في وليدها جيدًا، وقالت: لم يلحظ أحد شيئًا، لا أنا ولا الداية، ولا أي من الخادمات. فقال السيد وهو يحط طرف إصبعه على الكف المطبوعة على صدر «سالم»: هي كف.. لم أرَ هذا من قبل.

تدخلت القابلة: ربما احتكاك الجلد في ولادة صعبة.

وقالت الأم: ليس أكثر من هذا.

وجاء أذان المغرب من المسجد، عذبًا نديًّا، فرفع السيد كفيه إلى السماء، وقال: اللهم، بحق الصيام، اجعل لمَن رزقتني به، نصيبًا من لطفك وحمايتك.

(8)

بعد أربعين يومًا من ولادة «سالم»، أقام السيد «غنوم» لمولوده الجديد حضرة. جاء «علي الحميلي» شيخ الطريقة ومعه مريدوه، يحمل أحدهم كتاب «دلائل الخيرات»، بينما «سرحان الفرغل» صاحب الصوت الطليّ يحمل في رأسه الكثير من الأشعار والمدائح، التي يحفظها الناس عنه، ويرددونها خلفه، ويتناقلونها، حتى ذاع صيته في الصعيد كله، مع أنه لا يزال صبيًّا.

أخرج الكَلّاف سبعة ثيران مكتنز لحمها، وتكاثر عليها العبيد والخدم حتى أوثقوا سيقانها، فصارت مهيأة للجزار كي يذبحها أمام الزريبة. بعد سلخها، رفعها الرجال تباعًا فوق قرمة هائلة من خشب الجميز. راح الجزار يقطعها بساطوره إربًا، وهو يرمي اللحم على حصر من البوص. هرع الخدم، وجمعوا اللحم في طسوت من الصاج، وساروا بها إلى المواقد، التي اعتلى كل منها قيزان ضخم، يحط فوق ثلاثة أحجار ممتدة قليلًا، وأضرمت النار تحتها في خشب الصفصاف والسنط.

على مواقد أخرى وضعت أواني الطبيخ، بها الفاصوليا البيضاء

والويكا والأرز والكِشك، وطهيت الشركسية التي يحبها «غنوم» وزوجته. دارت الأفران، ترمي المطارح إليها البتاو من مواجير العجين، وقرص المخنفر والزلوط. جيء بقفف مملوءة بالعيش الشمسي، وبراميل صغيرة من مخلل الخيار والفلفل والجزر واللفت، وزنابيل مملوءة بالبلح الناشف. دار فرنان آخران على صواني الكنافة والبسبوسة.

حين نضج الطعام مُدت الأسمطة في باحة عريضة أمام القصر، فوق أكلمة وحصر البوص، في صدارتها مائدة للسيد «غنوم»، وشيخ الطريقة، والحاج «إبراهيم الجابر»، وإمام المسجد، والقاضي.

جلس الفلاحون صفوفًا متقابلة حول أسمطة الطعام، الذي غرفه الطباخون، ووضعه الخدم والعبيد. راحت عيونهم تراقب أيدي كبار الضيوف في انتظار أن يمدوا أيديهم إلى الطعام، فيشرع الناس في الأكل، لكن وصل إلى آذانهم قول إمام المسجد منشدًا:

الحمد لله ربي خالق الجزرا

والفول والعدس والخبيز للفقرا

ثم الرُشيتة أيضًا والكُشَيك لهم

والحب والرمان والطُطماج للأمَرَا

تعالت قهقهة الجالسين في صدارة المجلس، فشاركهم الفلاحون الضحك، لكن شيخ الطريقة، الذي جاءهم من بعيد، قاطع إمام المسجد قائلًا: أمامك أكل الأمراء يا مولانا. فقهقه الإمام، وقال: معلوم يا سيدنا، لكنها قصيدة تلح على ذهني كلما دُعيت إلى وليمة.

سأل القاضي: لمَن هذه القصيدة يا مولانا؟ فأجاب الإمام: هي لشاعر يدعى موسى بن عبد الله الدهمراوي، أسماها: «ضوء المصباح في المآكل الملاح».

انتبه «غنوم»، فرمى بصره إلى جدران الباحة، ليطمئن إلى وجود الفوانيس والأسرجة في أماكنها، ووجود المشاعلي قريبًا منها، وقد ملأها بالزيت، مستعدًا ليسرجها قبل حلول الظلام على رؤوس الآكلين.

حين انتهى الناس من طعامهم، رفع الخدم والعبيد المائدة والأسمطة، وهرعوا إلى جمع ما تبقى من الطعام، وكان قليلًا، وطي الخصر والأكلمة التي تساقط على بعضها شيء من الطبيخ والأرز، وراحوا يفرشون غيرها، استعدادًا للحضرة.

قبل انطلاق الحضرة، مال «غنوم» على شيخ الطريقة، وقال: أتمنى لو تبارك المولود. تهلل وجهه، وقال: طبعًا.. طبعًا. فأشار السيد إلى أحد العبيد، وقال له: أبلغ «مسعدة» أن تُحضر سيدك «سالم».

كانت «مسعدة» امرأة ماهرة في تربية الصغار، جيء بها لتقوم على شأن المولود، واشتهرت بالطيبة والحنان وعزة النفس، عملت لسنين في قصر السنجق المملوكي السابق، وربت أولاده على أفضل وجه، وحين تم نقله من الصعيد، آثرت أن تبقى، فتركها لشأنها، وأعطاها ضرة مملوءة بالفضة.

حين صار المولود بين يَدي شيخ الطريقة، تطلع إليه مليًا، وهو يضع يده فوق رأسه، ويتمتم بأدعية، فلمّا انتهى، نظر إلى جبينه، ثم قال: مَن عبر النار ولم تمسسه، لن يضره شيء. فقال «غنوم»:

سيؤول إليه الالتزام من بعد عيني. ابتسم شيخ الطريقة، وقال: له وسية أخرى في مكان بعيد. فتغضن وجه «غنوم» بمسحة حزن، وسأل: إلى أي مكان يفارقنا. تطلع شيخ الطريقة إلى وجوه ثلاثة من العبيد، كانوا يقفون على مقربة من سيدهم، لعله يأمرهم بشيء، وقال: ستكون له أرض وحديقة، وحوله مَن يأتمرون بأمره. ثم رفع يده، وأشار إلى الشمال، وقال: هناك إلى حيث لا ترى الأبصار، إنما تدرك البصائر.

نظر شيخ الطريقة إلى جواره، حيث يجلس طفل بهي الطلعة، وضع يده على رأسه، وقال: هذا ابني «علوان»، سيضع الله في يده مفتاح ما بقيت سنين أنتظره، ولن أبلغه، ففوق الفتح فتوح. لم يفهم «غنوم الصابر» شيئًا، لكنه تطلع إلى «علوان»، وربت كتفه، وقال: مبروك كأبيه.

كانت الكف الحمراء قد اتضحت معالمها، فكشف «غنوم» الغطاء عن ولده، ومد إصبعه، وسأل شيخ الطريقة:

- هل رأيت هذا من قبل يا مولانا؟

- ألم أقل لك إنه ولد مبارك؟

- هل هذه بركة؟

نظر شيخ الطريقة إلى صدر الرضيع، وقال بصوت ممطوط، كأنه يأتي به من قعر بئر سحيقة: نعم، هي كذلك. وكان «سرحان الفرغل» ينظر في إمعان إلى الكف الحمراء، فقال: علامة لم أرَها من قبل على جسد إنسان. ثم ملأ عينيه من العلامة، وقال: وحمة كبرى. فابتسم

شيخ الطريقة، وقال: بل إشارة كبرى.

وأخرج شيخ الطريقة من جيبه حجابًا من جلد البقر، ثم طلب مجمرة ومسمارًا من حديد، راح يغمسه في النار، وحفر عليه الاسم الأول للوليد، حتى انجلت حروفه ظاهرة، ثم قال: تحت الجلد ورقة كتبت فيها دعاءً مأثورًا، يجلب له الصحة والرزق والبركة. علق التعويذة في عنق الرضيع، وقال: يعود الضائع ولو بعد حين. فنظر إليه «غنوم» متعجبًا، لكنه فسر ما سمعه على نحو ما أدركه، فقال: كان ضائعًا في صلبي سنوات طويلة حتى عاد.

هز شيخ الطريقة رأسه صامتًا، وهو ينظر إلى البعيد. وفي صبيحة اليوم التالي للحضرة، جيء بالمُزيِّن، ومعه أمواسه وقطع من الشاش والقطن، وحُق مملوء بالمُطهرات، وعلى وقع زغاريد نساء القصر وخادماته، كان طهور «سالم».

في هذا اليوم أيضًا مُدت أسمطة، وذُقت الطبول، وصدحت الدفوف، وعزف الرباب، وغنى الشاعر شطرًا كبيرًا من السيرة الهلالية، والناس يتمايلون معه، حتى مطلع الفجر.

وبينما الصغير يصرخ من فرط الألم، وأبوه و«مسعدة» يهدئان من روعه، والخادمات ينظرن إلى وجهه في حنان، جاء صوت الخولي، وهو يقترب من الشيخ «غنوم»: مُصيبة يا سيدنا، والناس يستنجدون بك.

(9)

ركب الشيخ «غنوم» فرسه، ورمح فوق الجسر العالي، وخلفه

يجري الخفر، حتى بلغ الأرض التي كان الماء قد انحسر عنها. رمى بصره فوجد حشدًا من الفلاحين يصرخون، وبعض نسوتهم يرفعن الطين اللازب، ويلطخن به رؤوسهن الملفوفة في طُرح سوداء.

لما رآه الفلاحون هرعوا إليه، وقال أحدهم: الشيخ «يونس الجابر» طردنا من الأرض. وقال آخر: لم نتأخر في دفع الإيجار له، لكنه يطمع في الأرض نفسها. ونفضت امرأة الطين الذي كان تيبس فوق رأسها، وقالت: أنت سيد البلد، وننتظر منك العدل والرحمة.

قال لهم الشيخ «غنوم»: انصرفوا الآن إلى بيوتكم، وقبل أن تغرب شمس اليوم، ستعودون إلى أرضكم مكرمين. والتفت حوله، وقال لشيخ الخفر: أحضر «إبراهيم الجابر» إلى الديوان. وغمز فرسه بمقدمة حذائه، الذي كان يلمع في وقدة الشمس، فأسرع به إلى الديوان.

لم تمر سوى نصف ساعة حتى كان «إبراهيم» يدخل بوجه كسيف، وعينين زائغتين. ما إن رآه «غنوم»، حتى قال له في حسم: سبق أن حذرت أخاك «يونس»، لكنه يصر على العصيان. رد «إبراهيم» وهو يتقدم، حتى جلس إلى جانب السيد «غنوم» على الأريكة، وقال: فعل طائش، لا أوافق عليه. فصمت الشيخ «غنوم» برهة، ثم قال: سأعطيك فرصة لحل المشكلة، وإلا تدخلت بما لا يرضيك.

كان «يونس» يرى أن أخاه «إبراهيم» يتعامل مع الفلاحين في لين وصبر، وأن الأفضل لهما أن ينتزعا الأرض منهم، ويزرعانها، إما بكراء مزارعين يفلحونها لقاء أجور زهيدة، أو بالسخرة، إن لزم الأمر. لكن «إبراهيم» كان يعرف أن السيد «غنوم» يرفض هذا، وهو الذي أجّر

أرض التزامه للفلاحين، ولا يريد لهذا النظام تبديلًا.

حين أخبر «إبراهيم» أخاه بما سمعه، امتلأ وجهه بالغضب، وقال:

- ليس من حقه أن يفرض علينا ماذا نفعل في التزامنا.

- لا تفتح علينا بابًا لا قبل لنا به.

قهقه «يونس» ساخرًا، وقال: سأعلم «غنوم» ألا يحشر أنفه في أرضنا.

رد «إبراهيم»: لكنه الكبير هنا، وطاعته علينا واجبة. ثم صرخ في «يونس»: إن لم تطعه هو، فعليك أن تطيعني أنا؛ لأني أخوك الكبير، وواجبي أن أحميك من طيشك.

قبل أذان العصر، كان الخفر يدورون على بيوت الفلاحين، ويعيدونهم إلى الأرض اللينة. كان الماء قد ذوّب الحدود بينها، فجاء المسّاح ومعه قصبته. جاء الكاتب ومعه دفتره المدونة فيه المساحات بالتفصيل، وبدأ القياس، وإعادة تسليم الأرض إلى زارعيها.

بينما كان الفلاحون يتسلمون أرضهم من جديد، كان «يونس» يجلس مع عصابة من الفلاتية والعربان واللصوص، طالما استعان بهم في ترهيب خصومه.

في الليل سعى هؤلاء إلى تنفيذ ما خطط له «يونس»، فغافلوا خفراء قصر «غنوم»، وتسللوا تحت جنح الظلام بين أشجار الفاكهة المحيطة به، ودخلوا من باب خلفي على أطراف أصابعهم، حتى وصلوا إلى الغرفة التي تنام فيها «مسعدة» ومعها الرضيع. مد

أحدهم يده في خفة وحمل الطفل الذي كان يغط في سبات عميق، ومشى على مهل، وخلفه بقية الرجال، حتى غادروا القصر.

حين استيقظت «مسعدة» في الصباح، لم تجد الطفل إلى جوارها. ظنت أن أمه ربما أتت في الليل وأخذته لإرضاعه، فمشت إلى غرفة سيدها، وطرقتها على مهل، فقام السيد «غنوم»، وفتح لها. نظرت في عينيه، وسألت بصوت متلعثم: هل سيدي سالم معكما؟ التفت «غنوم» خلفه، وذهبت عيناه إلى السرير ذي الأعمدة النحاسية، المدلاة حوله ناموسية من الستان الرقيق المطرز. تراجع خطوات، ورفع جانبًا من الستائر الناعمة، فلم يجد سوى زوجته، مستسلمة للنوم. استدار إلى «مسعدة»، وقال: ربما أخذته واحدة من الخدم لتغير ملابسه المبللة.

ونودي في القصر، فجاء الخدم والعبيد مسرعين. حين سألهم عن «سالم» أخبروه بأنهم تركوه مع مربيته قبل ذهابهم إلى مخادعهم. وحين اكتسى وجه «غنوم» بالغضب والحيرة، ابتلعوا ألسنتهم، لا يدرون ماذا يقولون أو يفعلون.

هرع «غنوم» إلى باب القصر فوجده موصدًا، فعاد ينظر إلى النوافذ فوجدها على حالها مغلقة. أسرع إلى الباب الخلفي، فوجده مواربًا. مد بصره أمامه، ليجد آثار أقدام كثيرة حافية، مطبوعة فوق الطين الخفيف، فصرخ: خطفوا ابني الوحيد.

جيء بالخفر، وهرع أهل السيد «غنوم» إلى القصر حين ترامت من نوافذه صرخات النسوة، ووقف العبيد والخدم إلى جانبهم صامتين، ينتظرون ما يقوله سيدهم، الذي لم يلبث أن صرخ فيهم: فتشوا

كل بيوت الجوابر وأرضهم. ثم نظر إلى شيخ الخفر، وقال: أما أنت فأحضر إليّ الشيخ «إبراهيم» على الفور.

فلمّا جاء «إبراهيم»، قال له في غضب: إن لم يظهر ولدي سأحرق بيوتكم، وأطردكم من البلد. رد «إبراهيم»، بشفتين ترتجفان من الخوف: لن يحدث له مكروه، وسيعود إليك معززًا مكرمًا.

دار الرجال على بيوت «الجوابر» دون أن يغادروا منها بيتًا، فلم يجدوا «سالم». استشاط الشيخ «غنوم» غضبًا، وقال لإبراهيم: إن لم يعد ولدي، سأقتلكم جميعًا. رد في تودد: لن يكون هناك بيننا دم، وكل ما دونه ويرضيك سأنفذه على الفور.

- أخوك خطف ابني ليساومني على الأرض، وهذا تصرف لا يخرج من رجل شريف، ولولا أني أعرف أنك لا ذنب لك، لقتلتك في الحال.

- وأنت تعرف يا سيدنا، أنني لا أوافق على كثير من طيشه.

وجاء شيخ الجامع وبعض كبار «الصوابر»، والتفوا حول الرجلين، يحاولون تهدئتهما، فانتهز «إبراهيم»، الفرصة، وقال: ليكن مجلس رجال نُحكّمهم بيننا. فصرخ السيد «غنوم» وهو ينظر في وجوه الجميع: لا مجالس بيننا حتى يعود ولدي.

(10)

ما إن تسلم «يونس الجابر» لفافة مطوية على جسد «سالم» الغض، حتى هرع به، والظلام يستره، وخلفه يسرع رجاله، حتى وصل إلى الشاطئ الغربي للنهر. كان هناك مركب في انتظاره، فصعد إليه ومَن معه، وجدفوا حتى بلغوا الشاطئ الشرقي.

نظر «يونس» إلى المركب، وقال: عوموه، حتى إن طلع النهار يكون قد ذهب بعيدًا، فلا يُستدل علينا. وتلمسوا طريقهم المعتاد. رمل ضيق ينتهي إلى أول الجبل، حيث مدق يتوسط الصخر، ينتهي إلى مغارة بعيدة. حين وصلوا إليها، كان الرضيع يصرخ، وصوته يلف الخلاء. قال «يونس» للرجال: أخرسوه.

تساءل أحدهم: هل نقتله؟ نظر إليه «يونس» في غضب، وقال: وهل قتله كان يحتاج كل هذا المشوار يا غبي؟ ثم صمت برهة، وقال: به سأسترد أرضي. ونادى أحدهم آمرًا إياه: خذ إناءً واحلب ناقة أو حمارة، أيهما في ضرعها لبن، واسق الطفل.

(11)

أرسل «يونس» أحد رجاله بعد أيام، ليعرف ما جرى عقب اكتشاف «غنوم» اختطاف ابنه. كان يتوقع أن يكون السيد قد انكسرت نفسه وظهره، وندم على ما فعله في أرض «الجوابر»، وصار الآن راضيًا بأن يعيدها إليهم مقابل عودة ابنه؛ لذا قال «يونس» لرجل اسمه «فرحان» معروف بقدرته على التخفي: أبلغ أخي «إبراهيم»، أن الطفل لم يمسسه سوء، وسيعود لأبيه حين ترجع إلينا أرضنا.

ثم طلب منه أن يمتطي حمارًا عفيًا، وأعطاه بعض النقود، وقال له: اشترِ بصلًا وثومًا، واذهب إلى القرية على أنك بائع، حتى لا يشك في أمرك أي من رجال «غنوم». بدا على وجه «فرحان» ارتباك، فقال له «يونس»: أنت لم تنزل القرية سوى مرة. جئت إلى بيتي، ولم يرَك إلا بعض أهلي، ولا أعتقد أنهم يتذكرونك، وحتى لو تذكروك، فلن يفضحوك.

والتفت إلى رجاله، بعد أن أمدهم بقارورة عطر، لينثروها على ملابس «سالم»، حين يأتي وقت إعادته إلى أهله، وقال: احرصوا على نظافة اللفة التي تحيط بجسد الطفل، وأرضعوه كلما جاع.

(12)

عبر «فرحان» النيل مع حماره إلى «الصابرية» خائفًا يترقب. كان ينادي على بصله وثومه بصوت مرتعش، وهو يدفع الحمار إلى قرب قصر «غنوم»، ثم أنزل حمولته في ساحة تطل عليها البيوت من بعيد، ونادى: بصل التقالي يا بصل..

كانت البيوت في حاجة إلى ما يبيعه، فماء الفيضان قد غمر حقول البصل والثوم وأفسدها. جاءته نسوة على مهل. مدت إحداهن يدها إلى كومة البصل، وسألته:

- بكم الحزمة؟

- ربع بارة.

وسألته أخرى عن الثوم، فأجابها: نصف بارة.

وظهرت عجوز تتوكأ على عصاها، وتلهث في شمس الظهيرة، فلما رأتها المرأتان، مصمصتا شفاههما، وقالت إحداهن: واحدة ممن بقوا هنا من «الجوابر». ردت الأخرى: رأف الشيخ «غنوم» بحالها، وتركها تقضي أيامها الأخيرة بيننا.

اهتز «فرحان» لما سمع، ونظر إلى إحداهما، وقال متعجبًا:

- الوحيدة؟!

- نعم، السيد طرد كثيرًا من «الجوابر».

- ما السبب؟

- خطف أحد كبارهم ابنه «سالم»، فأقسم أن يقتلهم أو يطردهم، واستجاب لمَن طلبوا حقن الدماء، ما عدا «يونس» الذي يبحث الرجال عنه ليقتلوه.

صمت «فرحان» برهة، وقال:

- أعرف أن كبيرهم اسمه «إبراهيم»، فهل رحل هو أيضًا؟

- رحيل مؤقت إلى أن يعثر السيد «غنوم» على ولده الضائع.

- أين ذهبوا؟

- سمعنا أن لهم أقارب في الصعيد الجواني.

- وأرضهم التي هنا؟

- توعدهم السيد «غنوم» بضمها إلى أرضه إن لم يرجع ابنه. أما بيوتهم فتنعق فيها الغربان.

وصلت العجوز، وجلست فوق التراب. وضعت عصاها إلى جانبها، وصدرها يعلو ويهبط وصوت لهاثها يقتحم الآذان. نظرت إلى «فرحان»، وامتلأت عيناها بالدهشة، ولاذت بالصمت، إلى أن ذهبت المرأتان تحملان شروتهما، ثم قالت له: وجهك ليس غريبًا عليّ يا ولدي. فاكتست ملامحه بالذعر، لكنه تماسك، وقال لها: هذه أول مرة أبيع في بلدكم يا حاجّة. عادت للنظر إليه، ثم قالت: رأيتك في بيت يونس قبل شهرين. كادت ساقاه تخران بجسده الخفيف. مد يده إلى

البصل، وسألها: كم حزمة تريدين؟ فأدركت العجوز ارتباكه، وعاجلته: هل أنت من رجال «يونس»؟ رد في فتور واستهانة: مَن «يونس» هذا؟ عندها رفّت ابتسامة ساخرة على شفتي المرأة، وقالت: إن كنت من عسسه، فأبلغه بما جرى لأهله من فعلته السوداء.

ولاحت نسوة أخريات قادمات إلى شراء البصل والثوم، فقال «فرحان»: يخلق من الشبه أربعين يا حاجّة. ردت العجوز في سرعة: لن أفضح أمرك، وإلا قُتلت هنا، أو أخذوك لتدلهم على مكان «يونس»، فابقَ لتبيع ما معك، حتى لا يشك أحد فيك، ثم أبلغ مَن أرسلك بما جرى.

ونهضت، وهي ممسكة بحزمتي بصل وثوم، رفض «فرحان» أن يقبض ثمنهما، وقالت، وهي تنظر إلى النسوة اللاتي اقتربن: إن كان الطفل حيًا فليرجعه، وإن كان قد قتله، فليهرب بعيدًا، فرجال «غنوم» يفتشون في كل مكان.

(13)

انتظر «فرحان» حتى جاء الليل، ولملم ما تبقى من بضاعته. رفعها على ظهر الحمار، وركب فوقها. دفع حماره في اتجاه بيوت «الجوابر»، ليستيقن مما سمعه، فوجد كثيرًا من أبوابها مغلقة على الصمت. غمز الحمار بعصاه، حتى بلغ أول الطريق إلى النيل.

لم يكن المراكبي الذي جاء به صباحًا موجودًا، فكان عليه أن يبحث عن أي قارب صيد يحمله إلى الشاطئ الشرقي، أو ينتظر حتى الصباح. لاحت له نار تتوهج وسط الماء، وجاءه صوت رجلين يتحدثان، دون أن يتبين ما يقولانه. أدرك أنهما صيادان يلتقطان

رزقهما، وقد أشعلا نارًا ليريا ما في الماء، أو يستدفئا بها.

نادى بأعلى صوته: أريد شراء سمك.

خاف أن يسمعه غيرهما، فكتم صوته، وأخذ يلوح بيديه، لعلهما يريانه في لسان النور الشحيح، الممتد من الراكية المشتعلة فوق القارب. قرر في هذه اللحظة أن يشتري بكل ما معه من نقود أسماكًا، لقاء أن يقبل الصيادان نقله وحماره إلى الشاطئ الآخر.

راح القارب يقترب، حتى رسا تحت صخرة صغيرة تلثم الماء. كان السمك يتقافز داخل شبكة مطوية، وفي قفة أخرى إلى جانبها. مد صيّاد يده نحو الأسماك، وسأل الرجل: أتريد القراميط أم البلطي؟ معنا أيضًا رعاش وثعابين الماء. رد «فرحان»: سآخذ منها جميعًا.

نظر الصياد إلى ما على الحمار، وسأله:

ـ هل ستترك تجارة البصل وتتاجر في السمك؟

- سأقايض السمك بالبصل والثوم.

- لا، نريد الثمن نقدًا.

- موجودة، وسأدفع لكما أيضًا ثمن حملي إلى الشاطئ الشرقي.

بينما كان القارب يعبر، وكل رجل جلس على مجداف، التفت أحدهما إلى «فرحان»، الذي كان يتوسط وحماره القارب، واقفًا ينظر إلى الشاطئ في لهفة، وسأله:

ـ من أي بلد أنت؟

- أسكن عشة بالقرب من نجع «البراهمة».

- تسكن عشة، وتشتري كل هذا السمك؟

- سأسرح به غدًا من الفجرية، فرزق البصل والثوم قليل.

نزل «فرحان» وحماره، وراح الصيادان يراقبانه وهو يصعد في اتجاه الطريق المؤدي إلى أول الجبل، ثم قال أحدهما: نبيع أسماكنا أحيانًا في نجع «البراهمة» ولم نرَ هذا الرجل أبدًا. رد الآخر: ولا توجد عشة قريبة من هذا النجع.

(14)

استقبل «يونس» الخبر ببال كسيف. كان يتقلب على جمر منذ أن أرسل «فرحان» في طلب أخبار أهله، وهو يتوقع أن شيئًا سيئًا قد جرى لهم. يعلم أن «غنوم الصابر» رجل يحمل من اسمه الكثير، لكنه يعرف غضبه حين ينفد صبره.

سأل أحد الرجال: ماذا يمكن أن يفعل «الصابر» حين يضيع ابنه؟

صمت الرجل خوفًا من أن يكدر رأس «يونس» بما لا يطيق، لكن الأخير ألح في الحصول على إجابة، فقال له: كما يفعل فيل غاضب بمخازن الفخار.

وحين سمع ما قاله «فرحان» حين عاد إليه يرتعش، رماه بنظرة قاسية، وكأنه يتخيله كبير «الصوابر»، ثم سأله: هل رحل كل «الجوابر» عن القرية؟ فأجابه، وهو يستعيد ما رآه حين مر على حماره بالشوارع التي يسكنها «الجوابر»: بعض بيوتهم مغلقة، وأخرى مفتوحة دون هرج، لكن عيالهم تلعب في الشوارع، غير عابئين بما يجري.

سأله: هل عرفت أسماء مَن بقوا منهم؟

- السيد «غنوم» خيّر الجميع بين البقاء معه، أو الرحيل مع أخيك «إبراهيم»، فرحل البعض، وبقي آخرون.

حك ذقنه بظاهر كفه، وقال: معنا هؤلاء أم علينا؟

صمت «فرحان» برهة، ثم قال: ما سمعته من قريبتكم العجوز يبين أن بعضهم بقوا، وفي نفوسهم غضب مكتوم على رحيل أبناء عمومتهم.

داس «يونس» على أضراسه، وقال: بدأت الحرب.

وتطلع إليه رجاله، ليعرفوا ما يفكر فيه، فلم يدعهم حائرين. مسح وجوههم بعينين تقدحان شررًا، وقال: العار لا يمحوه إلا الدم.

(15)

عاد الصيادان إلى القرية عازمَين على إبلاغ السيد «غنوم» بما ساورهما من شكوك في بائع الثوم والبصل. وصلا إلى باب حديقة القصر، واستأذنا في الدخول، فأذن لهما، فدفعا الأقدام التي أثقلها خوف طارئ ارتج له قلباهما تحسبًا للوم قد يطالهما، حتى وصلا إليه. كان يجلس وحيدًا في الحديقة، تحت شجرة الكافور، التي طالما ناجاها في أيام المحن. لما رآهما تطلع إليهما، وقال: لست مستعدًا لسماع شكوى أحد.

وجما قليلًا، وتشجع أكبرهما سنًا، وقال: ربما ما جئنا من أجله هو ما تفكر فيه يا سيدنا.

قلّب ناظريه في وجهيهما، وقال: لا يشغلني الآن سوى ابني الضائع.

قال الآخر: ربما نكون قد أمسكنا أول الخيط إليه.

انتبه، وقال في لهفة: هاتا ما عندكما.

قالا في صوت واحد: نشك في رجل أوصلناه إلى الشاطئ الآخر.

اكتسى وجهه بغضب، فلاحقه كبيرهما: أتتنا الشكوك بعد أن رأيناه يصعد إلى الجبل.

وتبادلا إخبار «الصابر» بما سمعاه، وهو ينصت إليهما في إمعان، فلما انتهيا، أشار إلى أحد العبيد الواقفين هناك لعل سيده يطلب منه شيئًا، فهرع ثم طاطأ رأسه، ليسمع منه: أحضر شيخ الخفر، وليأتِ بمَن معه.

وقبل أن يتراجع العبد خطوات إلى الخلف، حتى لا يعطي سيده ظهره وهو بالقرب منه، سمعه يقول له أيضًا: أبلغ شيخ الخفر بأن يدور على بيوت «الصوابر»، وينادي رجالها، وكل مَن معه سلاح يحمله. ثم نادى عبدًا آخر، وقال له: افتح السلاحليك والخبخانة، وجهز كل ما فيها.

(16)

تجمع «الصوابر» والخفر حتى فاضت بهم الحديقة، فوقف كثير منهم على جانب السور، وملأوا أيضًا نصف الطريق المؤدي إلى القصر. كانوا قد أدركوا من استدعائهم مسلحين أن السيد قد وصله خبر عن مكان ابنه، وأنه سيأمرهم بالهجوم. تبادلوا الرأي أثناء

سيرهم جماعات إلى القصر، فانتهوا إلى أن تجريدة كبيرة على هذا النحو لا تليق إلا بمواجهة فلاتية الجبل، مثلما فعلوا قبل عامين حين استيقظوا ضبحًا على سرقة الكثير من بهائمهم.

لكن هذا الجمع الغفير سار في طريق آخر، لم يكن يدور بخلد أي منهم. فقبل أن يبلغهم سيدهم بما انتواه، جاءت خادمة تجري ملهوفة، ومالت على أذن الشيخ، وقالت: الهانم تعبانة جدًا، وتريدك الآن يا سيدي.

أشار إلى الرجال ليجلسوا في أماكنهم. هرع إلى غرفة زوجته، فوجدها ممددة على السرير، وصوت أنينها تنفطر له قلوب الخادمات المتحلقات حولها، والأسى يكسو ملامحهن، وفي أيديهن أباريق الماء والليمون. واحدة منهن كانت تمسك بيدها مروحة خشبية تقلبها على وجه المريضة، وشفتاها تتمتمان بدعاء خفي.

كانت قد توعكت الليلة الماضية، بعد أن قضت ساعات تبكي غياب ابنها، وهو يواسيها، جامعًا زمام نفسه التي تبعثرت من فرط الألم، لا سيما حين همست له: يقتلني الحزن على ابني.

لم يعتقد وقتها أنها تعني ما تقول، فقد اعتاد صبرها على المكاره، وثقتها فيه. طالما وعدها باسترجاع الغائب، وأنه لا بد فاعل، وعليها أن تتصرف وكأنه قد صار في حضنها، تتحسس جلده الناعم، وتحط إصبعها على الكف الحمراء المطبوعة على صدره، ثم تشرد بعيدًا، وتكرر القول: لهذه العلامة ما تخبئه الأيام.

لكنها انهارت فجأة، بعد أن كانت تكبت قلقها في سابق الأيام، حين تظهر مشكلات مخيفة بين زوجها والسنجق، أو وقت الفيضان، الذي

يغمر الأرض، أو صبرها الطويل على تأخر الحمل، أو الإنصات إلى شكوى زوجها حين يختلي بها، فيردد كل مرة: أعيش وحيدًا، رغم كل هؤلاء الذي يقفون رهن إشارتي.

في البداية ظنت أنه يتألم لتأخر قدوم ولي عهده، لكنه شرح لها مرات، أنه لا يشعر بأن أبناء عمومته هنا يخلصون له، وأخاه الأصغر «محفوظ»، سحرته المحروسة فسكنها، راضيًا بالبقاء قريبًا من الأزهر، بعد أن قال لـ «غنوم» في زيارته الأخيرة للقرية: أدر أنت المال، واتركني لطلب العلم.

كانت قادرة على تعويضه عن هذا الشعور القاسي، وطالما قال لها: وجودكِ يهوّن عليّ، لولاكِ لصرت عود قصب وحيد في مهب الريح. فكانت تأخذه إلى حضنها، فيستكين كطفل جائع إلى الحنان، ويملأه الفرح حين تقول له: بل أنت نخلة عالية.

لاحت في عينيها علامات النهاية، لكن «غنوم» تشبث بالأمل، وكان قد أرسل إلى الحكمدار مستغيثًا به كي يرسل إليه طبيبه «شاؤول»، الذي عرف عنه حفظ «تذكرة داود» ومداواة المرضى بالأعشاب، التي يحضرها من عطارين في البندر، ومن المحروسة حين يركب إليها النهر مرة كل سنة.

كانت «مسعدة» تلازم إلى جوار السيدة المريضة، عند طرف السرير تحت قدميها، وتمد يدها بين حين وآخر، لتعرف ما إذا كانت الحياة لا تزال تدب فيهما أم لا. شعرت بأن القدمين قد خمدتا. خمشتهما بأظافرها فلم تحركهما السيدة الطريحة، وعيناها شاخصتان إلى البعيد. لكن المرأة لم تجرؤ على أن تقول لسيدها أن

الموت قد بدأ يزحف رويدًا رويدًا، وسيصل حتمًا إلى الرأس، فينتهي كل شيء.

صمتت، وفضلت أن يخبر الطبيب حين يأتي سيدها بالأمر، وقد فعل. نظر مليًا في عيني «منصورة» الساجيتين، وشفتيها اللتين زحفت إليهما زرقة، ثم وضع راحة يده على جبينها، وحركها إلى قلبها، فوجد النبض قد توقف. استدار إلى السيد، وقال له: عظم الله أجركم.

انخرط «غنوم» في بكاء حار. ولولت النساء الموجودات في الغرفة. انفلتت واحدة منهن إلى الخارج، وصرخت بحرقة، فتبعتها النسوة صارخات. اقتحم صوت الفجيعة آذان الرجال الواقفين في الحديقة، وخلف السور، فضربوا أكفهم، وقالوا: البقاء لله وحده.

(17)

ماتت «منصورة» قبل أن تطمئن على ولدها، بل اطمأنت حين انزاحت من أمامها الحجب، وصار بصرها حديدًا. هكذا قدر «غنوم»، مفسرًا ذلك الخاطر الذي انتابه بقوة، وهو يتذكر ابتساماتها قبيل الرحيل الأبدي. ربما رأته هناك في مكان ما، سالمًا معافى، اسم على مسمى. بل رأته فعلًا، وشعر بها، وامتد بينهما حبل الخيال والوداد، ناضحًا بلبنها الذي حُرم منه الرضيع منذ ضياعه. كانت سلوى لا بد لها أن تحضر في الملمات الجسيمة في فؤاد رجل مكلوم، جمع الناس ليسترد ابنه من أنياب الخاطفين وبراثنهم، فإذا بهم يستعدون في الخارج للسير في جنازة مهيبة.

انتهوا من غُسلها والشمس يجرحها الأفق، فتنزف دمها غزيرًا

على شواشي النخل والشجر، وتنداح على هامات الزرع الناجي من الفيضان الرهيب، ثم يختلط بالدماء التي تغلي في عروق الرجال، والدموع التي انهمرت من عيونهم ألمًا للمحنة التي يعيشها سيدهم الطيب.

بعضهم كان عليه أن يكتم دموعه، فلا يجب أن يبكي كل الرجال في الفواجع. هناك مَن اجتاحهم تفكير عارم في الانتقام. يوجد مَن هرعوا لتجهيز سرادق مهيب، يليق بامرأة فاضلة، وزوجها الكريم. ثلاثة منهم ركبوا أحصنة إلى قرية مجاورة ليحضروا منها مقرئ القرآن المشهود له بحلاوة الصوت. سبقهم عشرة رجال لتجهيز مقبرة العائلة لجثمان سيدتهم الجليلة. آخرون تفرقوا في القرى المجاورة لينبئوا أهلها بالخبر الحزين، حتى يأتوا معزين. لم تمضِ سوى ساعة واحدة حتى كان الزمام كله قد عرف أن السيدة التي انتظرت رضيعها رحلت دون أن تراه في دنيا الناس.

(18)

صعد الخبر إلى الجبل. نقله واحد من الفلاتية كان قد تسلل مع الغروب إلى قرية مجاورة ليبتاع الطعام والدخان إلى مَن ينتظرونه جوعى فارغي الرؤوس. دس الخبر في أذن «يونس»، فتهلل وجهه، ونادى رجاله، وقال: جاءت الفرصة، التي لم تخطر لي على بال.

وبينما كان ركب المشيعين يسير على مهل تحت المشاعل التي تهب ممزقة رداء الليل الأسود، كانت عصابة «يونس» تهبط من الجبل، في عيونها شر مقيم، وفي أيديها سلاح، بعد أن وعوا تعليمات «يونس»، المشحون بقوة عاتية من الكراهية العمياء.

حملهم مركب شراعي كبير، دفعه صاحبه ليضرب الماء، مستسلمًا لقوة الراكبين القاهرة. قالوا له إنهم ذاهبون إلى العزاء، وكان الخبر قد وصله، فقال لهم والشك يساوره: لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم.

لكن المكروه لحق بقصر السيد. كان «الصوابر» قد خرجوا جميعًا، ومعهم مَن تبقى من «الجوابر»، وآل بخيت والنصارى، واليهوديان الاثنان. نسوة كثيرات سرن خلف الرجال. لم تبقَ في البيوت سوى العجائز والأطفال، ولم يبقَ في القصر سوى بعض الخدم والعبيد.

كان الطريق ممهدًا تمامًا أمام «يونس» ليضرب ضربته القوية. تسلل رجاله إلى القصر من باب جانبي مفتوح على الزروع. لم تمضِ سوى دقائق معدودات حتى كانوا يتقاطرون في حديقته، منتقلين بين أشجارها الباسقة، ملتحفين بالظلام. كان الباب الداخلي موصدًا، لكن النوافذ مفتوحة، فقفزوا منها حتى صاروا داخل القصر.

رأتهم خادمة، فاعتقدت في البداية أنهم بعض رجال «الصوابر» قد عادوا لطلب شيء، لكن الريبة التي اجتاحتها فجأة جعلتها تصرخ، فأسرع إليها أحدهم، وضربها بدبشك البندقية على رأسها، فانطرحت على ظهرها فاقدة الوعي. سمع العبيد صوت ارتطام جسمها الثقيل بالأرض، فخرجوا مذعورين، فعاجلهم رجال «يونس» ضربًا، وقيدوا أيديهم بحبال كانت معهم، وكمموا أفواههم باللاثات. صار القصر لهم.

كان «يونس» يعرف طريقه، فجرى إلى غرفة السيدة الراحلة، قلّب ناظريه، فلمح سحّارة من خشب الزان، عليها زركشات ملونة وبراويز منحوتة بعناية، تشي بأن ما فيها نفيس. لم تكن مغلقة، فرفع

غطاءها، ليجد الشكمجية بديعة الألوان، رفعها، ودس فيها عينيه تحت ضوء خافت يأتيها من مشعل في جدار البهو. كانت محشوة عن آخرها بالذهب والجواهر. لفها في لاثته. رمى بصره إلى اليمين فوجد خزانة ملابس، فتحها على عجل ليجد صندوقًا مملوءًا عن آخره بقطع النقود. صرخ مناديًا أحد رجاله فأتاه مسرعًا. أعطاه الصندوق والشكمجية، وقال له: لا تفارقني أينما ذهبت.

(19)

يجرف الفيضان أمامه كل خفيف. تزيح السيول الهائجة في طريقها كثيرًا مما استقر ورآه الناس هكذا. لكن ما شعر به «غنوم» حين عاد إلى القصر، واكتشف ما جرى، لم يكن ذلك الشعور الذي يشبه الفيضان أو السيل العرم، إنما هو طوفان عات، طمر أمامه كل ما بناه من محبة وسكينة، لم تفارقاه طوال عمره.

وجد نفسه يفكر، لأول مرة، في الانتقام. من قبل كان أقصى ما بلغه من عنف هو تنفيذ قصاص، أو استرجاع حقوق مهضومة عنوة، أو معاقبة مقصر من الخدم أو العبيد بلفظ قاس، يندم عليه حين يختلي بنفسه، دون أن يعتذر.

اليوم تكاد الأرض تعجز عن حمل غضبه، ويعجز معه جسده. ما يغلي في نفسه، يزلزله، ويأخذ خياله إلى معركة حامية. يرى نفسه فيها ممسكًا بشومة أو سيف أو خنجر أو بندقية، وكل أداة للأذى، وينهال قتلًا على مَن ألحقوا به الحزن والخزي على هذا النحو.

حين عاد، وجد العبيد والخدم الذين بقوا في القصر مقيدين، مكممي الأفواه. حمد الله أن أحدًا من أهله أو غيرهم لم يروهم على

هذه الحالة. حين سمع من أول عبد رفع الكمامة عن فمه أن غرباء هاجموهم وسرقوا القصر، أسرع إلى الباب الخارجي، وأغلقه.

جمعهم ليسمع منهم، رغم ما هو فيه من كدر، فمَن ماتت، أخذ الله روحها وهو في هذا متساوٍ مع الخلق أجمعين، والمخطوف يؤكد أهل القرية جميعًا أنها غفلة، وأنه سيعود معززًا مكرمًا، وسيؤتى بمَن خطفوه عرايا ممزقي الأجساد من السياط. في النهاية هو رضيع لا يقدر أن يصد عن نفسه أذى، ولا يُعيّر بخطفه أهله، لا سيما أن الخاطف هرب واختبأ في جحره. أما سرقة القصر ففيها ما يمس الهيبة، التي إن سقطت أخذت معها كل شيء، ووقتها لن ينفع المال ولا الولد.

أحد الخدم كان يعرف «يونس» جيدًا، فقال لسيده: سرقنا «يونس الجابر».. وجهه ليس خافيًا عني. كان متلفعًا وملثمًا بلاثته، واضطر لخلعها كي يضع فيها ذهب المرحومة، فلما انكشف وجهه عرفته.

(20)

أراد «غنوم» كتمان خبر سرقة قصره، حتى لا يهون في عيون الناس. عزم على أن يسترد ابنه وماله في آن. لكن الخبر انكشف، وتهامس به الناس خلف أبواب بيوتهم، وفي الحقول حين يطمئن الواحد منهم إلى الذي يسمعه.

لم يخرج السر من بيته، فلا يمكن لمَن فيه من الخدم والعبيد أن يخالفوا أوامر سيدهم، إنما جاء ممن أراد أن يحط من شأن السيد، انتقامًا مما فعله بالجوابر. كان «يونس» قد أرسل بعض رجاله إلى القرى المجاورة، فبثوا فيها الخبر، ومنها جاء إلى «الصابرية».

عقد بعض كبار «الصوابر» العزم على التأكد من سيدهم، فقابلوه بعد انفضاض اليوم الثالث من العزاء. أبصروا في عينيه حزنًا دفينًا، وفي وجهه صفرة، لم يروها من قبل. أدركوا أن الرجل غاية في الجزع والحذر. فابنه وكثير من ماله في يد مجرمين يعتصمون بالجبل والسلاح وقسوة القلوب.

قال أحدهم: الناس يتهامسون بما جرى. وأدرك «غنوم» أنهم يقصدون السرقة، فقال: العار الذي كان يحلق فوق رؤوسنا حط عليها، ولا سبيل لرفعه إلا قوة لا تضعف أبدًا. ردوا في نفس واحد: دبر وقرر ونحن رهن إشارتك.

اقترح أحدهم لو استعان السيد بسنجق الإقليم، فيرسل تجريدة مسلحة من جنده، تهجم على الجبل، وتقبض على العصابة. أنصت «غنوم» له، ثم سأل: وهل استعان اللص الخاطف بأحد غير رجاله؟ ثم طلب منهم الاستعداد لمعركة، كان قد خطط لها جيدًا، خلال ساعات من الاستغراق في صمت طويل، جعل فيها عزمه يغلب خوفه وحذره.

(21)

عند الفجر كانت عشرة مراكب تحمل أشد رجال «الصوابر»، يقودهم سيدهم، إلى الضفة الأخرى. معهم جمل يحمل الماء والطعام. كان من بينهم رجل يعرف الطريق جيدًا، اتخذوه دليلًا. صعد بهم عبر مدق ضيق بين كتلتين ضخمتين من الصخر، ثم انجلى المسار، بين أحجار ورمل وحصى.

ثلاث ساعات سيرًا على الأقدام حتى بلغوا ربوة عالية، ارتقاها العارف بالجبل، ومعه السيد. جثا الدليل على ركبتيه، وفعل السيد مثله، ثم غمس الأول إصبعه في الخلاء، وقال: مغارتهم هناك.

مد «غنوم» بصره، فرأى جبلًا معلقًا بين حجرين عاليين، ترفرف عليه ملابس مغسولة. كان هناك حصان لم يتبين لونه على وجه الدقة يقف شامخًا بأنفه في الهواء النقي، إلى جانبه ناقة باركة، تنظر إلى البعيد. برقت في شمس الضحى آنية من نحاس. ارتفع خيط دخان، يصعد من يسار المغارة.

قال الدليل: يبدو أنهم يطهون شيئًا للإفطار.

هز «غنوم» رأسه، وقال: لن يأكلوا إلا من حنظل جهنم.

هبط «غنوم» سريعًا، ووقف بين رجاله، الذين تواروا خلف صخرة عالية عريضة، وقال لهم: حددنا مكان الكلاب، وبقي أن تعرفوا كيف نباغتهم، ونعيد رضيعنا ومالنا المسروق.

كانت البنادق في الأيدي، مستعدة للتصويب. وزعهم على ثلاث مجموعات، وقال: نقترب حتى يكونوا في مدى بنادقنا، ثم نصطادهم كالفئران. هزوا رؤوسهم، فلاحقهم: لتغلب الحكمة العافية، ولا يطلق أحدكم أول رصاصة، حتى يتلقى أوامري. ثم أشار إلى أحدهم، وقال: حين أشير إليك، تنادي بأعلى صوتك على «يونس» وإن خرج فليلطق عشرة منكم الرصاص عليه دفعة واحدة.

لكن أحدهم، قال: من الأفضل أن يجدونا فوق رؤوسهم داخل المغارة.

(22)

لا تجري المقادير دومًا بما انعقد في الرؤوس. في حالات أعيا البشر إحصاؤها يكون الواقع أسبق من الخيال، وعلى الفطِن أن يحسب لكل طارئ ومباغت، ويفهم هذه الهوة التي تتسع بين التفكير والتدبير. فحتى الخطط المُحكَمة التي يضعها قادة متمرسون في فنون الحرب، لا يتم تنفيذها وفق ما تأملوا وقدّروا.

هكذا وقع ما خرج عما دبره «الصابر»، وكان هناك ما لم ينتبه إليه الدليل. فبينما كان الرجال يتقدمون في حذر، لا يكاد الواحد منهم يسمع دبيب خطواته على الرمل، ظهر رجل من العصابة فجأة، سار خطوات باتجاه الحصان. رمى إليه حزمة خضراء كانت في يده، لكن الحصان لم يلتقمها كعادته، إنما نظر في اتجاه المتقدمين نحوه في تمهل، وصهل.

التفت الرجل إلى حيث يرسل الحصان ناظريه، فرأى كل شيء. صرخ، وهو يجري في اتجاه المغارة، لكن أحد الرجال عاجله برصاصة استقرت في صدره، فسقط مضرجًا في دمه. وصل صراخه، وصوت الرصاصة، إلى الجالسين في قعر المغارة، فخرج بعضهم متقاطرين، وفي يد كل منهم سلاحه.

قبل أن يصوبوا بنادقهم، كان الرصاص يمطرهم من كل جانب، فتساقط كثير منهم. أحدهم تمكن، وهو يجر ساقًا جريحة، من القفز فوق ظهر الحصان، ودفعه بقدميه مسرعًا نحو صخرة بجانب المغارة لتحمي ظهره، فيتمكن من الفرار.

أطل «يونس» برأسه، فرأى الرجال يقتربون. عاد إلى قلب المغارة،

معولًا على بابها الخلفي، الذي لم يتذكره الدليل. رفع الرضيع الملفوف في رداءين من قطن وحرير، وخرج مسرعًا. رأى راكب الحصان، فناداه. كبح جماح حصانه وعاد إليه. رفع إليه الرضيع وصندوقي الذهب والنقود، وهمّ أن يقفز خلفه، لكن الحصان جفل، فأسقطه أرضًا. ارتطم رأسه بحجر، فغام كل شيء في عينيه. ناداه الرجل في لهفة: اركب.. اركب. لكنه لم يحرك ساكنًا، فتركه، ودفع الحصان يجري في اتجاه الصحراء الممتدة إلى حيث لا يدري.

كل مَن خرج من الباب الأمامي للمغارة سقط صريعًا فور إطلاق الرصاص في اتجاه المهاجمين. بعضهم خرجوا رافعين أيديهم فوق رؤوسهم مستسلمين. الذين تسللوا من الباب الخلفي وجدوا «يونس» ملقى على الأرض، فحسبوا أن رصاصة قد أصابته. واحد منهم، أمسك كتفه وحركه، فوجد جسده يذهب في يده يمنة ويسرة، فصرخ: قُتل «يونس». سمعه مَن تناثروا حوله، ورؤوسهم مشغولة بمهرب آمن، ففروا لا يلوون على شيء.

ثلاثة فقط من رجال «يونس» كمشوا في أماكنهم عاجزين عن التصرف: الرجل الذي يأتي إليهم بالطعام والشراب والماء والكيوف، وذلك الذي يطهو لهم الطعام ويجهز شبك الدخان ويغسل الملابس، و«فرحان» الذي يعس إليهم بالأخبار إن لزم الأمر.

بلغ «الصوابر» المغارة، سالمين جميعًا إلا من ثلاثة رجال أصيبوا، واحد في كتفه، والثاني في ذراعه، والثالث في ساقه. كان «غنوم» قد قدّر هذا، فاصطحب معه المُزيّن، الذي ظل طوال الطريق يرتجف، حتى كاد صندوق المراهم والإبر والجفت، يسقط منه غير مرة. حمل

بعض الرجال المصاب في كتفه، وعرج من طالت رصاصة ساقه، وهرول المصاب في يده، واحتموا بصخرة ليتلقوا العلاج المتاح.

دخلوا المغارة في حذر، فربما يكون أحد المسلحين رابضًا خلف نتوءات الصخر التي تتوسطها وتطل من جانبيها، لكنهم لم يجدوا سوى ثلاثة رجال رافعي أيديهم يرتجفون. صرخ فيهم «غنوم»: أين ابني؟ فأجاب «فرحان»، وهو يغالب دموعه: هرب به «يونس». ثم استدار ليشير إلى الباب الخلفي الضيق للمغارة. جرى نحوه «الصابر» ومَن معه، فلما خرجوا، وجدوا «يونس» طريحًا، يئن، وهو يحرك جسده قليلًا، كأنه يختبر بقاءه على قيد الحياة، ولم يكن الرضيع معه، ولا صندوقا الذهب والنقود.

(23)

جلس «غنوم» القرفصاء إلى جوار «يونس» الملقى مكانه، وبعض دمه قد ساح على الصخرة الصماء. غمزه في كتفه، فلم يدرِ شيئًا عمن يعبث به. ناداه فلم يرد. قال لأحد رجاله: هات كوز ميّه. سكب الماء فوق رأسه فتململ وسعل. راح يعود من غيابه فاتحًا عينيه. لمح «غنوم» ينظر إليه في غيظ شديد، وهو أكثر مَن يتمنى بقاءه على قيد الحياة. تفرس فيه مليًا، كأنه لا يعرفه. وربما يكون وقتها قد نسي كل ما جرى. في لحظة محت الغيبوبة القصيرة كل شيء من ذاكرته، لكنه أخذ يستعيده، فصرخ كالمجنون: اقتلوني، فهذا لن يمحو عاركم.

كان صدر «غنوم» يعلو ويهبط، يكاد مَن حوله أن يسمعوا صوت شهيقه وزفيره، بسبب إنهاك جسده من طول الرحلة ومطاردة كانت

تضعه بين الحياة والموت. لم يعد أمامه شيء يفعله في هذه اللحظة سوى أن يبصق على وجه «يونس». لم يكن يتردد في قتله، وأخذ جثته لتعليقها في مدخل «الصابرية»، لو كان قد وصل إلى ابنه وماله، لكنه كان حريصًا على حياة غريمه، فهو وحده الذي يعرف أين الرضيع والذهب والنقود.

حمل الرجال «يونس» بعد إفاقته. ربطوا يديه من خلاف. سحبوه إلى الخلف. وضعوه إلى جوار الجمل، الذي كان يرغي غير عابئ بشيء. طلب «غنوم» المُزيَّن الذي كان قد انتهى من مداواة الجرحى الثلاثة، فجاءه مسرعًا، وخطواته تنطق بثقة الظافرين، بعد أن انتهت المواجهة بانتصار الذين هو معهم.

قال له «الصابر»: داوِ يونس كما فعلت مع الجرحى الآخرين، بل أحسن. نظر إليه المُزيَّن في اندهاش، لكن لم يكن بوسعه أن يسأل، وسط هذا الكرب الشديد، فالسؤال كان للسيد، الذي قال لـ «يونس» في حزم: أين أخفيت ابني؟ لم يجبه، فراح يهدده: سأقطع من لحمك وأؤكله لك.

ظل «يونس» صامتًا، فقال له، وقد اختلطت نبرته باستعطاف، حاول إخفاءه، لكن عواطفه غلبته: أنت لم تكن أبًا، فلا تعرف ما أنا فيه، وهذا ابني الوحيد، الذي جاءني بعد صبر.

كان المُزيَّن قد فرغ مما يفعل، فاعتدل «يونس»، وقال: لا أعرف. فعاد «الصابر» يصرخ: كيف؟ فأجابه «يونس»، وهو يبعد وجهه عن عينين مملوءتين بالغضب العارم: أخذه أحد رجالي، وهرب.

- إلى أين؟

- لا أدري.

- الإنكار لن ينفعك.

- ما كنت صادقًا في حياتي مثلما أنا الآن.

كان «الصوابر» يتابعون ما يجري بين كبيرهم و«يونس»، فاقترب أحدهم، وسأل بصوت مفعم بالحنق: أين ذهب رجلك الملعون؟ وما اسمه؟

أجابه، وهو يلهث من فرط الإجهاد، ويضع يده على رأسه، متحسسًا جرحه: اسمه «غلّاب»، وهرب في هذا الاتجاه. ثم أشار بيده إلى الشرق، حيث تمتد الصحراء الخالية. كان قد أشار إلى الاتجاه الخاطئ.

(24)

مد «غنوم» إصبعه إلى الخلاء، حيث أشار «يونس»، وقال لرجاله: وراء الهارب، ولا تعودون إلا به. فهرع أحدهم، وقفز إلى ظهر الجمل الراقد، وضرب قدميه في جنبيه حتى نهض، ثم دفعه إلى الشرق. ركب آخر الجمل الذي جاء معهم، وراح الرجال يجرون عن يمينه ويساره، معهم الدليل، وفي أيديهم السلاح، حتى غابوا في أصفر ممتد، لا تبدو له نهاية.

ساعات مرت على «غنوم» دهرًا، استجوب فيها «يونس» مرات عما إذا كان يعرف مكانًا آخر يهرب إليه رجله، لكن لم يحصل على إجابة شافية. تيقن من أن «يونس» قد صار مثله، فقد ما كان معه، الرهينة التي يساوم بها، والذهب والنقود، الذي ربما فكر في أن يأخذ بها

أرض التزام في مكان بعيد، يعوض بها «الجوابر» عما ضاع منهم.

عاد الرجال قبيل المغرب، كما ذهبوا. كل ما تغير هو أن قِرب الماء التي حملوها قد فرغت في هذا الصيف القائظ، وأجسادهم صارت أكثر إنهاكًا، يجرون أقدامهم على الرمل، وهم يلهثون.

تطلع «الصابر» إليهم، فقال أحدهم: بحثنا في كل مكان. دخلنا مغارات مهجورة، درنا حول أحجار عالية، لعله يختبئ في أي منها.

وتدخل الدليل: تتبعنا آثار حوافر الحصان، حتى اختفت في منطقة صخرية، وتكفلت الريح بالبقية.

قال رجل من الذين بقوا مع «غنوم»: هذه المهمة لا ينهض بها الراجلون.

فأشار «غنوم» إلى ثلاثة من رجاله، وقال لهم: عودوا إلى «الصابرية»، افتحوا الإسطبل، وأخرجوا كل الأحصنة، اركبوا ثلاثة، واربطوا البقية خلفكم، اعبروا بها النهر، وتعالوا. سنبيت هنا، وفي الصباح لتجري الخيل باحثة في أماكن أبعد مما ذهبتم.

(25)

جرت الخيل في كل اتجاه، يقودها «غنوم» نفسه، وترك «يونس» مقيدًا، يئن من جرحه، ومعه المُزيِّن، وثلاثة من الرجال، جروه إلى المغارة، ليحتموا بها من وقدة الشمس الحارقة.

لا الخيل، التي تمضي إلى حيث يريد راكبوها، ولا الراكبون الذين يمدون أبصارهم في كل مكان، قد وصلوا إلى شيء، حتى دب اليأس في أوصالهم، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على أن يبلغ السيد بعدم

جدوى ما يفعلون. انتظروا الأمر منه، وكان عاجزًا عن إصداره. قلبه لم يطاوعه على العودة دون ابنه وماله. لكن ماذا عساه أن يفعل، بعد كل ما بذل من جهد؟ شعر بأن روحه تنسحب من جسده، لولا بعض أمل كان يسكنه، كلما مر الوقت، في أن معجزة ما ستلوح، من اليمين أو اليسار، من الأمام أو الخلف. وتمتم بصوت جرى على شفتيه المقددتين من فرط الأسى، لم يسمعه غيره: كيف يخذله الله، وهو لم يتأخر عن فعل الخير؟

يومان انقضيا حتى كاد الماء والطعام ينفد، ولم يكن أمام «غنوم» سوى أن يأمر رجاله بالعودة. أصدر أمره بشفتين ترتعشان، حتى خاف عليه مَن حوله من هول ما هو فيه.

(26)

للجبل أسراره التي لا يعرفها سوى رجاله. لجأ «الصابر» إلى عصابات تسكنه في أماكن بعيدة، أرسل رجاله إليهم بالمال، فربما يكون «غلّاب» قد لجأ إلى أي منها، فإن لم يفعل، فهؤلاء يعرفون أين يختبئ الهاربون بين فجاج الصخر والحصى المسنون.

بعد شهر واحد، عاد إليه أحد رجاله، وقد عرف نصف الإجابة. وقف أمامه يقطر الأسى من عينيه، وقال:

- وجد الرجال جثتين متعفنتين يغطيهما الذباب الأزرق، لرجل وحصان، عند كومة أحراش ليست بعيدة عن هنا.

انتفض «غنوم» واقفًا، وسأل بحروف يسكنها الرجاء: والرضيع؟

أجابه: لم يعثروا له على أثر.

جرى نحو حجرة ملحقة بالإسطبل، كان قد حبس فيها «يونس». اقترب منه، وسأله: هل جردتم ابني من لباسه؟

هز رأسه، نافيًا، ثم أردف: عليه ما جاء به، القطن والحرير.

عاد يجري إلى حيث العائد من الجبل، وسأله: ألم يعثر الرجال على قطن وحرير فارغ؟

- لا، لم يعثروا سوى على ما أخبرتك به يا سيدنا.

- ولا حجاب من جلد مطوي على ورقة مكتوب فيها ما يباركه؟

- لا يا سيدنا، لم يجدوا شيئًا.

سرى في أوصاله أمل، وقال: ابني حي.

كان يدرك أن الدود كان أسرع إلى جثة طرية، فنهبها نهبًا، وسواها بالتراب، بينما أخذ التهامه للهارب والحصان وقتًا أطول، فلقيهما الرجال على حالهما. لكن ها هو قد عرف أن الكساء الذي لن يأكله الدود ليس موجودًا، فقال لنفسه: «يد امتدت إلى ابني، وأخذته من رجل ميت، وأخذت معه صندوقي الذهب والنقود».

(27)

كان «غلّاب» قد جرى بحصانه على قدر ما وسعه، لا يعرف إلى أين يذهب؟ سكنه أمل في أن يلقى في طريقة عصابة من الفلاتية، أو أي من تجار الملح، أو حتى الذين يقطعون الجبل بحثًا عن الذهب، لكن الوقت طال به، والمسافة امتدت في طريق لا يعلمه جيدًا.

كان جرحه ينزف بشدة، فنزع الحرير من فوق الرضيع، وربط

ساقه. تراجع النزيف، لكنه لم ينته. ظلت الحياة تخرج من جسده على مهل، قطرة قطرة، حتى لم يعد قادرًا على مواصلة الهرب. سار به حصانه، وراكبه يأمل في النجاة، بعد أن أهداه عقله أن يكر راجعًا نحو النهر، لعله يجد في العمار مَن يداويه. لكن الحياة خانته، فلفظ أنفاسه الأخيرة، بين يدي رجل وامرأته، غريبين عنه. مات بينهما، وهو يحضن الصندوقين بذراعيه، بينما ألقى الرضيع عن يمينه، ينظر إلى السماء الطليقة فوقه، ويبتسم.

(28)

يخرج الحي من الميت، ومَن له عمر لا يوجد من الخلق مَن يسلبه إياه. خاطف يحتضر، ومخطوف يرى بفطرته النقية أيامه الآتية، في بلاد غير البلاد، فمَن ذا الذي يختار خطواته التي يدبها على الأرض، ومَن بوسعه أن يعرف مصيره. مَن لم يختر مكان ولادته، ولا الصلب الذي وضع بذرته، والرحم التي اكتست فيها عظامه لحمًا، لن يكون بوسعه أن يختار مكان موته، حتى لو اختار مكان عيشه بكامل إرادته.

(29)

لا يخلو جبل من سابلة، فلاتية وقاصدي صيد، وملح، وكنوز مطمورة. قبل هؤلاء عربان من أبناء قبائل استوطنت الصحراء، واتخذتها مملكة حرة، بعيدًا عن عيون العسس، وجُند السلاطين، وتحكم أصحاب الالتزام.

لكن نصيب «سالم» لم يكن أيًا من هؤلاء، إنما كان رجلًا هاربًا من ثأر اسمه «عويس» من قرية بعيدة اسمها «الحوارس»، كانت زوجته

«روحية» قد رفضت أن تفارقه في رحلة هروبه، التي امتدت به بين القرى والزروع حتى اقترب من «الصابرية».

ضيق مطاردوه عليه الخناق، فلم يكن أمامه من سبيل سوى عبور النهر. سرق قارب صياد وجده راسيًا، وصاحبه غائب. جدّف ما وسعه حتى بلغ الشاطئ الآخر. وجدته زوجته يسلك مدقًّا ضيقًا، صاعدًا إلى الجبل، فاستوقفته، وسألت في فزع:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

- لا مهرب ممن يطاردونني إلا باللجوء إلى الفلاتية.

نظرت إليه في تعجب، وسألته: أتذهب إليهم وأنا معك؟

ربت كتفها، وقال: ليس لي في الدنيا سواك، فالله لم يعطنا خلفة، فأعتبرك ابنتي، وأنا ابنك. ثم أردف: لا تخافي، عصابة منها يقودها «صميدة» أخي في الرضاعة، وفي كنفه سيكون الأمان التام.

- هل تعرف مكانها بالضبط؟

- اصطحبني أحد رجاله مرة، وجئت بمفردي مرة أخرى، وطرق الجبال لا تتغير علاماتها سريعًا.

سكنتها حيرة وتردد، وأدرك ما بها، فقال لها:

- لن نبقى عنده إلا عدة أيام، حتى يدبر لنا مكانًا بعيدًا، لا يصل إليه مَن يتعقبونني.

سألته في قلق: أي مكان؟

أجابها في ثقة: «صميدة» يد باطشة لكبار بلاد كثيرة، بعضها بعيد

عن هنا، ويمكن أن يطلب من أحدهم حمايتنا، وتدبير معاشنا.

اطمأن إلى زوادة الطعام وقربتي الماء، وكأنه يعلن لها أن الطريق قد يطول. مشيا في مدق ممهد، انتهى إلى تل، لكنه انحرف عن يمينه في طريق أقل تعبيدًا، يكسوه رمل وحصى، وتظهر فيه حوافر خيل. ظهرت مجموعة من أحراش متجاورة في منطقة لينة، فقال لها: لنأكل ونشرب حتى نقوى على الطريق.

جلسا تحت الأحراش التي كانت ترمي ظلًا ضئيلًا على جانبيها، وحام سرب من طيور في السماء، ثم اختفى، فقال «عويس» لزوجته: فأل حسن، فلا يحوم الطير إلا حول علامات الحياة.

قبل أن يفرغا من طعامهما وشرابهما، لاح هناك حصان يمشي على مهل، فوق ظهره رجل يترنح إعياء. انتفض «عويس»، ساحبًا بندقيته، وتأكد من أن رصاصة مستقرة فيها ومثبتة جيدًا. تقدم خطوات في اتجاه الرجل، وصرخ فيه: اثبت.

لكن الحصان راح يتقدم نحوه، وظهر له أن راكبه لا حول له ولا قوة. فلمّا بلغه، تنبه إلى قطرات الدم التي تتساقط من ساق الرجل. أوقف الحصان، ومد يده لينزل «غلّاب» عنه، فوجد أمامه لفافة بها رضيع يمص إصبعه، وعلى جانبي الحصان صندوقان مربوطان بعناية.

كان «غلّاب» ينازع الموت، ومع هذا تمكن من أن يقول بصوت واهن: لا تتركني، ولك ما تريد. معي ما أعطيه لك، ولن أنسى معروفك.

نحى البندقية جانبًا، ومد يديه وأنزل الجريح على الأرض. كان لا يستطيع السير، فأسنده إلى الأحراش، وهو يتفرس في ملامحه، فربما يكون قد مر وجهه عليه من قبل. بدا له غريبًا، لا يعرف من أين أتى؟ ولا إلى أين يذهب؟

وقف الحصان يلهث، وظهر عليه إعياء شديد، ثم برك مكانه، رافعًا خطمه إلى الهواء، ثم استلقى على ظهره فاردًا أرجله الأربعة.

سأله «عويس»: مَن أنت؟

اشتد على نفسه حتى ينطق، وقال: اسمي ليس مُهمًا.

فسأله: من أي بلد أنت؟

- من بلد بعيد عن هنا. أنا من بلاد كثيرة، ولا بلد لي.

- هل أنت من رجال «صميدة»؟

هز رأسه نافيًا، ثم أردف بصوت واهن: لا، أنا من رجال «يونس الجابر».

طلب «غلّاب» ماءً، فمد «عويس» القِربة إليه، فشرب قليلًا، ثم قال: يبدو أنها النهاية. وتململ الطفل بين يدي «روحية»، التي كانت تحضنه كأنه وليدها، فاقتربت به من «غلّاب»، وسألته: هل هذا ولدك؟ لكنه لم يقدر على رفع عينيه تجاهها، ولم ينطق لسانه سوى بكلمة واحدة: لا. وغامت عيناه، وصوت حشرجة راح يهز صدره، ثم سكن تمامًا.

(30)

اعتقد «عويس» أن الجريح قد سقط في إغماءة. مد يده وفك عن ساقه رباط الحرير، فرأى جرحه، والدم متجلط عليه، بعد أن كف عن النزيف. قلبه يَمنة ويَسرة، فلم يحرك ساكنًا. تقدمت «روحية»، دون أن تترك الطفل من يديها، ومالت على جسد «غلّاب». ترددت، ثم نظرت إلى «عويس» وهي تميل أكثر لتضع أذنها على صدر الجريح، فلم ترَ في عيني زوجها غضبًا. طبعت أذنها فوق القلب تمامًا، ثم قالت: مات.

رفع «عويس» بصره إلى الصحراء الممتدة، والسماء الطليقة التي تحط عليها عند مرمى البصر، وقال: الدوام لله وحده. فقالت «روحية»: نأخذ الطفل والحصان، ونمشي في طريقنا.

مشى نحو الحصان، وحاول إنهاضه، لكنه تمرغ قليلًا مكانه متشبثًا به. فك الصندوقين، فربما يثقلانه على صغرهما، فيكون قادرًا على القيام دونهما، وغمزه بطرف قدمه في جنبه، لكنه عاد إلى التمرغ، خفيفًا هذه المرة. جرى إلى القِربة، ووضع فمها في فم الحصان، لكنه كان عاجزًا عن تجرع كل ما يُسكب فيه.

كانت «روحية» تنظر إلى الصندوقين الموضوعين فوق الرمل والحصى، وذهنها شارد فيما يمكن أن يكون داخلهما. لم تقاوم فضولها، فتقدمت، وأمسكت صندوق الحُلي، وهزته فسمعت صلصلة. هزت الآخر، فكانت الصلصلة أشد.

سألت: يا ترى ماذا في الصندوقين؟

- ربما تكون ذخيرة.

- لا أظن.

أعاد بصره إلى الصندوقين. تقدم ومد يده إلى قفل صغير يغلق صندوق النقود، وهزه بعنف، لكنه لم ينخلع. أمسك بندقيته، وضربه عنيفًا بالدبشك، فانخلع. رفع الغطاء، وعقدت الدهشة لسانه. كانت هي فوق رأسه، فصرخت: يا بختي! ثم نظرت إلى الصندوق الثاني، وقالت لزوجها: افتحه. فتحه بالطريقة نفسها، فلمعت الحُلي وملأت بصريهما بريقًا.

نظر إلى جثة «غلّاب» المكسوة بلباس رث، يملأه العرق والرمل، وقال: هذه سريقة، كان هاربًا بها. انطلق الرضيع في صراخ ناعم، فقالت المرأة: لا يغامر سارق بكبده. وأردفت، وهي تنقل بصرها بين لباس الطفل الذي يبدو غالي الثمن: يبدو أنه قد خطف الرضيع من أهله، وهذا مالهم. هز رأسه، وقال: هو لغز كبير على أي حال. ردت، وهي تضرب ساعدها في الحُلي: دعك من الألغاز، ودعك من هذا الطريق، فالآن لنا طريق آخر يجب أن نمشي فيه.

تطلع إليها، ليعرف ما تفكر فيه، فقالت:

- إن رأى «صميدة» الصندوقين ربما يقتلك، ويقتل الطفل.

- لا تسيئي الظن به، فقد خبرته وفيًا لي.

- مَن اعتاد قتل الأنفس في سهولة، لن يصعب عليه قتل مَن يحب، إن لزم الأمر، أو جرى بينهما طمع.. لنأخذ الطفل، فهو رزق لرجل وامرأة، لا يعرفان مَن فيهما عقيم، وليكن المال سبيلنا إلى إسعاده.

صمت برهة، وهو ينظر إلى الطفل فانتبه إلى التعويذة المعلقة في

رقبته، وقال لها:

- اخلعيها، فربما تدل عليه.

- هو حجاب يباركه، وأخشى أن يؤدي خلعه إلى مكروه يصيبه. سأداريه، وربك حليم ستّار.

ثم أشارت إلى قطعة الحرير، وقالت: غريبة على جلباب القتيل، هي للصغير، ولا شك.

التقطتها، وفركت الدم المتخثر عليها، ثم وارت بها رأس الطفل لتحميه من صهد الشمس. أشارت إلى الطريق المعاكس، وقالت: لنغد إلى النهر، ونؤجر مركبًا يأخذنا إلى مكان أبعد في الضفة الأخرى، ثم نذهب إلى بلد لا يمكن لمَن يطاردونك أن يبلغوه أبدًا.

قال لها، وهو يرمق جثة «غلّاب»: ندفنه. ردت: ليس هناك وقت. نتركه في العراء، ربما يتعرف عليه أحد، ويسلم جثته إلى أهله، بدلًا من أن يقضوا العمر حزانى يبحثون عنه.

(31)

عصيبة مرت الأيام على «غنوم»، لم يشفِ غليله حبس «يونس»، بعد أن أيقن أنه لا يعرف مكان «سالم»، وحتى لو كان يعرف وينكر متحملًا الوحدة والظلام والذل في سبيل الكيد لمَن حبسه، أو الإبقاء على بعض انتصار في نفسه، فبموت «غلّاب» انقطع عنه أي خبر.

انشغل «غنوم» بمصير مَن حبسه، هل يقتله، فيثأر لغياب ابنه، ويسترد هيبة كان يظن أن تضيع تدريجيًا؟ أم يجعله يقبع في السجن إلى أن يموت؟ سبق له أن أمر رجاله بوضعه مقلوبًا فوق

حمار، قفاه إلى الأمام، ووجهه إلى الخلف، وزفه العيال كأي سارق لا أهل له، أهانوه في كل شوارع القرية، بما فيها مَن يسكنها الذين بقوا فيها من «الجوابر».

وبينما هو غارق في التفكير عما يفعله بهذا الذي حرمه من أغلى ما لديه في الحياة، برقت في رأسه فكرة، لم يسمع بها أهل القرية من قبل، وتمكنت من رأسه، جارفة أمامها كل ميراثه من السماحة والرحمة.

طلب ثلاثة رجال أشداء من «الصوابر»، ومعهم المُزيّن، فلمّا مثلوا أمامه، تطلع إليهم، وقال: قررت أن أحرم «يونس» من الخلفة إلى الأبد. نظروا إليه صامتين في حيرة، لا يدرون ما يقصده، فعاجلهم: سأميت نسله في صلبه.. سأجعله من الخصيان.

رد أحدهم على الفور:

ـ له نسل، أنسيت الغجرية التي شكت قبل سنين أنها قد حملت منه؟

- لا، لم أنسَ، لكن «يونس» أنكر هذا وقتها، وطردها من القرية. إنها من المساليب، لا تستقر في مكان، وربما أجهضت نفسها، أو نسبت الطفل لرجل آخر، أو قتلته فور ولادته.

وجيء بـ «يونس» مُقيّدًا. ألقوا به تحت قدمي «غنوم» الذي كان يجلس على كرسيه، وينظر إلى سجينه باحتقار. لم ينشغل «يونس» بنظرات تغمره بالاستهانة، يريد أصحابها أن يحطوا من شأنه، فهو موقن أنهم لن يقدموا على قتله، طالما ظل رضيعهم مخطوفًا.

لم يكن خبر موت «غلّاب» واختفاء الطفل قد وصله، ولهذا بدا متماسكًا، بل اعتقد أن السيد الجالس يغالب انكساره، سيتودد إليه، كي يعرف منه أدنى خبر يمسك به أول الخيط إلى ابنه الضائع.

حرص «يونس» على ألا يرفع عينيه في عيني «غنوم». كان يحملق في أرضية البهو الرخامية، ويحاول أن يستدعي أي ذكرى يلهو بها، لعلها تخفف من وطأة ما هو فيه. لكن عينيه لم تلبثا أن انفتحتا عن آخرهما، حين قال له «غنوم»: سأخصيك كما نفعل بالجديان. امتلأ دهشة ورعبًا، ونظر إلى المُزيِّن، الذي كان مَن استدعوه قد أخبروه بمهمة لم تخطر له على بال فأتى إليها مُجبرًا.

قال «يونس» مستعطفًا، وهو ينظر إلى شفرة الموسى: اقتلني أفضل.

- لم أعتد القتل مثلك، ولا أريد أن أقابل الله وفي عنقي دم.

نظر «غنوم» إلى رجلين من أهله، وقال لهما: أمسكوه كما يُمسك صغير في طهوره. فك الرجلان قيد «يونس»، وطرحاه أرضًا. جرداه من سرواله. رفعا ساقيه، وسحبا ذراعيه بينهما، وأمسك كل رجل بيد، فأفسحا بين فخذيه. نهض «غنوم» من فوق كرسيه، وأمسك رأس «يونس»، بعد أن خلع كوفيته، وسد بها فمه. جاء أحد الخدم، وأمسك مع سيده. كان «يونس» يجأر كذبيحة، ويحاول التملص، لكن الرجلين أحكما الإمساك به، حتى لم يعد قادرًا على حراك. مد المُزيِّن الموسى ومزع خصيته اليمنى، وداس فيها بقوة، فأخرجها من صفنها. فعل الأمر نفسه باليسرى سريعًا، ثم غمس إصبعه في خق مرهم أحمر، وغرسه في المكانين الفارغين.

تركوه يتلوى مكانه، وصراخه يتراجع حتى سقط في إغماءة. طلب «غنوم» من المُزيّن أن يتصرف، فأخرج خق نشادر كان بحقيبته، ومرره أمام أنف «يونس»، ثم سكب عليه ماءً باردًا فأفاق، وهو يتمنى لو كان قد مات دافئًا عاره معه.

سأل رجل من الاثنين: ماذا نفعل بخصيتيه؟

وقبل أن يجيب «غنوم» نطق الثاني: يأكلهما نيئتين.

لكن «غنوم» رفض هذا الاقتراح، وقال: تربطان بخيطين. تعلق واحدة على صدر أول بيت بالقرية، والثانية على آخر بيت، ليعرف أهل الصابرية جميعًا ما حدث للص الخائن.

أعادوا تقييده، وجروه إلى الإسطبل.

(32)

فار الدم في عروق مَن تبقوا من «الجوابر» في «الصابرية»، لكنهم كانوا أضعف من أن يفعلوا شيئًا. كل ما انتهوا إليه أن يرسلوا اثنين منهم إلى «غنوم» ليفرج عن سجينه، إلا أنه أبى، وقال لهما في حزم: سيظل رهينة فاقدًا رجولته، حتى يعود ابني.

لكن «يونس» لم يبقَ. لم يتحمل جرح كرامته، وهو ينظر بين فخذيه فيرى عجزه الأبدي عن أن يكون في يوم من الأيام أبًا لولد أو بنت. زحف على عجيزته، حتى اقترب من جدار الإسطبل الذي حبسوه فيه. كان حاسر الرأس، متشقق الشفتين، تغيم عينيه لا يريد أن يرى أي شيء حوله.

كان الليل قد انتصف، حين اتخذ قراره الصعب جدًا على غيره،

السهل جدًا عليه، لا سيما حين تشتعل نفسه حنقًا على ما جرى له من إهانة وعار. راح يضرب رأسه بقوة في الجدار حتى انبجس الدم منه غزيرًا. سال على وجهه وملابسه الرثة، مؤذنًا بنهاية لم يكن يعتقد في يوم من الأيام أنها ستأتيه على هذا النحو المهين.

سلم الخدم جثة «يونس» إلى أهله في الليلة التالية، واشترط «غنوم» ألا يُشيّعه إلا أربعة رجال منهم، يحملون الخشبة التي تطوق جثمانه إلى قبره، وألا يُقام له سرادق عزاء.

دفنوه في الظلام، وعادوا إلى بيوتهم غارقين في الصمت والانكسار.

(33)

لم يستسلم «غنوم» لضياع ابنه. أرسل رجالًا إلى كل القرى والنجوع، القريبة والبعيدة. عبروا النهر، وسألوا رجال العصابات التي يعرف الأدلة الكهوف التي يعششون فيها. في الصباح والمساء، يجلس في الديوان أو في بهو قصره منتظرًا الخبر الذي يعيده إلى سابق حياته، لكن الرجال يعودون تباعًا فارغي الأيدي. ليس لديهم سوى حكايات عن المسافات التي قطعوها، وما سمعوه من كل الذين سألوهم في المشارق والمغارب، وفي الشمال والجنوب.

ثلاثة أشهر مرت، ولا خبر. راح الأمل يغور في تقدم الساعات المُرة. لم يعد أمامه سوى اللجوء إلى مَن يعتقد في أن لديهم ما يكشف له ولو طرف من الأسرار. جاء بضاربي الرمل من الغجر، ومَن يطالعون الخبر من الأفلاك التي تدور في جوف السماء البعيد. زاره كثير ممن اشتهروا بمخاواة الجان.

هرف كل من هؤلاء بما يراه أو ينصت إليه ممن يقول إنهم محدثوه من العالم الأثيري الخفي. كلما سمع «غنوم» من إحداهن أو أحدهم ولد أمل جديد في نفسه، فأرسل من رجاله مَن يسعى وراءه، لكن بلا جدوى.

تذكر شيخ الطريقة الذي رأى العلامة الحمراء على صدر طفله، وتحدث بشيء عما سيلاقيه في قابل أيامه. أرسل إليه، فجاءه وليس معه سوى ما حكاه قبل شهور، خلال أيام الأفراح الهائمة، التي لم يكن «غنوم» يظن أبدًا، أنها ستنقلب إلى أحزان سوداء مقيمة.

ذكّره بما سمعه منه، فقال الشيخ: لم أحدثك سوى بما نطق به قلبي.

نظر إليه في انكسار، وسأله: ألا يحدثك قلبك الآن بجديد؟

صمت برهة، وقال: لا أقطع الأمل أبدًا في خاطر يسكنني بغتة، ولا حيلة لي به، أو رؤية في منام هادئ، وكلاهما من عند ربك.

غالب «غنوم» دموعًا تطفر من عينيه، وسأله من جديد: ألم يأتك شيء حين سمعت ما جرى؟

أجابه، وهو يرق لحاله: لم أسمع سوى اليوم منك، وقبلها كنت أدور على البلاد في حضرات لا تنتهي.

ثم أطرق برهة، وقال: سيكون له مثل مالك وأحسن، لكن في مكان بعيد.

تهلل وجه «غنوم» بشيء من رجاء، وقال: هل أراه في نعمته البعيدة؟

هز رأسه نافيًا، وقال: سترى غيره، من صلبك يأتي من رحم لم يكن في حسبانك. أما «سالم» فسيعود حاملًا رايتك، التي ستتركها سنين قبل أن يرفعها عالية في وجه الريح.

(34)

استبد اليأس بـ «غنوم»، ولم يجد له مصرفًا سوى في الذهاب عصر كل يوم إلى الزاوية. شاطر «متولي السمطي»، المريد المختلي بنفسه ساعات طويلة ترديد الأوراد، فوجد بعض السلوى في العبادة والذكر. يلهج بالتسابيح حتى يتعب لسانه، دون أن يتعب قلبه.

يركب أحيانًا فرسه في الظهيرة ويصعد إلى الجسر العالي الذي يحمي القرية من الفيضان، ويرسل ناظريه إلى صفحة النهر المنساب إلى الشمال، فيطل هناك الجبل، حيث صعد ذات يوم وكله أمل في أن يعود ومعه ولده وماله.

كانت سلوته الثانية في شاعر الربابة الذي يستقدمه يوم الخميس من كل أسبوع، يُجلسه على كرسي قبالته في الديوان، ويغمض عينيه للعزف الحزين، ثم الصوت الطلي الذي يشدو بالسيرة الهلالية. كان يطلب منه كل مرة أن ينشد مواويل عن الصبر والفراق وغدر الزمن، ويتوه معها هاربًا من دنياه المقبضة.

حدثه بعض أقربائه عن طبابة يمنحها الحشيش والنبيذ، لكنه رفض، وقال لهم: المسطول يشطح، والمخمور يترنح، والكبير لا

يجب أن يفقد وعيه ولا هيبته دقيقة واحدة.

وأدرك سلوى أخرى ضائعة، على غير إرادة منه. كان قد أغلق خلفه باب غرفة أخرى اختارها للنوم، فهو لم يكن يقدر على المبيت في غرفته المعتادة، فكلما دخلها جاءه طيف «منصورة»، وسمع كلماتها الأخيرة، ثم يرى وجه «سالم» وهو يبتسم غير عابئ بشيء. الغرفة الجديدة كانت جانبية، نافذتها تطل على الحديقة من الخلف، وشمس العصاري تغمرها بالنور، وقت أن يكون هو في الزاوية غارقًا في التسابيح.

حين يختلي إلى نفسه في غرفته هذه يغرق في تفكير مضن، تتخبطه الهواجس والوساوس والآمال الكاذبة، التي يحاول أن يطمرها بالأدعية والأذكار.

ذات ليلة، ما إن استعد للنوم حتى شعر بحركة إلى جانب النافذة. قام وفتحها، فواجه القمر بدرًا يتوسط السماء. شخص ببصره إلى الجانب الأيسر، فرأى تحت نخلة قصيرة كلبًا يختلي بأنثاه. وجده يعض جسدها في خفة، وهي مستسلمة له، ثم راح يتشمم فرجها فزاد استسلامها. قفز عليها، وراح يطعنها في لهفة، وهي غارقة في اللذة.

جرت دماء الشهوة في عروق «غنوم». وجد نفسه لا يريد أن يغلق النافذة. كان يخشى أن يراه أحد الخفر الذين توزعوا على ورديات ليل عند سور القصر، منذ حادثتي الخطف والسرقة. فمَن أدراه أن تعود عصابة من «الجوابر» الذين أجلاهم عن القرية للانتقام، لا سيما بعد أن ألحق بهم عارًا جديدًا حين أقدم على إخصاء «يونس».

وارب النافذة دون أن يفقد متابعة ما يجري بين الكلب والكلبة، ولأول مرة، منذ رحيل زوجته، شعر بأن هناك شيئًا جميلًا لذيذًا قد نقص من حياته، وربما يمنحه بعض السعادة، ولو لوقت قصير، إن استعاده. لكنه سرعان ما طرد الفكرة من رأسه، ومات الاشتهاء، حين أغلق النافذة، وعاد إلى سريره. بدأ التسابيح التي تسبق النوم، إلا أنه شرد منها فيما رآه، ولم يكن ينكر السعادة التي تغمره حين أدرك أن الرغبة لم تمت تمامًا بموت زوجته، كما كان يظن، وهو يقسم صامتًا على نفسه أن يظل وفيًا لها إلى آخر العمر.

عرف الخدم والعبيد ما جدّ على سيدهم من أحوال، فكانوا يقدمون له الطعام والشراب في موعده. يبلع في مشقة لقيمات يقمن صلبه، ويقوم غير هانئ بطيبات الرزق المرصوصة على الخوان أمامه. في الليل يتقلب على جنبيه، كأن تحته جمرًا، ولا يسقط في نومه إلا حين يكرر النداء الذي تعلمه من ساكن الزاوية: يا لطيف.. يا لطيف.

لكن النوم لم يُذهب عنه ما يداهمه في أحلامه، وما يلقاه في انتظاره حين يفتح عينيه في البكور. إنه الأسى، وما يخمش نفسه من أفكار تعيسة، حين يدرك أن كل ما جمعه لن يذهب إلى ولد من صلبه. أخوه «محفوظ» الراضي بالعلم، لم ينجب سوى بنت، لم يرَها «غنوم» سوى مرتين. يصر «محفوظ» على رفض المشاركة في التزام الأرض، ولا يريد لابنته أن تعيش هنا.

بين الذَّكر والذِّكر هناك حياة لا بد أن يعيشها، بعد أن ناداه رجال «الصوابر» ليعود إلى دوره المحتوم. يقضي بين الناس في المظالم،

ويصلح بين المتخاصمين، ويأمر بتوزيع بعض الطعام على الفقراء، ويُحسن إلى خدمه وعبيده، فهم وحدهم الذين شعر بأن إخلاصهم له لا ينتهي.

كان يشعر بهم، وهم ينقلون أقدامهم في هدوء طوال الليل، ليطمئنوا إلى أنه نام، أو يسأل حاجة يقضونها له. كانوا قريبين من نفسه، أقربهن «مسعدة» التي يرى فيها رائحة ابنه الضائع، وخادمة شابة من «آل بخيت»، كانت تذهب إليه لتدلك ساقيه وركبتيه اللتين سكنهما عجز طارئ بفعل تصاريف الأيام التي لا ترحم.

كان اسمها «بديعة»، وطالما رآها اسمًا على مسمى. ضحكتها الصافية، وصوتها الذي يشبه الرباب المجروح، وهو ما يحبه من العزف، وقوامها الممشوق، ومشيتها التي تتهادى بها في خيلاء كأنها انحدرت من صلب سكان القصور.

لم تكن تنقطع عنه في أي يوم، وكلما نادى أحدًا من خدمه أو عبيده كانت الأسرع إليه. ارتاح لوجودها، ووجد للحديث معها طعمًا محببًا. كانت تروق له ردودها، وكأنها قد أوتيت حكمة لا يمسك بها المرء سوى في آخر أيامه، بعد أن تعركه السنين والمحن. كانت إن حملت هي إليه الطعام، أكل أكثر، حتى لفت هذا انتباه الخدم مع الأيام، فكانوا حريصين على أن تكون هي التي تحمل الخوان إليه.

في ليلة شعر بألم في جنبيه. نادى، فهرعت إليه خادمة بدينة في وسط عمرها. وقفت عند مخدعه، وسمعته يتوجع، فسألته: هل نطلب المُزيِّن؟ فهز رأسه، وقال لها، بصوت مسكون برجاء، لا يعرف من أين داهمه: هاتي «بديعة».

(35)

دخلت إليه ملهوفة، فوجدت الألم يسكن عينيه قبل غيرهما. نظرت إليه، وكانت قد بدأت تدرك ما يشعر به وتخشاه، وقالت: ألف سلامة عليك يا سيدي.. ما يوجعك؟

وضع يده على بطنه، وقال: مغص شديد.

التفتت إلى النافذة، فوجدتها مواربة، فمشت إليها، وأغلقتها، وقالت: أصابك برد في هذه الليلة الشتوية.

اقترحت عليه أن تغلي له الكمون والشيح البابونج فوافق. استدارت نحو باب الغرفة، لتعد هذا المشروب الساخن، فرمى بصره نحوها. انتبه إلى عجيزتها المستديرة، التي تهتز في لطف، وتتدلى من خصر نحيل يعتليه ظهر معتدل، ينتهي بكتفين مستديرتين. سأل نفسه بعد أن غابت: كيف غفلت عن هذه الجوهرة؟

تذكر أن «منصورة» قد فاتحته ذات ليلة في أمر زواج «بديعة»، وقالت له إن شابًا من «آل بخيت» اسمه «بحر» يريد التقدم إليها، وأنه قد وسّط «مسعدة» في قضاء طلبه. لكن «غنوم» وقتها كان مشغول البال بشكوى الفلاحين من اغتصاب «يونس» الأرض التي يزرعونها، فلم يهتم كثيرًا بما سمع، بل نسيه مع الأيام.

ها هي الظنون تهجم عليه من كل جانب. هل كانت «منصورة» تريد إبعادها عن القصر بعد أن بزغت فتنتها على هذا النحو؟ ربما كان هذا شعور امرأة تأخر إنجابها؟ بل الأحرى شعور مَن لا تلبي نهم زوجها، بعد أن جار عليها الختان، فأفقدها تجدد الرغبة المتأججة

على نحو سريع. ولماذا يعتقد أن المرأة التي سمعت عن تحرش الصابر الكبير بخادماته لا تخشى من خادمة تفتحت كزهرة برية أمام حفيده؟ أليس العرق دساسًا؟

لكن ما يعرفه جيدًا أنه ظل وفيًا لـ «منصورة» حتى وفاتها. كان يناديها بالهانم منذ أن جاءت عروسًا تتعثر في براءتها، وطلب من الخدم والعبيد أن يفعلوا مثله. عززها بين أهلها، وجعل حتى زوجات السناجق المتعافين يحسدونها على ما هي فيه. ألم يكن لديها صندوق من الحلي والمجوهرات، وخزانة مملوءة بالفساتين والعباءات الفاخرة؟

تزاحمت في رأسه الأسئلة والذكريات، لكنها ماتت فجأة حين أطلت «بديعة»، حاملة صينية من الفضة الخالصة، عليها كنكتان يتصاعد منهما البخار، وتلتف حولهما كؤوس النحاس. وضعت الصينية على طاولة صغيرة إلى جانب السرير، وراحت تصب، منهكمة فيما تفعل، بينما «غنوم» يتفرس ملامحهما الجانبية، فيجدها أشد فتنة.

التفتت إلى سيدها، وسألته: هل أنتظر حتى يبرد المشروب؟

كان تائهًا في وجهها وفي خواطره، فلم يرد، فواصلت: هل أنقله بين الكؤوس حتى يبرد، أم ستنفخ فيه يا سيدي؟

هنا انتبه، وقال لها: انفخي أنت يا «بديعة».

وكانت تقرب الكأس منه، وهي تنفخ، فتلفح وجهه بعض أنفاسها، حاملة سخونة الكأس إليه، لكنه أيقن أنها سخونة جسدها الفائر.

اعتدل، ومد يده ليأخذ الكأس، فمست أصابعه يدها. سرت في جسده رعدة، وانطلق في داخله نداء خفي عامر بالمسرات واللذة.

تناول الكأس من يدها. سحب شفطة، ونظر في عينيها، ولأول مرة يدقق النظر فيهما هكذا، فانتبه إلى أنهما أجمة نخيل ساحرة. بدت وجنتاها اللتان ينسكب عليهما ضوء الفانوس الواهن قطعتين من نحاس أحمر. رآها فاتنة على نحو ارتجف له قلبه، وآمن بأن الوصل لا بد آت.

كانت تراقبه بغريزة الأنثى التي تعرف سحرها، الذي طالما تحدث به آل بخيت والخدم والعبيد، وكل مَن رآها رأي العين من شباب القرية، حين انزاحت طرحتها السوداء عن وجهها الذي تحرص على تغطيته إن سارت في الشارع ذاهبة إلى بيت أهلها، في مرات قليلة. احتار الذين رمقوها في النطفة التي انسابت في العروق حتى وصلت إليها، فصورتها بما لم يكن لأي فتاة من عائلتها السمراء الفقيرة.

كان «غنوم» يسحب رشفات متتابعة، واحدة من كأس الكمون، وأخرى من الشيح، ويرمقها بطرف خفي، وكلما التقت عيونهما ارتبكا سويًا. هي تعرف أنه ليس من المناسب أن تتجرأ على سيدها، وهو يدرك أن مكانته تُقيّده، لكن أي قيد في محبة ولدت عارمة؟

قال لها بصوت خفيض كأنه الهمس: لا حرمني الله منكِ يا «بديعة».

هزت رأسها في امتنان، وقالت: أنا تحت أمرك يا سيدي.

أي أمر يصدره إليها؟ تمنى لو طلب منها أن تقترب منه، فيدس رأسه الحاسر في صدرها، ويبكي أوجاعه المكتومة. وجع على ابنه الضائع، وآخر على آثار الطريق المفروش بورد المحبة وأشواكه، وثالث على ما يجب أن يقوله إن صارحها بما يضنيه، وما يبرر به موقفه أمام أهله، الذين لن يكون سهلًا عليهم أبدًا أن يقترن سيدهم بخادمته.

سألها بصوت يغالب ارتعاشه: هل طلبك قريب لك للزواج؟

صمتت برهة، ثم أجابت: فاتحتني الهانم رحمة الله عليها.

ارتبك حين جاء ذكر زوجته الراحلة، ثم تماسك، وعاد يسألها: هل وافقتِ عليه؟

ابتسمت، وردت بسؤال حمّال أوجه: منذ متى كانت الواحدة منا لها رأي في هذا؟

سحب شفطات متواصلة، وطال بينهما الصمت، ثم سألها من جديد: لو كان لكِ رأي، فما هو؟

هزت رأسها، وقالت: لا أعرف كيف يمكن أن أعيش بعيدًا عن مكان كبرت فيه.

وفرت عليه بقولها ربع المسافة إليها، فقال في حماس: مَن أدراك لعلك لا تبتعدين عنه.

جمعت حصيلة نظراته وكلماته، وسرى في قلبها دبيب عجيب، جعلها تكاد ترتجف، لكنها تماسكت، وقالت له: لا شيء عندي أفضل من البقاء إلى جوار سيدي خادمة مطيعة له. تنحنح، وقال: بل

سيدة. ارتجت لكلمته، ولم تحملها ساقاها، فرجعت إلى الخلف خطوتين. اقتربت من الصينية، وأمسكت كنكة الكمون، وسألته: أصب لك كأسًا أخرى، فهو مفيد لك جدًا؟

ملأ ناظريه من جسدها الفائر، وتحرك داخله شعور طاغ، جعله يسحب اللحاف على جسده، حتى لا ينكشف أمره على هذا النحو الذي يخجله، لكنها كانت قد أدركت ما هو فيه. التفتت إلى الباب المغلق، والنافذة المغلقة، وفضح النور الواهن ارتباكها.

أدرك هو ما يدور في رأسها، فقال لها: حرصي عليك أكبر من حرصك على نفسك.

هزت رأسها، وقالت: أدام الله رضاءك عني.

فقال على الفور: أراك فوق ما تتصورين.

وكانت تعرف أنه ليس كجده الكبير، الذي تناقل العبيد والخدم حكاياته معهم، فقالت: لم نعرفك إلا سيدًا محترمًا، لم يخرج منه عيب في أي يوم.

رد في ثقة: ما أحله الله يخلو من العيوب.

لم تفهم الأمر كله على النحو الذي قصده، إذ لم يذر بخلدها يومًا أن يدور بينهما حديث في مثل هذه الأمور، فاحتمت ببراءة لم تصطنعها، ورنت إليه في هدوء، وقالت: تثاقلت همومك يا سيدي، كان الله في عونك.

وخاف من أن توارب الحديث بعيدًا عما اقترب منه، فباغتها: تتزوجيني يا «بديعة»؟

خطفت الصينية، والكأسين الفارغين، وجرت إلى خارج الغرفة.

(36)

كتب إلى أخيه «محفوظ» في المحروسة أن يأتي، وسلم أحد الخفراء الخطاب إلى أول مركب شراعي ذاهب إلى «بولاق» حاملًا القمح من الصوامع إلى ساحل الغلال. قال له إنه يريده في أمر مهم، ولا سبيل لأي اعتذار. كان هو أقرب الناس إليه، ورأى أن إخباره بما عزم عليه واجب.

لم يفاتح أحدًا في نيته، حتى جاء «محفوظ» إلى «الصابرية» في عصر يوم ملبد بالغيوم، تداعب فيه النسائم الطرية هامات النخيل والشجر، وتدفع في النهر أمواجًا خفيفة. كان كعادته يصطحب معه بعض مخطوطات الفقه، وصواني الحلوى، وبعض هدايا التقطها من جوار مسجد الحسين. وكان يعتقد أن مرضًا قد أصاب أخاه لحزنه على ضياع ولده الوحيد.

ما إن رأى «غنوم» حتى سأله وهو يعانقه: خير يا أخي؟

شد على يده، وقال: كل خير، لا تقلق.

وكان يعرف أن الرحلة الطويلة قد أرهقته، فقال له: لتتناول غداءك، وبعدها أحدثك بما طلبتك من أجله.

كان متعبًا، فلم ينتظر الغداء الذي أمر أخوه خدمه بطهيه له، وذهب إلى الغرفة التي تُخصص له كلما أتى، وتُغلق فور رحيله، في انتظاره من جديد. نام تاركًا ابنته تلعب في حديقة القصر. استيقظ قبيل صلاة العشاء، فوجد «غنوم» ينتظره في لهفة.

ما إن اختلى به، حتى قال له: نويت أن أسلك طريقًا يعوضني عمن راح مني.

وكان يعرف أن أخاه قد أضناه البحث عن ابنه الضائع دون جدوى، فقال له: الانتظار مُر، وكل ما يعوض عنه مطلوب.

هز رأسه، وقال: قررت أن أتزوج.

- نعم القرار، فيه صحبة وألفة وفرصة لترى من صلبك ابنًا آخر، حتى يعيد الله إليك مَن ضاع.

- من واجبك أن تعرف العروس.

- سيدنا لا يتخير إلا طيبة.

ـ لا تستعجل، فقد تغير رأيك إن عرفت مَن هي.

- عهدناك تختار الصواب دومًا.

تلفت حوله، وكأنه يستجمع صور خدمه وعبيده، وقال: هي هنا، معي طوال الوقت.

نظر إليه في استغراب وقال: هنا؟! أعرف أنه لا يوجد في القصر إلا خدمك وعبيدك.

- فتاة مليحة طيبة من الخدم.

وجم «محفوظ»، وامتلأت نفسه عجبًا، ثم قال: في «الصوابر» فتيات وأرامل ومطلقات، وفي عائلات أخرى بكل الزمام، حتى بعض نساء الأتراك والمماليك سيرحبون بصاحب هذا الالتزام الكبير،

والسمعة الطيبة.

ملأ «غنوم» صوته بعاطفة تغلبه، وقال: القلب وما يريد يا أخي. حين تراها ستعذر أخاك.

أدرك ضعفه الذي يطل من عينيه، فقال: بوسعك أن تجعلها ملك يمينك، إنها جارية.

- هي خادمة، لكنها حرة، وأريدها أمًا لابن آخر أنتظره.

- هل تضمن هذه؟

- أمها ولود، وجدتها كذلك، وأنت تعرف أن «منصورة» قد حملت بعد سنوات طويلة من الزواج، وكان في حملها مشقة.

ثم أبعد ناظريه عن «محفوظ»، وقال: أعرف أن الناس قد تتعجب، وأهلنا قد يلومونني، لكن أنا لا يهمني من الناس سوى أنت.

- أنا أعيش بعيدًا، أما مَن يسمع همزات الناس ولمزاتهم وملامتهم فهو أنت.

- ليس مهمًا، أنت الأقرب في كل شيء، وعلمك الشرعي يفصل أيضًا فيما عرضته عليك.

- الشرع لا يمانع، فالناس سواسية كأسنان المشط، والحلال لا يُقارن بالحرام.

تهلل وجه «غنوم» وقال: لتكن شاهدًا على العقد.

(37)

لم ينشغل «غنوم الصابر» بما يتهامس به الناس خلف أبواب بيوتهم، وغرق في العسل مع زوجته حتى أذنيه. تولى العطار مهمة تقريب المسافة بين شيخ وقور يذبل وفتاة تتفجر فتنة وميوعة. صالح بها غرفة نومه القديمة بعد أن غيّر أثاثها، وطلاها بلون مختلف، وعرف على السرير الفرق بينها وبين الراحلة.

صارت «بديعة» سيدة القصر، عاملت الخدم والعبيد بلطف، فازدادوا إقبالًا على خدمة سيدهم. أصبحت سيدتهم حين ظهرت عليها أعراض الحمل. حرص «غنوم» على راحتها، وأمر «مسعدة» أن تكون قريبة منها، وقال لها: قدّر الله أن تواصلي واجبك.

دمعت عيناها، وقالت: أدعو الله ليل نهار أن يعيد الغائب، وأربي الاثنين على أفضل ما يكون.

كرّت الشهور سريعًا، وولدت «بديعة» في يوم مغبر برياح الخماسين ولدًا، فأسماه أبوه «ربيع»، تيمنًا بهذا الفصل من السنة. حين بلغ الرضيع أربعين يومًا، جاء المُزيّن ليطاهره، لكن الطهور مر بلا طبل وزمر وغناء، كما جرى الزواج من أمه، حزنًا على الغائب. كل ما تم هو ذبح أربعة عجول ليأكل الناس، وانتظمت حضرة اقتصرت على الإنشاد بلا مزمار.

في هذه الليلة أكل «الصابر» أكثر مما اعتاد، وسف وبلع ومضغ مما أعطاه إياه العطار، واختلى بـ «بديعة» مشتاقًا إليها بعد انتهاء فترة النفاث. كان ليلتها قويًا إلى درجة تعجبت منها هي، لكن تلذذها غلب خوفها عليه. عاد شابًا نهمًا، وغطى زئيره على غنجها، وهو يعاودها من جديد كلما فرغ، حتى صاحت الديوك مؤذنة بطلوع الفجر.

عند الظهيرة، مدت يدها في حنان وامتنان لتوقظه، فوجدته ميتًا.

دُفن «غنوم» كما أوصى، في قبر إلى جوار الزاوية. رفعوا شاهده، حتى صار ضريحًا، وقال الناس: كان طيبًا، وهو جدير بالمكان المبارك. وقالت «الصوابر»: جدنا الكبير ينحدر من صلب المجاذيب الطيبين.

أما القوّال فأنشد على ربابته الحزينة:

عمود البيت اتكسر

نحْت حِيطانه العَلالي

والقلب لمّا اتعصر

راحت ساعاته الخَوالي

ظِلالُ الجُنينَة

(1)

هبط «عويس» وزوجته من الجبل سريعًا. قبيل شاطئ النهر أفرغ صندوق النقود في قِربة الماء التي لم تعد فيها قطرة واحدة. أبقى قليلًا من القطع ووضعها في جيب جلبابه، لتعينه على الرحلة التي لا يعرف إلى أين تنتهي به. فتح صندوق الحُلي، ووضع محتوياته في ثوب الحرير، بعد أن غسلته «روحية» جيدًا، فذهب عنه الكثير من آثار الدم. خاف أن يبرق الذهب تحت الحرير، فخلع شاله، ولفه مرة أخرى، حتى لم يعد يظهر منه شيء.

برقت في عيونهم دنيا جديدة، وتناسى مخاوفه في طغيان حضور المال، وآمن بأن حياة رغدة تنتظره لا بد أن يعيشها بعيدًا عن الذين يسعون خلفه. لم يرَ شيئًا وهو يسرع إلى الشاطئ، تسبقه زوجته، سوى أحلامه، وغاصت في الماء المنساب عن يساره وجوه مطارديه، حتى لم يعد يراهم.

لاح قارب صيد يسير عكس التيار يغالبه. نادى «عويس» بصوت زاعق، جعل زوجته تجفل، وتقول له: لا تنسَ أنك رجل في خطر. التفت الصياد من عمق الماء، فأوقف التجديف. لم يعبأ «عويس» بتحذير «روحية»، فعاد إلى الصراخ، محددًا ما يريد هذه المرة: عدينا يا معداوي ولك ما تريد.

أنصت الصيّاد إليهما، وجاءهما صوته: ألملم شباكي، ولا وقت عندي.

دفع «عويس» يده في جيبه، وأخرج بارات في كفه، وفردها في عين الشمس، فلمعت، وقال: أي أجر تريده أنا جاهز.

جذّف الصياد إليهما، حتى لثم القارب الشاطئ، وقال: اركبا سريعًا قبل أن يحدفني الماء.

في سرعة خاطفة ساعد «روحية» على القفز داخل القارب وهي تحضن الرضيع، ورمى جسده وراءها، فصارا في قلبه، وعاد الصياد إلى التجديف، وهو يسألهما: هل أنتما غريبان؟

صمت «عويس»، برهة، وأجابه: نحن ذاهبان إلى أهلنا في الشاطئ الآخر.

فلمّا صار القارب في وسط النهر، نظر «عويس» إلى الصياد، وسأله: هل تعرف مكان رسو مركب شراعي يأخذنا إلى بندر قريب؟

نظر إليه الصيّاد في ارتياب، وسأله: أي مكان تريد؟

تنحنح «عويس»، وقال: كنا سنشتري حمارًا نركبه إليه، لكني فكرت في أن نركب الماء، فهذا أفضل وأسرع.

قال الصياد: تتوقف المراكب الشراعية المحملة بالبضائع للراحة في مرسى ليس بعيدًا عن هنا، لكن الوصول إليه، سيكلفك الكثير.

وضع «عويس» يده على جيبه، وقال له: لك ما تريده، لكننا مساكين على باب الله.

أوصلهما القارب إلى مرسى حجري على الشاطئ الشرقي للنيل، منطرح في انتظار المسافرين، يعلوه كوخ طيني خفيض، إلى جانبه

تعريشة ترمي ظلها على الأرض، وعشة من جريد وبوص، تتصاعد منها أبخرة طعام، تدفع النسائم روائحه إلى منتصف النهر، فذكرت «عويس» وزوجته بالجوع الذي صبرا عليه طويلًا.

قال الصيّاد، وهو يتلمظ ويضع يده على بطنه: هنا طعام طيب يعد لأصحاب المراكب الشراعية. يأكلون، ويدخنون الجوز، ويتزودون بما ينقصهم من بضائع.

أيقن «عويس» أن الصيّاد يعرف المكان جيدًا، ولذا سيكون وجوده مفيدًا لرجل يحمل كل هذه الثروة، ويقدم على أناس لا يعرفهم، فنظر إليه وقال له: أنت معزوم على الغداء.

رفع الصيّاد رأسه غير مصدق، وسأل: من أين للمسكين المال الذي يتصدق به على جائع؟

جفل «عويس»، وقال سريعًا: يأكل كل منا ثلث بطن بدلًا من السقوط جوعًا.

وضع الصيّاد يده على كتف «عويس»، وقال: سنأكل جميعًا على سبيل الصدقة.

لم يكن في العشة سوى رجل نحيل وامرأة بدينة، يقفان حول ثلاثة أوانٍ نحاسية تستقر فوق كوانين تشتعل فيها نار الحطب. لم يريا الصيّاد حين رسا، وربط قاربه. صعد وخلفه «عويس» و«روحية»، وضرب كفًّا بكف، فانتبه الرجل، فلمّا رآه تهلل وجهه، ورحب به.

طلبت «روحية» أي شيء للرضيع، فقالت لها المرأة البدينة:

أرضعيه.

وضعت يدها على ثديها وقالت: نشف، من سوء حظ رضيعي.

تعجبت المرأة، لكنها قالت: في الكوخ عنزة ولود.

أعطت «عويس» كوبًا من نحاس، فدخل إلى الكوخ ليجد غنمًا وخرافًا وماعزًا وتيوسًا كثيرة. تسلل من بينها حتى وصل إلى عنزة يقعى صغارها تحتها يمصون ضرعها. أبعد واحدًا منها، وحلب حتى نصف الكوب وعاد.

شرب الرضيع ما أمكنه، ثم أكل ثلاثتهم، ودفع «عويس» نصف ثمن الطعام إكرامًا للصيّاد، الذي أوصى به خيرًا، فقال الرجل النحيل: المركب القادم سيذهب إلى «المنيا».

نظر «عويس» إلى زوجته، التي همست في أذنه: كلما قصرت مسافة السفر كان أفضل لنا.

عاد إلى الرجل النحيل، وقال: على بركة الله.

وجاء المركب، ونزل منه سبعة رجال، تناولوا طعامًا دسمًا، ودخنوا، واشتروا ما يحتاجونه من سمن وزيت وملح وخضراوات جافة وتمر، حتى مالت الشمس إلى الغروب، فقاموا إلى مركبهم الراسي وعلى متنه أشولة من الدوم والكركديه والعراديب والشطة والتوابل وحلفا البر.

ركب «عويس» على أنه رجل فقير ذاهب بابنه الذي أصابه مرض عُضال إلى شيخ جليل في «المنيا» يقال إن الله قد منحه قدرة على المداواة. حين سمع منه المراكبية ما يريد، سأله كبيرهم: هل هو

الشيخ أحمد الفولي؟

وكان أول مرة يسمع اسمه، لكنه تصنع معرفته، فقال: نعم هو.

تدخل آخر وهو يكاد يغمض عينيه: مدد مدد يا أبا سليمان.

وانطلق الرجال في الغناء، يصدح أحدهم:

«المنيا زينوها للفولي أبو اسلمان»

فيرد البقية: «للفولي أبو اسلمان»

(2)

تحلو الحكايات فوق مركب يمضي على مهل في مياه النيل، لا سيما مع أول المساء. تُشعل النار في آنية مطروحة من الفخار، وتدس فيها كنكات يغلي فيها الينسون أو الكركديه أو الحلبة أو الزنجبيل أو القرفة، التي حمل الرجال كيسًا من كل منها لزاد الطريق ذهابًا وإيابًا. يستعذب الرجال الحديث بين رشفات متتابعة يسحبونها منها، وهم يتابعون قرى ونجوعًا غارقة في الظلام، عن اليسار وعن اليمين، ولا يأتيهم سوى نقيق الضفادع، وطقطقة الجنادب، ونباح الكلاب، وصوت انجراح الماء بزعانف سمك يتقافز بين حين وآخر.

تتوزع حكايات المسافرين بين ما يجري حولهم، وما يعرفونه من الماضي القريب والبعيد، دون أن تخلو من نميمة، تعطي ما يقال شغفًا تُشنف به الآذان. ويا حبذا لو كانت النميمة تدور عن الوجهاء، إذ يشعر كثير من الذين يعيشون في الهامش بأن أي تجريح للكبار يشفي الغليل، ويعوضهم عن الإهانات اللفظية التي يوجهها إليهم

هؤلاء، أو المزمنة التي يصنعها الفقر والضعة.

غمس أحدهم إصبعه في عمق الظلام متسائلًا: أليست هذه هي الصابرية؟

رد آخر: يبدو أنك قد نسيت الطريق، فقد عبرناها قبل المرسى بكثير.

هز رأسه، وقال: عندك حق، هي قبل المرسى، زرتها ذات يوم ونعمت بكرم وجيهها الأجلّ «السيد غنوم الصابر».

تدخل الثالث: رجل كريم، أعانه الله على حزنه الكبير.

عاد الثاني: رأيته هاشًا باشًا، لا أثر لحزن في محياه.

سأل الأول: ألم تسمعوا عما جرى له؟

أجاب الثاني بسؤال أيضًا: هل تقصد ضياع ابنه الوحيد؟

قال الثالث: هذه حكاية دارت في القرى، حتى وصلتنا. يقال إن أحد كبار «الجوابر» قد خطفه إلى الجبل، أمسكوا بخاطفه وخصوه انتقامًا، ومات حبيسًا، لكنهم لم يعثروا على الولد.

ضمت «روحية» الرضيع إلى صدرها، ونظرت في ارتياب إلى «عويس»، الذي أسعفته قريحته، فقال: الضنى غالي، خصوصًا إن كان وحيدًا.

تدخل الرابع: يُقال إن خاطفه قد سرق مالًا كثيرًا وذهبًا من قصر «الصابر»، وهذا أيضًا ضاع مع الولد الغائب.

قال الخامس: المال يُعوّض، لكن الأسى كله في ابن ضاع بعد أن

انتظر أبوه سنوات طويلة حتى رآه.

أدارت «روحية» ظهرها لهم، وهي تجلس على طرف المركب، وألقمت الرضيع ثديها الضامر الجاف، وسحبت غطاءها على وجهه، وهي تغالب رجفة سرت في أوصالها، واشتعلت في رأسها الأسئلة، وفي خواطرها مشاعر الخوف، بينما بقي «عويس» متماسكًا، ليسعفه لسانه: خلّفت ولدي بعد زمن من الانتظار، ولا أتخيل أن أفقده في أي يوم.

قال السادس: ربنا يخلي ويبارك.

سعل السابع، فخرج دعاؤه مجروحًا: اللهم اجعل يومي قبل أيام أولادي، ولا ثُرني فيهم مكروهًا.

ورد الرجال بمَن فيهم «عويس»: اللهم آمين يا رب العالمين.

على الفور، أدار «عويس» دفة الحديث بعيدًا، فسأل: سمعت أن «المنيا» بلد حلو.

رد الأول، وكان كبير المراكبية: كل البلاد حلوة إن وجدنا فيها رزقًا حلالًا.

مصمص الثاني شفتيه متسائلًا: أي رزق في بلد يمص العثمانلية والمماليك دمه ليل نهار؟

وتدخل الثالث: قامت فتنة بينهم.

قهقه كبير المراكبية، وسأله: أتقصد التجريدة الصغيرة التي أدبت المملوكي شعبان البيرقدار؟

- نعم.

- خلعوه من منصبه، وعينوا مملوكيًا آخر مكانه، وعادت المياه إلى مجاريها.

قال «عويس»: هي عصابة واحدة تنهب خيرات بلادنا.

والتفت الرابع إلى «عويس»، وقال: كُن حذرًا من عساكر المماليك وأنت في شوارع «المنيا»، فبعضهم يستولون على ما مع المارة، وقد يجرحونهم أو يقتلونهم إن قاوموا.

انقبض قلب «عويس»، لكنه تصنع اللا مبالاة، وأطلق ضحكة رنت على صفحة المياه، وقال: «إيش ياخد الريح من البلاط».

(3)

لاحت «المنيا» بعد أيام لم يستطع فيها «عويس» أن ينام ساعة متصلة خوفًا على ما معه. خصص له المراكبية مكانًا جانبيًا في قعر المركب، وأمدوه بفرشة من صوف الغنم ولحاف خفيف، وقالوا له منذ اللحظة الأولى: أنت أخونا، وزوجتك أختنا.

رغم هذا ظل يوزع النوم بينه وبين «روحية»، التي كانت مجبرة على الاستيقاظ طويلًا لهدهدة الطفل، ووضع طعام في فمه، لم يزد على عسل أسود ودقيق مخفف بالماء. ولفت هذا انتباه أحد المراكبية، فسألها: لماذا لا ترضعيه؟

لم تنطق، ووارت وجهها خلف الطرحة السوداء خجلًا، فتدخل «عويس»: جف لبنها.

وليمعن في سبك أسباب سفره، واصل: حكوا لنا أن شريرًا دفع لمَن أضرها بسحر أسود، جفف اللبن، ونتمنى أن يتمكن الشيخ من فكه.

رد الرجل على الفور: الشيخ سره باتع، فلا تخف.

حين رسا المركب أفسح الرجال لـ «روحية» وطفلها طريقًا، فنزلت وخلفها «عويس»، الذي ما إن صارت قدماه تدبان في الشارع الذي يعلو النيل، حتى قال لزوجته: لنذهب إلى الشيخ «الفولي»، ليبارك الطفل. أشعر بأن بركته كانت تحمينا في سفرنا هذا، وكم مرة سمعت صوتًا يناديني من عمق الماء، وقلبي يحدثني أنه صوته.

كانت زاوية «الفولي» تطل على النهر، قريبة من المرسى، فوصلا إليها سريعًا، ليجداه جالسًا بين مريديه. وقفت «روحية» على الباب، بينما راح «عويس» ينقل قدميه على مهل، متهيبًا هيئة الشيخ الجليل، الذي كان يقرأ من قرطاس يفرده بين يديه، فرفع رأسه، وقال له: أهلًا بالفطارَد.

جرى نحوه، وقال في استعطاف: أطلب الأمان في جوارك يا مولانا.

ابتسم الشيخ، وقال: لا تجلب لك الأمان سوى التوبة وزكاة وصدقات لا مَن فيها ولا أذى.

وتاه الشيخ برهة، وعاد يقول: أعطِ الفقراء قليلًا مما وجدته، وبالكثير ازرع واحصد، وسيأتيك الأمان إلى حين.

وتململ «عويس» في وقفته، وهو يشعر بأن الشيخ يعرف مَن هو، وما معه، وقبل أن ينطق طلب الشيخ ممن حوله أن يبتعدوا عنه، ثم

همس في أذن «عويس»: أعرف أنني إن أخبرتك مَن يكون صاحب المال والولد، فلن تعود إليه، فهوى نفسك يغلب أي سؤال يطرحه عليك ضميرك، الذي مات نصفه، حين سفكت الدماء.

مد الشيخ بصره إلى باب الزاوية، حيث تقف «روحية» وهي تسحب الطرحة على وجهها والطفل، وقال: هاتي الصغير يا بنتي.

تقدمت إليه مترددة، فأخذه منها، ووضع كفه على رأس الرضيع، وتمتم بما لم يسمعه أحد، ثم سحب أصابعه إلى التعويذة المعلقة في رقبته وحركها قليلًا، ثم قال: حجاب من رجل صالح يجعل البركة تحل في «سالم» دائمًا.

نظر إليه «عويس»، وخانه لسانه من المباغتة، فسأل: «سالم»؟!

ابتسم الشيخ وقال: اسمه محفور على الجلد، وليستمر هكذا كما سمّاه أهله.

مدّ «الفولي» يده، فجثا «عويس» على ركبتيه، ودفع إليه يده طائعًا، فقال الشيخ: عاهدني على التوبة والعطاء.

قال على الفور: أعاهدك يا مولانا، ولتدعو لي بالأمان والستر.

قال الشيخ: أمانك مرهون بالتزامك التوبة والصدقة.

(4)

اكترى «عويس» بيتًا خفيضًا ضيقًا في مكان ليس بعيدًا عن زاوية «الفولي». نزل إلى السوق فاشترى ما يحتاجه وزوجته من أوانٍ وفرش وطعام وشراب. واظب على الصلوات الخمس خلف

الشيخ في البداية، لكنه لاحظ أن كثيرين من أهل الصعيد الجواني يقصدونه لطلب العلم والمباركة، فخفف من التردد على الزاوية.

ربطته صداقة برجل من مريدي الشيخ اسمه «عبيد»، كان مزارعًا أجيرًا، يأتي كل يوم إلى «المنيا» من قرية «الحجاني» القريبة، قبيل صلاة العصر، ويمكث فيها إلى بعد صلاة العشاء ثم يعود. في كثير من المرات كان «عويس» يصطحبه إلى بيته، لتناول شيء من طعام، يعينه في طريق العودة.

أراد «عبيد» أن يرد له الجميل، فدعاه ليزور بيته في «الحجاني» فلبى دعوته، وذبح له يومها الديك الوحيد الذي يملكه، وقدمه على خوان بسيط، يناسب بيتًا مبنيًا من الطوف، وسطحه من الجريد. جلسا في صالة ضيقة ينفتح بابها على جسر ترابي، تطل من خلفه الزراعات، وتلوح هناك عن بعد حديقة مُسوَّرة. نظر إليها «عبيد» وقال: أكدُّ بفأسي في هذه الجنينة من البكور حتى بعد الظهر.

ابتسم «عويس»، وقال: أعانك الله.

هز رأسه، وقال: شيخنا لا يقبل حوله مريدًا لا عمل له. مَن رأيتهم عنده مزارعين أجراء ونجارين وحدادين ومنجدين وصيادين وباعة في السوق.

كان «عويس» لا يعمل حتى هذه اللحظة، وينفق من المال الذي معه، دون أن ينسى قولًا تلاحقه به زوجته: «خد من التل يختل»، فقال لـ «عبيد»: الفِلاحة أكثر المهن في بلدنا.

اغتبط لكلامه، وقال: إن كنت تجيدها فلك مكان معنا.

تذكر ثروته الطائلة، وقال: هل هنا مَن يريد بيع أرضه؟

رد «عبيد»، وهو يدس نسيرة من لحم الديك في فمه وقال: لا أرض هنا سوى للوجيه التركي «مراد الأناضولي».

أشار «عويس» بيده، وسأل: كل هذا؟

أجابه: الجنينة مائة فدان وما حولها مائة أخرى، ونحن أجراء عنده، ولا نعرف مصيرنا بعد أن يرحل.

- يرحل؟!

- يريد بيعها، لكنه لم يجد مَن يشتري إلى الآن.

- كم يريد فيها؟

ضحك «عبيد»، وقال: وما لك أنت وأنا بسعرها؟

ابتسم «عويس»، وقال: ربما وجدت مَن يشتريها.

انتبه «عبيد» وقال: يا ليت مَن يفعلها يكون من طرفك، لأضمن ما أملأ به بطن أولادي.

كان لديه ثلاثة، ولدان وبنت، ينتظرون ما يتبقى من الضيفين ليأكلوه. نظر إليهم «عويس»، وقال: الكريم لا يُضام.

(5)

فوجئ «عبيد» بعد يومين بصديقه الجديد «عويس» يقول له: أريد مقابلة الوجيه.

ضحك، وقال: عملك في جنينته لا يتطلب مقابلته.

- بل أريده فيما هو أكبر.

- ليس هناك ما هو أكبر عند أمثالنا من الكد والذِّكر.

ابتسم «عويس»، وقال: وجدت مَن يشتري الجنينة.

نظر إليه «عبيد» طويلًا، وقال: لم أرَه في حياتي سوى مرة واحدة، لكن يمكنني أن أحدث الخولي في هذا، المهم أن يكون ما تقوله صادقًا، وإلا طردوني.

رد في ثقة: الشاري موجود، أعرفه كما أعرفك. فتحت معه الموضوع، وينتظر تحديد موعد.

وضُرب موعد، وانتظر «عبيد» عند باب الحديقة مع الخولي، عند ضحى اليوم المحدد، يرمي بصره إلى الجسر، ليرى المشتري العري الآتي، لكن لم يظهر هناك سوى «عويس». بدا في هيئة لم يعهده «عبيد» عليها. كان يركب بغلة عفية، ويرتدي جلبابًا من الصوف الغالي، يطل بين ضفتي عباءة سوداء من الجوخ، ويحط رأسه تحت عمامة بيضاء، وفي يده سبحة من الكهرمان.

ما إن وصل «عويس» إليهما، حتى سأله «عبيد»: أين المشترِي؟

هز رأسه، وقال: فوضني عنه.

(6)

لم يكن بوسع «عبيد» أن يحضر البيع. فمَن هو حتى يجالس الأكابر؟ سلم صديقه للخولي وانصرف محتارًا فيما رأى. تفاوض «عويس» على أفضل ما يكون، مظهرًا مهارته كسمسار صغير كان

يلتقط رزقه في سوق البهائم. أغرى «الأناضولي» بأنه سيدفع الثمن نقودًا وذهبًا. كُتبت العقود، ووقع «الأناضولي» عليها، وختم «عويس» بخاتم كان قد أعده عند حدّاد في «المنيا»، منقوش عليه اسمه الجديد الذي اختاره، كي يسهم في منحه أمانًا يفتقده، ويتعشم أن يجده بين أسوار الجنينة.

سمى نفسه «عمر بن عدنان الأشرف»، وقال للأناضولي: نسبي ينتهي إلى آل البيت.

ثم نهض، و«الأناضولي» يطالع جسده النحيل، وقال: عند مولانا «الفولي»، أسلمك المال، وتعطيني العقود، ويكون هو شاهدًا على العقد، ومعه مَن يختار من مريديه، لتحل البركة في البيع.

هز «الأناضولي» رأسه، وقال: اخترت مَن لا ثُرد له كلمة في كل الزمام.

فلما انتهى البائع والشاري إلى «الفولى»، قال لـ «عويس»: شهادتي مشروطة بما نصحتك به.

ابتسم، وقال: ما تأمر به فوق رأسي.

صمت برهة وقال: في قلبك ونفسك، وأمام عينيك لا يفارقهما. وبينما راح «عويس» يهز رأسه، واصل الشيخ: تعطي الكادح في أرضك أجره قبل أن يجف عرقه، ولا تطرد مَن يلجأ إليك، وتحسب كل موسم ما عليك من زكاة، ولا تكف عن التصدق، ولا تتجهم في وجه أجير أو كسير، ولك من الخدم مَن تشاء، لكن لا يكون لك عبيد، فالله خلق الناس أحرارًا.

رد «عويس» دون تردد: هذا عقد أغلى عندي من عقود البيع والشراء.

قال الشيخ: بل عقد بينك وبين مَن خلقك ووهبك ما أنت فيه.

أغمض «عويس» عينيه، وقال: وكيلي الله ألا أخلف عهدًا قطعته على نفسي أمامك يا مولانا.

ملأ الشيخ عينيه من وجه «عويس»، وأشار إلى «عبيد» الذي كان يجلس بعيدًا أن يقترب، فهرول إليه. لم يقف هذه المرة إلى جوار «عويس» كتفًا بكتف، كما كان يحدث في الماضي، فالآن صار مجرد أجير عنده. لكن الشيخ قال، وهو يمسك يد «عبيد»: هذا خولي الجنينة، إنه العارف الأمين.

(7)

صار «عويس» الوجيه الجديد. أبلغ «عبيد» باسمه الذي اخترعه، وقال له: هو اسمي الحقيقي، أما «عويس» فقد اشتهرت به لأني كنت مريدًا لمجذوب عظيم في بلاد بعيدة كان هذا اسمه، وكنت ألازمه، فلما مات، آل الاسم إليّ على ألسنة الناس، ومَن يعتاد عليه الخلائق هو الذي يمشي بينهم.

كان بالحديقة بيت أشبه بقصر بسيط، انتقلت إليه «روحيه» و«سالم»، غير مصدقة عينيها، وهي تطالع الجدران الملساء البيضاء، والسجاجيد والأكلمة الملونة، والتحف والتماثيل التي تتوزع على أركان البهو، وفوقها القناديل الزاهية، والمخادع اللينة في غرف النوم، وفتحات التهوية التي تندفع منها النسائم، وأشعة الشمس

الذهبية.

لم تمضِ سوى ثلاثة أيام حتى كان «الفولي» ورجاله في حضرة أمام القصر. ذبح «عويس» خمسة عجول سمينة، وزع أغلب لحمها على أهل «الحجاني». طوح فيها المريدون والخفراء والمزارعون رؤوسهم ذاكرين، متطلعين إلى السماء، التي ساقت إليهم وجيهًا جديدًا، ينظر إليهم في عطف وامتنان.

(8)

تركب الأيام ظهور الخيل المسومة، وتجري بها ما وسعها، لتمضي هينة لينة، فإن تعبت تباطأت لتصبح الساعات أثقل من جبال تجثم على الأبدان والنفوس المهيضة التي يأكلها الوقت، فتغور الأفراح وينهمر الأسى. لكن الواثق في فضل الله وعدله لا يضنيه تقلب الزمن، بل ينظر إلى هذا، ثم ينادي الأمل.

تقدمت السن بـ«عويس»، ولم تفلح في وقف تقدمها الأرض التي جادت عليه بهبات الحصاد المتتابع، فاكهة وقمح وفول وخضراوات، يأتي التجار لشرائها، وتحملها الجمال إلى سوق «المنيا». من حصيلتها توزع الزكاة والصدقات، فيأكل الجوعى، وينامون قريري العيون مطمئنين.

بنى «عويس» زاوية في جانب الحديقة، وجاء لابنه المستعار بشيخ من «المنيا»، اختاره «الفولي» بنفسه، ليحفِّظ «سالم» القرآن، حتى صار يتلوه عن ظهر قلب. حفظ كذلك الكثير من الأحاديث النبوية، واختار معلمه له ما يقرأه من كتب السابقين في الفقه والسير والشعر.

طلب «عويس» من «عبيد» أن يصطحب معه «سالم» ليراه وهو يشرف على عمل الأنفار، وجعله يجلس مرات إلى «تواضروس» ماسك دفاتر الحسابات، كي يعرف كيف تسير أملاكه، وأملاه جدول الضرب فحفظه، وأظهر نجابة في معرفة ما له وما عليه.

تخلى الأب المستعار، بل الأب الحقيقي الذي ربى، عن كثير من مشاغله، وأعطى الصبي ثقة في أن يحل مكانه في أمور عديدة، فأمسى واثقًا من قدرته على تسييرها، لا سيما أن السمسار القديم نقل إليه خبرته أيضًا في التفاوض مع التجار.

تعلمت «روحية» كيف تصير سيدة بين خادماتها، اللاتي ورثتهن عن سيدة القصر السابقة، وأخريات اختارهن «عبيد» من نسوة القرية. أما العبيد فقد حررهم «عويس»، وصاروا أجراء في أرضه، وخفراء يحرسون الأجران في مواسم الحصاد، والفاكهة حين تنضج.

نسي الهارب مَن يطاردونه، فأين لهؤلاء بإدراك أن مَن يسعون خلفه قد صار وجيهًا، يصعب عليهم الوصول إليه، فإن وصلوا فلن يعرفوه في لباسه الجديد، ولن يدركوا آثار النعمة التي كست ملامحه، واسمه الجديد، الذي صار الناس حوله ينادونه به، وكذلك التجار الذين يأتون إليه، وحتى مريدو «الفولي» تحدثوا في البلاد عن رجل من نسل النبي يتدفق الخير من بين أصابعه، ولا يُظلم عنده أحد.

(9)

مات «الفولي» آخذًا السر معه إلى قبره، الذي صار ضريحًا يقصده الناس من كل مكان.

كان صيفًا حارًا، وأشجار الحديقة تصطاد النسائم الشاردة، وتهديها إلى نوافذ القصر البسيط، فتضرب خفيفًا رأس «عويس» وهو جالس على أريكة، يرسل ناظريه إلى ضوء القمر، الذي يطل من بين فروع الشجر وجريد النخيل.

كانت «روحية» تجلس قبالته، ترمي بصرها إليه، وقلبها يدق من فرط إحساسها بأن الغيب يحمل لها خبرًا غير سار. صدق حدسها في هذه الليلة، فبعد أن غاب القمر، التفت إليها «عويس»، وقال:

- كانت رحلة، وكانت تجربة.

طالعته بعينين غارقتين في الأسى، وقالت: نعيش أفضل مما دار به الخيال.

أغمض عينيه، وسألها: أيغفر الله لقاتل حتى لو زرع وحصد فأكل الناس والبهائم؟

نهضت من مكانها، وجلست إلى جانبه، وأخذت رأسه في صدرها، وقالت: قتلت خطأ، وأنت مجبر.

ابتسم وقال: دائمًا، هناك حلول أخف من قتل الناس للهروب من تجبرهم.

اغرورقت عيناها بدموع، وكأنهما تتهيآن لبكاء حار غزير، وقالت: «ساعة القدر يعمى البصر».

سكت قليلًا، ثم قال: تجري أمام بصري الآن كل خطوات قطعناها سويًا.

ورفع كفيه إلى السماء، حيث الظلام المرصع بنجوم بعيدة، ودعا في تبتل لابنه «سالم»، وقال لها: أريد الحجاب الذي كان مُعلقًا في رقبته.

نهضت، وأتت به، وأعطته إياه. قبض عليه، ثم قال: أخبرني مولانا الفولي أن «سالم» محاط بالبركة والسكينة.

قالت، وهي تعيد رأسه إلى صدرها: رأينا السعد منذ أن رأينا وجهه الجميل يضحك بين الصخر والرمل.

ابتسم، وسألها: هل نذهب عن الدنيا، دون إخباره بمَن هو؟

قالت في تأثر: الأب الذي ربّى وعلّم، وأنا لم أبخل عليه بكل ما على الأم من واجب. حتى صدري الجاف كنت أضمه إليه، وأتركه يمصه.

مصمص شفتيه، مستعيدًا كل شيء، لكنه قال: أحس الآن أنه سيعرف ذات يوم مَن هو، حتى لو ذهبنا قابضين على سرنا الكبير.

راح يحكي، كما لم يفعل من قبل. ساعتان يسرد حياته من البداية إلى اللحظة التي هو فيها، ثم تمتم بكلمات لم تسمعها، وسعل وشهق، بينما صدره يفور بما يصل إلى قلبها، وصعدت روحه إلى بارئها، فاحتضنته بشدة، وهي تقول: استرد الله وديعته.

(10)

خرجت «الحجاني» وراء نعش «عويس» في جنازة مهيبة، جاء إليها رجال من القرى المجاورة. ودفنوه، كما أوصى، في قبر على طرف الحديقة. تزاحم في عزائه الزُّرّاع والتُّجّار ومريدو الفولي، وكان على رأسهم سنجق الإقليم «صالح حاجي». قُرئ القرآن ثلاث

ليال. انعقدت حضرة ذِكر بلا دفوف ولا زمر. وتطلع الناس جميعًا إلى «سالم» الذي خطت الرجولة معالمها في وجهه بشارب نبت عفيًا، ولحية مشذبة، وعينين نافذتين، تطلان من ملامح صارمة، وهو يتلقى عزاء والده الذي ربّى، فرأوا فيه خير خلف للراحل الطيب.

في اليوم التالي لانفضاض العزاء، أرسل «حاجي» في طلب «سالم»، فذهب إليه راكبًا فرسه، وخلفه ثلاثة من خفره. انفرد به فور وصوله، وقال: عرضنا على المرحوم أرض التزام في «العجاجير» لكنه كان دائمًا يكتفي بما لديه.

كان «سالم» قد سمع هذا مرارًا من «عويس»، فقال له: أعرف.

تنحنح السنجق وقال: كان مكتفيًا بما عنده، ولم أضغط عليه؛ لأني كنت أقدره وأحبه.

- رحمة الله عليه، كان زاهدًا وأورثني حاله.

- زيادة الخير لا تضر الزهد، إن كان صاحبه لا يطمع بما في يد غيره.

أدرك «سالم» أن الرفض قد يجلب له متاعب هو في غنى عنها، لا سيما أنه لا يعرف إن كان «حاجي» قد مد حبال الحب والتقدير إليه، أم ذهبت مع غياب المرحوم. تفكر قليلًا، وقال: أرض عفية، ولا غبار عليها.

قال «حاجي»: صارت أعفى بعد أن أمدها الفيضان الأخير بطمي غني.

كانت «العجاجير» تحد الحديقة من اليسار، مطروحة من شاطئ

النيل حتى جسر عالٍ في الغرب، يطل على التزام «مرتضى الماحي»، الذي يمتد شمالًا إلى «سمالوط». استحضر «سالم» الأرض في رأسه، وكان يعرفها جيدًا، فقال: أشكرك على ثقتك الغالية.

تنحنح السنجق مرة أخرى، وقال: هذا قرار مبدئي، لكن لا بد أن نكتب إلى الوالي، وليرافق رسالتي حلوانك السخي.

رد في امتنان: على بركة الله.

ونال «حاجي» حلوانه أيضًا، ولم يمر سوى شهرين، حتى جاءت الموافقة.

كان «عبيد» قد تقدمت به السن، فاختار لـ «العجاجير» خوليًا آخر اسمه «عباس الرزين»، كانت لديه خبرة بالعمل سنوات في أرض «الماحي»، حتى استغنى عنه، حين راجعه ذات صبح في قرار خفض ما على الفلاحين دفعه، بعد أن أضر الفيضان محاصيلهم.

كلّف «سالم» فلاحي «الحجاني» بزراعة الأرض. وزعها عليهم في حضور «المسّاح» وشيخ الخفر والشاهد، بناءً على قائمة أملاها «عبيد» الذي أعطى كل فلاح على قدر جهده، وعدد أولاده، وسمعته في رعاية الزرع.

ولم يجد المزارعون من «سالم» سوى حسن المعاملة. أدركوا أنه يسير على درب الراحل، وأقبلوا على الأرض يفلحونها في اجتهاد، فزادت ما تُغله، ومعه زادت قيمة الزكاة والصدقات.

في موسم الحصاد التالي، اختلت «روحية» بابنها، وقالت له: أريد أن أرى أحفادي قبل الرحيل.

هز رأسه، وقال: كأن في رأسكِ عروسًا لي.

ابتسمت، وسألته: ما رأيك في ابنة «الماحي»؟ رأيتها مرتين، جميلة بلا حد، تقول للقمر انزل لأجلس مكانك.

صمت برهة، وأجاب: رائحة ظلم أبيها تفوح في الزمام، ويقال إن أمها سيدة متعجرفة.

لم تجد ما ترد به، إذ كانت تعرف جيدًا ما قاله، لكنها واصلت: لا ذنب للبنت في هذا.

حك لحيته الخفيفة بأطراف أصابعه، وقال: لا أضمن أن تكون الزوجة الصالحة.

عاجلته بالسؤال: هل وضعت عينيك على فتاة؟

- نعم، وهي قريبة منا، وأبوها أخلص للمرحوم، ويمد إخلاصه لي، وابنه «سعيد» هو صديقي الوحيد، وأدخره لأيامي القادمة.

- تقصد..؟

لم يدعها تكمل، وسألها: ما رأيك في «مباهج» بنت الخولي «عبيد»؟

كانت تعرفها جيدًا. فتاة ورثت من أمها الحسن، ومن أبيها النزاهة، لكنها قالت: لا تنسَ أنك الوجيه.

قهقه، وقال: علمني أبي ألا أتعالى على خلق الله.

زُفت «مباهج» إلى «سالم» في ليلة صيفية مقمرة، ذُبحت فيها ثلاثة عجول بقر، وعشرون خروفًا وتيسًا، وامتدت الأسمطة في

ساحة القصر، وطالت بين صفوف الشجر، وأُطعم أهل «الحجاني» جميعًا، وبطون ممتلئة رقص الناس وغنوا على الرباب والأرغول مع فرقة أتى بها «عبيد» من «بني مزار».

في الليلة نفسها، جلس الناس صفوفًا، ليستمعوا إلى غناء الشاعر، وهو ينشد من سيرة بني هلال، فتراءى «سالم» أمام أبصارهم واحدًا من الفرسان القدامى. في اليوم التالي جاء مريدو «الفولي» فانتظمت الحضرة من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر.

كان المنشد رجلًا ممشوق القوام، يطل الشيب من فوديه تحت عمامة بيضاء، تتوسطها طاقية خضراء. قيل لـ «سالم» إنه أطلى صوت في الصعيد كله.

كان المنشد هو «سرحان الفرغل».

(11)

استضاف «سالم» مريدي «الفولي» ثلاث ليال. تركهم ليلتين قضاهما غارقًا في شهد العُرس وعسله. في الليلة الثالثة، نزل إليهم ليجالسهم. كان يرتدي جلبابًا حريريًا أبيض مفتوحًا عند الصدر بين قطانين ذهبيين. جاءت جلسته إلى جوار «سرحان»، مد يده ولمس حنجرته، وقال: لم أسمع أطلى منها في حياتي.

ملأ «سرحان» عينيه من محيا «سالم»، وهو يبتسم في رضا وامتنان، ثم انزلق بصره إلى صدره، فماتت الابتسامة. تمعن جيدًا فيما رآه على صدر «سالم»، وقال: أنت مبروك يا سيدنا.

تلفت «سالم» حوله، وقال: البركة في وجودكم.

رفع المريدون أكفهم، وحطوها على صدورهم في غبطة، وقال الذي كان طاعنًا في السن محدودب الظهر، ذا عينين كليلتين: كانت بركة المرحوم تجري في صلبه، وأورثها لوجيهنا الأجلّ محبة ونعمة.

قال «سرحان» فجأة: كان «غنوم الصابر» من أطيب خلق الله.

ورمى بصره سريعًا إلى وجه «سالم» فلم يجد فيه ما يدل على شيء، فلاذ بالصمت في حيرة، وهو يدقق النظر في الكف الحمراء المرسومة على صدره وشمًا لم ينل الزمن من وضوحه.

قبل انصراف المريدين، طلب «الفرغل» أن ينفرد بـ «سالم»، فلما صارا منعزلين في ركن البهو بعيدًا عن البقية، سأله: من أي بلد جاء وجيهنا؟

ابتسم «سالم»، وأجابه: لا أعرف لي بلدًا سوى «الحجاني»، وإن كنت تسأل عن بلدة جدي فقد أخبرني أبي بأنها في الصعيد الجواني.

- ما اسمها؟

- أتذكر أن اسمها «التربانة».

هز «الفرغل» رأسه، وسأل من جديد: ألم تسمع ببلدة تسمى «نجع المجاذيب»؟

- لا؟

- ولا قرية «الصابرية»؟

- أين تقع هذه؟

مد يده ولمس صدر «سالم»، وقال: ربما تعرف «روحية» هانم النجع والقرية.

ابتسم «سالم»، وقال: أسألها عنهما.

صمت «الفرغل» برهة، وقال: أنت محروس يا وجيهنا، باركك رجل موصول بالسماء، وعلق في عنقك حجابًا في بطنه كلمات تحفظك من كل سوء.

نظر إليه «سالم» في دهشة، وقال: يبدو أنك أنت أيضًا من الواصلين، وإلا كيف عرفت الحجاب المعلق في عنقي منذ صغري.

قام «الفرغل» وهو يشد على يد «سالم»، وقال: الدنيا غنية بما هو أغرب من الخيال.

وأشار للرجال فنهضوا إلى مخادعهم، حتى يستيقظوا مصبحين، كل إلى بلده.

(12)

هبت «روحية» في هذه الليلة من نومها مذعورة. كان العرق يتصبب من جبينها غزيرًا، وهي تقاوم ارتجاف أطرافها، رغم سخونة الصيف. نادت على الخادمات فهرعت إليها واحدة. طلبت منها دورق الماء، فأتت به، وقالت: خير يا هانم.

هزت رأسها، وردت: لا أعرف إن كانت رؤيا أم كابوسًا.

لم تجد الخادمة ما تقوله سوى: أبعد الله عنك الكوابيس يا هانم.

لم يكن كابوسًا على أي حال، كانت رؤيا تلقتها «روحية» على

أنها حلم أسود مخيف. وأي سواد أكثر من انكشاف السر الذي مات «عويس» قابضًا عليه، وتركه لها وحدها، يخز ضميرها بين حين وآخر، لكنها تطرده، وهي تردد ما تؤمن به، ويُسرِّي عن نفسها، كلّما جثم السر على صدرها: الوالدان مَن ربّيا لا مَن خلّفا.

رأت في نومها «عويس»، كما غادرها. كان مُنهكًا وهو يشق مسربًا بين حشائش النهر، تلتف على جسده، تريد أن يصبح من الغارقين. كان ينادي بأعلى صوته على ابنه أن ينقذه، لكنه سمّاه باسمه الحقيقي: يا سالم يا بن غنوم الصابر، أنقذ أباك.

وظهر سالم على الشاطئ وفي يده حبل طويل متين ألقاه إليه، فأمسكه «عويس» بيديه الاثنتين، وراح ينسحب بعيدًا عن الحشائش، حتى خرج إلى بقعة من رمل خفيف يعلو النهر، وجلس يلهث، بينما يهدئ «سالم» من روعه، ويقول له: كتم الأسرار هو ما يُميت.

فأخذ «عويس» يهز رأسه مؤمّنًا على ما سمعه، وقال: البوح يفضح، لكنه يزيل عن النفس همومها.

والتفت إلى «روحية» التي كانت تقف عاجزة عن الكلام، وقال: من حقه أن يعرف، ومن واجبك أن تبوحي، وإياكِ أن تأتي إليّ بهذا الحمل الثقيل.

(13)

عند الظهر، ترك «سالم» مخدعه في الطابق العلوي، وهبط السلالم الحجرية، قاصدًا غرفة «روحية». وجدها جالسة في سريرها، تضع

رأسها بين كفيها، غارقة في الصمت والحيرة. اقترب منها، وجلس إلى جوارها. مد يديه وأخذ كفيها، فانجلى وجهها وعليه خطان أسودان من طول البكاء. انزعج لمرآها، وقال لها: لم أرَكِ مهمومة من قبل على هذا النحو.

رفعت رأسها، ودون أن تنظر في عينيه، قالت: تنتهي همومي برؤيتك.

ابتسم، وقال: وأنا لا يهمني في هذه الدنيا سوى سعادتك.

اغتصبت ابتسامة فاترة من حزنها الدفين، وسألته: هل غادر ضيوفك؟

- نعم، لكن أحدهم ألقى عليّ أسئلة لا أعرف لها إجابة.

- أي أسئلة؟

- سألني عن قرية بعيدة اسمها «الصابرية» كانت تُسمى «نجع المجاذيب»، ورجل لم أسمع عنه من قبل اسمه «غنوم الصابر».

في هذه اللحظة أدركت معنى الرؤيا التي غزت منامها، وألقت عليها جبالًا من الهموم. رفعت إليه وجهًا كسيرًا، وعينين مملوءتين بالدهشة والخوف، وقالت: مَن السائل؟

- المنشد صاحب الصوت الجميل.

صمتت برهة، وعادت تسأله: من أي بلد هو؟

- لا أعرف، لكنه على أي حال من الصعيد الجواني مثل جدي.

وباغتها بما جعلها تدرك أن انكشاف السر قد اقترب. نظر إليها،

وقال: سألني «الفرغل» عن الحجاب الذي كنت أعلقه في عنقي.

نظرت إليه ساهمة، ولم تنطق، فسأل وهو يهز رأسه عجبًا: كيف عرف الرجل موضوع الحجاب وهو لم يأتِ لبيتنا من قبل؟

فتح لها بابًا للهروب، فقالت بحروف ثقيلة مرتعشة: زارنا وأنت صغير.

- هنا؟

- في بيتنا بـ «المنيا»، وكنت رضيعًا.

بدا أنها غير صادقة، ولم يكن يصعب عليه إدراك هذا، وهو مَن لازمها طويلًا، ويعرف حركاتها وسكناتها، ويكمل لها ما تريد قوله إن وقفت في حلقها العبارة.

هز رأسه، وقال: ربما.

وغيّرت هي مجرى الحديث، فقالت: أنا جائعة، فاطلب من الخدم تجهيز غدائي.

(14)

تركها والظنون تعبث برأسه. صعد إلى الطابق العلوي. كانت «مباهج» تتثاءب متناومة في مخدعها. نظرت إليه، وقالت: عدت غير ما ذهبت.

ابتسم، وقال: رجعت إلى قرة عيني.

تركها تتلذذ بما سمعته، وفتح باب خزانة ملابسه. أخرج منها شكمجية يغطيها الصدف الملون، فتحها فوجد الحجاب مكانه،

التقطه، ودسه في جيبه، وقال لها: دقائق وأعود.

اختلى بنفسه في غرفة جانبية. نظر إلى الحجاب طويلًا. كان اسمه لا يزال ظاهرًا. لمس الحروف بسبابته، ثم قلّبه في يده. داس عليه، فأدرك أنه محشو بشيء ليّن. هرع إلى البهو، وطلب من أحد الطباخين أن يمده بسكين. غرس مقدمة السكين في الحجاب، فانخلع طرفه المطوي، وظهرت ورقة تميل إلى الاصفرار. مزع الطرف، وسحب الورقة، وفردها، وراح يقرأ بعينين مندهشتين:

«اللهم يا بديع السماوات والأرض، احفظ عبدك الفقير سالم بن الرجل الأجلّ، والكهف الأظل، جناب غنوم الصابر، واجعله لأبيه خير خلف. اللهم اجعل بفضلك القليل في يده كثيرًا، وباركه أينما ذهب أو راح، في أي من بقاع الأرض التي خلقتها وسويتها، ولتعمي عنه عيون الأعداء والطامعين، وارزقه بذرية صالحة، واملأ قلبه بعطف على المساكين والمحتاجين، واجعله موصولًا بك. اللهم آمين»، ثم كُتب النداء «يا لطيف» تسعًا وتسعين مرة.

هرع إلى غرفة «روحية» فلم تكن قد غادرتها بعد. وقف أمامها، والورقة في يمناه، وجلد التعويذة في يسراه، وقال: شاء الله أن أتعلم القراءة حتى أعرف ما هو مكتوب هنا.

وقرأ عليها، فانخرطت في بكاء حرور، وقالت: شاء الله أن يرحمني من عذاب العجز عن كشف السر.

وترامى صوت الشاعر حزينًا:

تراب السكك هاج وماج

خلّى طريقي متاهة

والخوف ضرب له سياج

وضاقت الأرض وسماها

رياحُ السّموم

(1)

مكث «محفوظ» في «الصابرية» أسبوعين بعد وفاة أخيه «غنوم»، طالما تحدث خلالها عن شعوره بالغربة. حين لاموه، وتعجبوا من نفور رجل بمسقط رأسه، قال لهم: ليس نفورًا. أنا أعتز بجذوري، لكنني وجدت نفسي إلى جوار الأزهر. هناك بهجتي ومهمتي في الحياة. وفاتحوه في مآل أرض الالتزام، فقال في حسم: لم أُخلق للزراعة. وملأ عينيه من وجوه الرجال المتحلقين حوله وقال: شاء الله أن يعوض المرحوم بمولود جديد، وإليه يؤول الالتزام.

طلب منه الرجال أن يُقدّر ميراثه في أخيه، فاكتفى بالقليل منه، تاركًا الكثير للوليد وأمه التي صارت في منزلة لم تحلم بها يومًا. لكن ابنَي عمه «همام» و«سلامة» كان لهما رأي آخر.

حك «همام» ذقنه، وسأل: هل يرضى ولاة الأمور بأن تنتهي أرض الالتزام في يد رضيع وأمه؟

رد «محفوظ»: للرضيع أهل، ولأمه أهل، ليتعاونوا في إدارة الأرض، والمهم تسديد ما قدّره أهل الحكم على الملتزمين سنويًا. ولا تنسوا أن مَن عاونوا المرحوم لا يزالون في أماكنهم.. المساح والصراف والخولي وخفر الزراعات.

نفخ «همام» متضجرًا، وقال: أخشى ألا تسير الأمور بخير، إن كان هذا هو الحل الوحيد.

وتدخل سلامة، وهو يكتم غضبه: العبرة بموافقة السنجق،

وتصديق ولاة الأمر في قلعة الجبل.

(2)

ما إن سمع «إبراهيم الجابر» بموت «غنوم» حتى أرسل مستئذنًا في مقابلة السنجق الجديد للإقليم «إبراهيم الغوري»، وأذن له، فجاءه في عصر يوم غائم على حصان أبلق، وخلفه هدية من صفائح الجبن والعسل الأبيض، وأجولة العدس والقمح والكركدية والبلح الجاف محمولة على ناقة عفية، وفي جيبه ضرة مملوءة بالبارات.

حين اختلى به، قال له: أريد أن أموت في بلدي.

نظر «الغوري» إليه مليًا، وقال: أخشى أن تفتح عودتك شلال دم.

ملأ صوته مسكنة، ورمى ذراعه في الهواء، في إشارة إلى استبعاد هذا تمامًا، وقال: حاشا لله، أنا من نسل طيب، لم أقتل أحدًا في حياتي، وأريد أن أقابل ربي وليس في رقبتي دم. أنت تعلم أنني من الخيّرين في الزمام كله، ولا ذنب لي فيما فعله أخي، ونال جزاءه وأكثر على أي حال.

استبقى الحكمدار «إبراهيم» عنده، وأرسل في طلب «همام» كبير «الصوابر»، الذي تهلل وجهه حين قال له قائد الجند: السنجق يدعوك إلى قصره.

كان يعتقد أنه أمر يتعلق بالالتزام، لكن فرحته ماتت في صدره فجأة حين وقعت عيناه على «إبراهيم»، وقد صار عجوزا يتوكأ على عصاه. أدرك أن الأمر قد يكون فيه غرم شديد. صافحه السنجق، وقال في حسم، بعد أن سحب يده: أمرت بعودة الجوابر إلى دورهم،

وأريد أن يمضي هذا دون عناء.

بلع «همام» ريقه، وقال بصوت خفيض: ما تأمر به على رأسي، لكن امنحني فرصة لأخبر أهلي.

ابتسم السنجق، وقال: اصطحب مَن شئت، وليختار «إبراهيم» من أهله كيفما يشاء، ونعقد صلحًا بينكم، وتفتحون صفحة جديدة.

ردّ «همام» في فتور: «اللي فات مات».

لم يمضِ سوى أسبوع حتى تقاطرت على الجسر العالي قافلة من الإبل، تحمل كل ما يصلح لإعمار بيوت الجوابر الخربة، ودخلت «الصابرية» بُعيد الظهر، وأتى المساء ليجد القرية قد استعادت هيئتها القديمة.

كان من بين بنود الصلح أن يسترد «إبراهيم» التزامه، وقد قبل «الصوابر» على مضض، ولم يكن أمامهم أي سبيل للرفض، وإلا ضاعت منهم كل الأرض. كان عليهم أن يبلغوا «بديعة» بما انتهوا إليه، فقبلت كارهة، وقالت في امتعاض: ما لم يقدر الرجال على صده، فلا تستطيع ذلك النساء.

آل إلى «إبراهيم» ثلث الزراعات الممتدة من الجسر العالي حتى أطراف الصحراء الغربية. ولم يكن للمزارعين رأي، فسيقوا إليه، معولين على أنه لم يكن رجلًا سيئًا، وأن معاملته لهم ستكون أفضل مما كانت عليه أيام أخيه «يونس». جاء إليه زراع آخرون من قرى بعيدة، هاربون من ظلم أصحاب الالتزام هناك، وضيق الرزق.

(3)

استعانت «بديعة» بـ «آل بخيت» في إدارة الأرض، فاختاروا «بحر» ليكون الخولي الجديد. عينت منهم خفر الزراعات. كلفت بعضهم بزراعة فدادين لم يكن أي منهم يحلم بأن تطأها قدماه. خلعوا أسمالهم البالية، وارتدوا جلابيب نظيفة، وانتعلوا مراكيب من الجلد بعد حفاء طويل. عرفت بيوتهم أصنافًا من الطعام لم يتذوقوها إلا في أيام أفراح «الصابر». زال عنهم بعض انكسارهم. وكان لا يزال فيهم خمسة من العبيد فنالوا حريتهم، وصاروا فلاحين.

انقبضت نفوس «الصوابر» لما جرى، لكنهم كانوا عاجزين عن مواجهة «بديعة» التي استندت إلى وساطة قام بها «محفوظ» عند أولي الأمر في المحروسة، ليبقى الالتزام في يد ابنها الرضيع، فقبلوها على الفور من رجل يدينون له بفضل تعليم أولادهم في أروقة الأزهر، ويعرفون قدره بين أصحاب العمائم.

كان «محفوظ» يدرك ما تغلي به صدور أهله، فلم ينقطع عن مراسلتهم ليشعروا بوجوده. حرص على النزول مرة كل عام إلى «الصابرية»، ليلتقيهم ويطمئن على ابن أخيه. في زيارته الأخيرة، اختلى به «سلامة» وقال:

ـ أرملة ابن عمنا لا تزال شابة، وبقاؤها هكذا بلا رجل ليس مقبولًا.

ابتسم «محفوظ»، وسأله: هل اشتكت لك من وحدتها؟

- الناس يتهامسون.

ـ هل يوجد ما تخفيه عني؟

صمت برهة، وقال: الكل يعرف أن الخولي كان يرغب في الزواج منها قبل أن يختارها أخوك أمًا لابنه.

نظر «محفوظ» طويلًا في عيني «سلامة» باحثًا فيهما عما يداريه، وقال: أخلصت لأخي، ولا تزال تحافظ على شرفه حتى وهو في قبره.

- حاشا لله، لم أقصد أي شيء من هذا، لكنني..

وانحبس الكلام في حلقه، فسأله «محفوظ» مبتسمًا: هل طلب يدها أحد؟

- لا.

- ما الذي جعلك إذن تحدثني في شأن زواجها؟

- لأن هناك مَن يريد الزواج منها؟

- مَن؟

- أنا.

ـ أنت؟ وتكسر قلب زوجتك، ابنة عمتنا، وتُغضب أولادك؟

- لا ينقصني حسب ولا قوة، والشرع يعطيني الحق، وأنت سيد العارفين.

فطن «محفوظ» إلى ما يدور في رأس «سلامة»، فهو يريد أن ينفذ إلى الثروة من باب الزواج. خاف أن يغلق الباب أمامه، فيتحرش بالخولي، أو يسيء إلى سمعة «بديعة»، وهو الذي لا يتورع عن الخوض في أعراض الناس. فكر قليلًا، وسأله: هل تطلب يدها مني؟

- هي يتيمة الأب، وأنت عم ابنها، ولك مقامك الذي يعرفه الجميع.

- لها عم وخال، فاطلبها من أيهما.

سرت في وجه «سلامة» مسحة من غضب، وقال: مقامها من مقامك أنت، بعد أن صارت سيدة في بيت ابن عمي.

تململ «محفوظ»، في جلسته، ثم قال: نسأل صاحبة الشأن.

- منذ متى نسأل النساء هنا؟

- هذا هو الشرع الذي تعلمته.

- وسلو بلدنا؟!

- الشرع قبل كل شيء.

- سلها، وأنا في انتظار الرد.

لكن «بديعة» رفضت، وقالت في حزم: صرت رجلًا مع ابني، ولا أريد لأحد أن يتحكم فيه.

- لكنكِ لا تزالين شابة.

نفخت ضجرًا وقالت: من العبث أن أضع مكان الحصان حمارًا.

كتم «محفوظ» الضحك، وقال: لا تنسي أنه ابن عم المرحوم.

شعرت بأن لسانها قد سبق عقلها من فرط الغضب، فاعتذرت، وقالت: لكن الطالب لا يمكن أن يكون في مقام الراحل.

ووجد نفسه يأتي على ذكر الخولي، ففطنت إلى ما يريد، وقالت:

هذه حكاية قديمة جرفتها الأيام في طريقها.

- لكن..

- «بحر» لا يستطيع أن يرفع عينيه في عينيّ، وبيني وبين الكل حدود لا أسمح لأحد بتخطيها.

نهض «محفوظ» وفي رأسه مخاوف من قابل الأيام. كان عليه أن ينقل الرفض إلى «سلامة» بشكل لطيف، حتى لا يثير حفيظته أكثر من هذا. اختلى به وأبلغه القرار على مهل، ثم قال: إن تعرضت لها بسوء سأكون خصيمك إلى يوم الدين.

لكن سرعان ما انزاح الخصم من أمام «سلامة»، إذ حملت الأخبار الواردة من المحروسة نبأ موت «محفوظ». ودُفن بجوار قبر الإمام الشافعي، بناءً على وصيته.

(4)

لم يمر عام على عودة «إبراهيم» إلى «الصابرية» حتى تحقق له ما طلب. مات ودُفن في مقبرة أهله، الذين بنوا له ضريحًا، وقالوا: كان من نسل المجاذيب.

وكتم الناس الضحك، وقالوا: جده الكبير كان يصاحبهم، أما الذي من نسلهم فهو «الصابر».

لكن آخرين، قالوا، وكانوا محقين: كان من مجاذيب الأرض.

آل الالتزام إلى «درويش» الابن الأكبر لـ «إبراهيم». كان على النقيض من أبيه، تمتلئ نفسه بالوساوس والخبث، حتى صار مضرب

الأمثال لدى أهل القرية عن الطالح الذي يخرج من ظهر الصالح. الشيء الوحيد المليح فيه هو فهمه لما تطلبه الزراعة، وإلمامه بالحساب، وميله إلى ادخار يهبط به إلى الشُح.

مع حرصه على المال، كان نهمًا للنساء وللطعام. تزوج امرأتين وأنجب منهما سبعة، أربعة أولاد وثلاث بنات. لم يكتفِ بزوجتيه، فكثيرًا ما كان يميل إلى ثلاث عبدات حبشيات يعملن في داره الفسيحة، وكان يقول لكل الذين يلومونه من أهله، حين ينصت إلى شكوى الزوجتين: ملك يميني ولا لوم عليّ.

لكن خبثه كان يزول عنه في سهرة يوم الخميس، حيث كان يخصص واحدة للحشيش، وأخرى للنبيذ، ويتحكم على مدار الأيام الستة الباقية في ميل نفسه إلى السُكْر والسطل، ويرفض كل محاولات رفقته أن يشرب ويُدخِّن كل يوم، ويقول لهم: مرة واحدة في الأسبوع نفصل بها بين هم راح، وآخر آت.

وبعد أن كان يعقد جلساته هذه خفية عن عيني أبيه، أخرجها إلى العلن، لكن في حذر وعلى استحياء، حين توعك «إبراهيم» في شهوره الأخيرة، ولم يعد قادرًا على مغادرة بيته. فلمّا مات، صار «درويش» يفعل هذا جهارًا نهارًا، غير عابئ بأحد من «الجوابر» ولا غيرهم.

انضم «سلامة الصابر» إلى هذه الجلسة، واستملح الشراب والتدخين، محاولًا أن ينسى بهما أحزانه وأطماعه، فقال الندماء ضاحكين: صالح الحشيش والخمر بين المتخاصمين أكثر من جلسة السنجق.

لكن الأيام كانت خبلى بما جعل «سلامة» و«درويش» يقتربان من بعضهما، ليواسي كل منهما الآخر. فذات ليلة، وبينما الخمر تلعب برأس «درويش»، نظر إلى «سلامة» وقال: أريد لما بيننا أن يستمر ويقوى.

قهقه وسأل: وهل يوجد ما هو أقوى من أن يحفظ كل منا سر الآخر، بعد أن كشفه غياب العقل في هذه الساعات اللعينة؟

صمت «درويش»، وسحب رشفتين من كأس نبيذ، وقال: أريد أن أناسبكم.

رفع «سلامة» جفنين أثقلهما الخمر، وسأله: أي من بنات «الصوابر» تريد؟

- ليست بنتًا.

- في عائلتنا ثلاث أرامل، ومطلقة واحدة.

- هناك أرملة رابعة.

- لم أسكر بعد لأخطئ في العدد.

- بل نسيت الأهم من اللاتي في رأسك.

- مَن؟

- بديعة.

(5)

أدرك الناس منذ زمن بعيد أن عدو العدو صديق، حتى ولو إلى

حين، وأن المصالح تتصالح. لكن هذه القاعدة التي تعيها العقول، وترددها الألسنة على مر الأزمان، تأخذ هيئة أخرى إن حضرت فيها امرأة، وصار العشق سلطانًا عليها.

يتقارب أكثر رجلان كسرت قلبيهما امرأة واحدة. يشكو كل منهما إلى الآخر، رغم أنه غريمه المؤجل، ويشفق عليه لأنه في الحقيقة يشفق على نفسه. يحرص على الإنصات إليه، ويواسيه، حتى إن لاحت له الفرصة بالظفر بمَن يحبها كلاهما، تمنى شفاءه من العشق، أو سعى في قتله.

أراد «سلامة» الزواج من «بديعة» ليذهب إليه التحكم في الثروة، لكنها حين رفضته، تعلق بها، وغلبت المحبة الطمع، فقال لنفسه ذات ليلة، وهو يعود مترنحًا إلى بيته آخر الليل: سكرت لأنساها فنسيت النسيان.

أما «درويش» فقد وقع في غرامها حين رآها بعد أن صارت سيدة، تركب حصان زوجها الراحل، فيتبختر بها على الجسر العالي، بينما شمس الأصيل تضرب وجهها فيصير نحاسًا، يخطف الأبصار.

كان يسرع على مُهرته، ولا يعرف مَن تكون التي تسبقه، فلمّا تفاداها بخطوات قليلة، التفت إليها فجأة، فبهره حسنها، الذي زاد حين سحبت طرحتها على وجهها، ولم تظهر سوى عينين خضراوين صار قتيلهما.

سأل أحد خفر زراعاته، كان يجري خلفه، بعد أن ابتعدا عنها: مَن السيدة؟

- أرملة «غنوم الصابر».

ابتسم، وقال: كان المرحوم محظوظًا حتى في النساء.

في الليلة التالية كان في بيت عمها «عبد البر» خاطبًا إياها. أنصت إليه الرجل، وقال: لك زوجتان.

رد على الفور: أطلقهما لو أرادت.

لكن جاءه الرد ليس أفضل مما تلقاه «سلامة» من قبل، إلا أن «درويش» لم يفقد الأمل. عرف أن «بديعة» يحلو لها أن تركب حصانها فوق الجسر عصر كل ثلاثاء. موعد مقدس لا يفوتها. تُفضل دومًا أن تكون وحدها، بعيدًا عن الخادمات والخفر. لم تكن نزهة تقطع بها حبسة القصر فقط، بل كانت أيضًا مزاولة لمهمتها في أن ترى زروع الالتزام على أفضل حال، لتطمئن إلى أن الحصاد سيأتي عفيًا، وتتأكد من أن الفلاحين يركبون أراضيهم في كدح لا يتوقف.

في كل مرة كان «بحر» يتابعها في شغف ووجل، وهو يخبئ جسده بين أعواد القصب والذرة، أو خلف جذع نخلة أو شجرة. وكان يقول لنفسه: يكفيني أن أراها ولو من بعيد.

المرة الوحيدة التي أسرع إليها، وهي تمضي راكبة فرسها فوق الجسر. كان قد قدّر أن الفيضان قد اقترب، بينما الرجال في غفلة. فخرج إلى الجسر. رأته فجأة أمامها، فارتبكت، ثم استكانت حين وجدت عينيه تحطان عند قدميه، ويقول: سامحيني يا سيدتي على اقتحام نزهتك، لكن الأمر خطير.

نظرت إليه في تطلع وخوف داهمها فجأة، فواصل: الفيضان على

الأبواب.

قالت له: الرجل العظيم يدافع عنا من قبره، أقام الجسر ليصد عنا هجوم الماء.

نكس رأسه أكثر، وغالب الغيرة التي اجتاحته، وقال: يبدو أن الفيضان هذه المرة سيكون شديدًا، والحذر واجب.

ضربت الحصان بقدمها، وقالت: قم بما عليك مع الرجال.

كانت بعض جوانب الجسر قد ضعفت، تدوس عليه أقدام الناس والدواب، وتكنس منه الريح ما وسعها، ويلثمه ماء الزرع في بعض جوانبه، فيوهن مع الأيام. حدد «بحر» ما يحتاج منه إلى ترميم، فلم تمضِ ساعة إلا وكان الرجال يدقون عندها الأوتاد، ويجرون إليها التراب وحزم القش، ويكبسونها بأحجار جمعوها من كل مكان في القرية وحولها.

هجم الماء عاتيًا، فجرف أمامه كثيرًا من أثاث الناس وزروعهم في القرى التي تسبق «الصابرية» من الجنوب، وحيواناتهم وطيورهم النافقة، والبوص والحطب الذي كانوا قد جمعوه فوق بيوت الطين ليدفئهم في الشتاء، والتبن الذي خزنوه لماشيتهم ودوابهم.

وقفت «بديعة» فوق سطح القصر، تراقب الرجال وهم يذودون عن الزرع والبيوت، وبدا لها «بحر» متفانيًا في الدفاع، يحث الفلاحين على المقاومة، ويجري يَمنة ويَسرة فوق الجسر، ليطمئن إلى أن الأجزاء المرممة صارت متينة.

غرق طرح النهر، الذي كان الناس قد زرعوه على مدار تسعة أشهر

فائتة. علا الماء حتى ساوى هامة الجسر، لكنه لم يتخطاها، وكلما ضرب مكانًا منه ليفلت إلى غربه، سبقته الحمير التي تحمل فوق ظهورها مزابل التراب والطوب والحجر، وكذلك الجِمال التي وضعت فوق أسنمتها أشنفة القش والتبن والبوص الجاف والحطب.

لم يغادر «بحر» الجسر. نصب خيمة صغيرة على طرفه الغربي، ولازمها في النهار والليل. كان «آل بخيت» هم عدته الأساسية في الحرب التي خاضها ضد الماء، وكذلك مَن عاونهم من رجال «الصوابر» و«الجوابر»، الذين كانوا يجيئون ويروحون، ويهمس بعضهم في غدوهم ورواحهم: سيخرج «آل بخيت» من هذه المعركة غير ما دخلوها.

وتحقق ما تخوفوا منه، فما إن انحسر الماء، حتى ذبحت «بديعة» سبعة عجول. أشرف عمها وخالها على توزيع اللحوم على البيوت لتأكل النساء والأطفال. مُدت أسمطة الطعام أمام القصر للرجال، فقال بعضهم وهم يلتهمون الطبيخ والمرق: كأن «غنوم الصابر» لم يغادرنا.

رد آخرون: ترك خيره لآل بخيت فلم يبخلوا علينا.

وحول «جوزات» الحشيش قال «درويش»، موجهًا كلامه لـ «سلامة»: إن بقيت الضغائن قائمة بيننا ركبنا «آل بخيت».

قهقه «سلامة» وقال: لا تعلو العين على الحاجب.

لكن عين «بحر» علت، فصار الرجل الذي تعتمد عليه «بديعة». أرسلت ابنها «ربيع» ليعلمه شيئًا من فنون الزراعة. أتت إليه بمُحفِّظ

قرآن من قرية مجاورة، لكنه كان ملولًا في كل هذا. يتعتع في قراءة القرآن. ينظر إلى الزرع باستهانة. لا يحلو له سوى اللعب مع أطفال «آل بخيت»، الذين زحفوا تباعًا إلى القصر، حتى صاروا يدخلونه دون استئذان، من بعد طول تردد وخوف.

راقب «الصوابر» و«الجوابر» ما تدبره «بديعة»، دون أن يدفعهم الغيظ إلى الكيد لها، باستثناء رجلين، لم يكن هناك شيء يمنعهما من التفكير في الإساءة إليها.

(6)

حاول «سلامة» أن يسحب «بحر» إلى جلسة الحشيش والخمر، لكنه رفض. كان كلما غلبه العشق لجأ إلى الزاوية، يستمد العون من أوراد مريدها الشيخ «السمطي»، الذي صار طاعنًا في السن، ويقول أهل القرية إنه قد كسر التسعين بسنوات.

كان النوم يغلب «السمطي» أكثر الساعات، بينما يلهج لسانه بالتسابيح. وكان يحلو لـ «بحر» أن ينام في الزاوية ساعات القيلولة. يُلقي جسده على مقربة من المريد الذي يغط في سبات عميق، فيشاطره نومه، حتى قبيل العصر.

وتفتق ذهن «درويش» بعد أن عَبّ سبع كؤوس من النبيذ عن فكرة شريرة. التفت إلى «سلامة»، وقال: ستبقى «بديعة» قوية طالما بقي «بحر» إلى جوارها.

كانا وحيدين حول الشراب، فنظر إليه «سلامة»، وهو يهز رأسه مترنحًا، وقال بحروف متكسرة: يُخلص لها بلا حد.

صمت «درويش» برهة، وقال: إخلاص لا يصدر إلا عن قلب عاشق.

- أتقصد..؟

- كل شيء واضح كالشمس في عز الظهر.

- أحس بهذا، لكني أكتمه، فما يمكنني أن أفعل، وهي تفضله على الجميع.

فرقعت حنجرة «درويش» بضحكة، اهتزت لها الكؤوس، وقال: يا حسرتي على عجز الرجال!

سرى الغضب في أوصال «سلامة»، وقال: ليس عجزًا، إنما استهانة، فكيف أضع رأسي برأس خادم.

- هذا الخادم صار سيدًا فوقنا الآن.

دس «سلامة» في فمه حبات من الفول السوداني، وسحب رشفات متتابعة، وقال: ليس هناك سبيل سوى أن يسقط في نظرها، فهي تُقدره إن لم تكن تحبه.

ورمى «درويش» فكرته: لا بد من تلويث سمعته.

- يدي على يدك.

- لا يضر سمعة رجل أكثر من امرأة لعوب.

- أين هذه التي ترضى بهذا؟

- واحدة من عبداتي، أكثرهن مَلاحة.

كان اسمها «سابا»، فتاة ساخنة كأنها قُدّت من نار تلظى، مسقط

رأسها «أمهرة» في بلاد «الحبشة»، وتتقن لهجة أهل الصعيد. اصطحبها «درويش» ذات صباح إلى الجسر لترى «بحر» وهو بين الفلاحين المحنية ظهورهم وسط الزرع. أشار إليه بطرف إصبعه، وقال لها: ها هو.

ملأت عينيها من جسده الفارع، وطلته الواثقة، وقالت: ليتني أوقعه في عشقي وتحررني.

ضحك، وقال: لو قدرتِ عليه نلتِ حريتك ومعها صرة من البارات.

كان «درويش» يعرف ذهاب «بحر» إلى الزاوية بعد الظهر، ففتح لعبدته الحسناء الطريق. دعا المريد إلى مباركة ابنه الصغير، وأرسل إليه خادمًا ليصطحبه، فلمَّا جاء، وجده قد أعد له غـداءً دسمًا، وحلف عليه أن يقبل عزومته لتحل البركة في البيت.

ما إن انهمك الرجل في طعامه يلوكه على مهل بأسنانه المثرمة، حتى لفَّت «سابا» جسدها بملاءة سوداء، وخرجت قاصدة الزاوية بعد ساعة من أذان الظهر. وقفت ببابها وأرسلت ناظريها إلى جوفها، فرأت «بحر» ممددًا.

خلعت نعليها، وأمسكتهما في يدها، ثم وضعتهما إلى جانب الجدار، وأغلقت باب الزاوية. مشت على أطراف أصابعها، حتى صارت إلى جانب النائم، سابحًا في أحلامه. نزعت عن جسدها الفائر الملاءة. خلعت جلبابها عن صدر ناهد وفخذين ممتلئتين. مدت يدها في حذر، ووضعتها بين فخذَي «بحر»، ودلكت في هدوء. بدا متجاوبًا مع حلم لذيذ، وقف له ذكره.

راحت تسحب جلبابه من عند ساقيه، حتى انكشف نصفه الأسفل عن سروال أبيض. أمسكت تكة السروال، وسحبت الخيط في هدوء حتى بان لها ما تقصده. مسته بأطراف يمناها وهي ترتعش، فتململ قليلًا. جفلت، واستردت يدها، فتلمظ بشفتيه الغليظتين تحت شاربه الكث، ثم غلبه النوم من جديد. عادت إلى ما تفعل، مستسلمة هذه المرة لشهوة سرت في أوصالها، فقبضت بقوة على ذكره الصلب، ففتح عينيه ليجدها تهم أن تقعد فوقه.

صرخ فيها: مَن أنتِ؟

وقبل أن تجيب انفتح باب الزاوية عن ستة رجال، وامرأتين، عجوز وشابة، يقودهم «سلامة»، الذي هرع إلى الداخل، وهو يقول: في بيت الله يا كافر؟!

(7)

اجتمع الشهود المجهزين في بهو قصر «الصابر» بعد صلاة العصر بين رجال كُثر، يتقدمهم «همام» كبير الصوابر، و«درويش» كبير الجوابر، و«خير» كبير «آل بخيت». كان الخبر قد وصل إلى «بديعة» فارتجفت، وأغمضت عينيها، وقالت: لم أرَ من «بحر» ما يدل على فُجره.

لكن «همام»، الذي كان فرحًا بما جرى ليتخلص من «بحر»، دفع إليها بالمرأتين اللتين رأتا الواقعة، فحكتا لها ما أبصرتاه. وضعت إحداهن يدها على عينيها، وقالت: وحياة عيني التي سيأكلها الدود، لم أحكِ إلا ما رأيت.

وبرر «سلامة» أمام «بديعة» اجتماع كل هؤلاء عند الزاوية، فقال: حين رأيتها تدخل الزاوية إلى الملعون، ناديت مَن وجدت ليكونوا شهودًا معي، حتى لا يشكك الناس فيما أقول. ثم بلع ريقه وقال: لم تكن المرة الأولى.

وقال رجل آخر بما اتفق معه «درويش» على النطق به: رأيتها ذات مرة تذهب إليه ليلًا في الزراعات، على مقربة من القصر، وكذبت عينيّ.

تدخل «درويش»: الآن عرفت أين كانت تختفي الملعونة عن البيت ساعات، بعد مغافلتنا جميعًا. وفي هذا اليوم المشؤوم انتهزت فرصة وجود «السمطي» في بيتي ليبارك ابني، وأسرعت لتختلي بعشيقها، وتدنس هذا المكان الطاهر.

زفر «سلامة» في غضب: أزعج الطيبين «الصابر» و«الجابر» في قبريهما الملاصقين للزاوية، وهذه خطيئة إضافية.

انكسرت «بديعة» فلم تجد ما تقول، فهي لا تملك دليل تكذيب كل هؤلاء إلا بما يحدثها به قلبها، وهي إن أفصحت عنه أثار حولها ظنونًا هي في غنى عنها. وكأي امرأة لا تقبل أن يخونها رجل يحبها، حتى إن لم تكن تحبه، قالت في هدوء: مَن أخطأ يقع عليه العقاب.

وحكّم الرجال على العبدة بالجلد، لكن «بديعة» قالت: هذا لا يفصل فيه إلا شيخ الجامع.

استدعوه فجاء يهتز تحت عمامة بيضاء، تلتف حول طاقية حمراء، وقال: لا بد أن يكون قد دخلها كما يدخل المرود في المكحلة،

ولو مررنا خيطًا بينهما لصده التحام الجسد بالجسد.

وحين أقر شهود الزور بأنهم قد رأوا هذا تمامًا، قال الشيخ: لا بديل عن جلدهما أمام الناس.

زام «آل بخيت» رافضين أن يُهان أحد رجالهم الكبار على هذا النحو، فقال «همام»، وهو يفتح الباب للتخلص من «بحر» تمامًا: يُطرد من «الصابرية»، ولا يعود إليها أبدًا. أما العبدة فتباع في سوق الجلّابة.

وقال شيخ الجامع: الطرد لا يعفي من الجلد.

قال رجل من «آل بخيت»: لا بد أن يكون هناك حل آخر.

قال شيخ الجامع: لا يقيهما من الجلد سوى الزواج.

نظر «درويش» إلى «سلامة» وأدركا أنهما قد حصدا مكسبًا جديدًا. هز كل منهما رأسه للآخر بالموافقة، فنطق «سلامة»: يتزوجها ويُطردان معًا من البلد.

وعاد «آل بخيت» إلى الغمغمة، فنهرهم «همام» بصوت زاعق: لن نقبل ببقاء النجاسة في قريتنا.

واستعار «درويش» شيئًا من خبثه، فقال لهم: البنت جارية لا أهل لها، أما هو فأنتم أهله، وسيلحق بكم بعض عاره، فإن ذهب فقد ينساه الناس مع الأيام.

نظروا إليه وهزوا رؤوسهم صامتين، فرمى في سرعة سهمه الجديد ليصيب هدفه: سأحررها ويتزوجها، ويبتعدان معًا.

وجيء بالمأذون على الفور، وانتظر الرجال أن يأتي «بحر» مُقيدًا من الحجرة الملحقة بإسطبل الخيل، التي سبق أن حبس فيها «يونس». عرضوا أمامه ما توصلوا إليه، فصرخ فيهم: لن أرحل، بل أفضل الجلد في وجه شاهدي الزور. وطلب أن يواجه الجارية، فأرسل «درويش» في طلبها، فجاءت تحفظ ما ملأ به رأسها، وأسعفتها ذاكرتها وذكاؤها وأملها في نيل حريتها في أن تبلي بلاءً حسنًا، حتى اقتنع الرجال بزعمها أن ما جرى في الزاوية لم يكن الأول بينهما، وأنه طالما غرر بها والتقاها في الزراعات، ثم وضعت يدها على بطنها، وقالت: ظهرت عليّ أعراض حمل، وذنب ابني أو ابنتي القادمة في رقبة مَن يحرمه من أبيه.

لكن «بحر» صرخ مكذبًا كل هذا، فرمى «درويش» سهمه الرابع، وقال: لتفصل في هذا «الداية».

وكان قد اتفق مع الداية على إخبار الرجال بأن «سابا» حامل في شهرها الثاني على الأقل، فاختلت بها في غرفة بقصر «الصابر»، ولما عادت نطقت بما أوصاها به «درويش»، بعد أن أجزل لها العطاء، وهددها إن لم تفعل بالموت.

حرص «درويش» على أن تصعد «الداية» إلى «بديعة» التي كانت تنتظر في غرفتها على قلق وحيرة، وحين أخبرتها بما وجدته في بطن الجارية، شعرت بأن الشقة بينها وبين «بحر» قد اتسعت، ولم يعد في نفسها منه رجاء.

جاء الدور على السهم الخامس لـ «درويش»، فأراد به أن يسترد كل ما دفعه للشهود والداية ولجاريته، فقال وهو يدوس على حروف

الكلام: سيدة القصر تحدثت عن عقاب يكافئ الجُرم، ولا راد لكلمتها، فنحن في بيتها.

تطلع إليه «آل بخيت» متوجسين، فقال: ليدفع لي «بحر» ألف بارة، في جاريتي الحسناء التي ستصير زوجته، وهذا أقل ما يجب كي يدفع أهله عنهم العار، ثم نغلق هذا الباب إلى الأبد.

أقر الرجال ما حدده «درويش»، وجمع «آل بخيت» المبلغ، وعقد المأذون لـ «بحر» على «سابا» بعد أن سلمها «درويش» صك الاستعباد، فأخذته دون أن تصدق، وشعرت وقتها بأن لها جناحين يرفعانها إلى السماء الطليقة، فتطير فوق القرى والنجوع حتى تصل إلى أهلها فتخبرهم بأنها قد صارت حرة.

كانت الأرض لا تسع قدميها فرحًا بحريتها، وزواجها ممن أشعل النار في جسدها حين رأت رجولته الطافحة، فتمنته من وقتها. أما هو فقد كان مكسورًا أمام فضيحته المفتعلة التي أطلقت في رأسه الظنون والحيرة، وفي نفسه رغبة متأججة في الثأر، لكنه لا يعرف ممن يثأر على وجه الدقة. ما كسره أكثر أن حلمه بالارتباط بـ «بديعة» التي أبلى بلاءً حسنًا في سبيل أن ترضى عنه، قد تبخر، وندم على خمسة عشر عامًا قضاها أعزب إلى جوار حلمه المهدور.

خرج «بحر» و«سابا» من «الصابرية» عند ضحى اليوم التالي، يتعثران في خطواتهما، ولا يعرفان إلى أين يمضي بهما السبيل.

(8)

اقترح «همام» على «بديعة» أن يكون خولي الالتزام من رجال

«الصوابر»، فقبلت على مضض. كان رجلًا ربعة، يمضي في العقد السادس من عمره، اسمه «عمران»، يعرف عن الفِلاحة الكثير. وقال «آل بخيت» حين عرفوا الخبر: واسع الذمة، يقبل الحرام دون أن تهتز له شعرة. وأبلغوا «بديعة» بما لا تعرفه عنه، لكنها قالت لهم: لا مجال لرفضه، وإلا أثرت غضب «الصوابر»، وهم أعمام ابني.

جاءت أيام عصيبة على المزارعين، ترحموا فيها على أيام «الصابر» و«بحر». فما إن أتى موسم الحصاد حتى وجد كل منهم أن عليه أن يسدد للملتزم ما يزيد على الثلث فوق جُعل السنة الماضية. وعبثًا حاولوا أن يقنعوا «عمران» بخسارتهم، لكنه صدهم بقسوة لم تكن غريبة عليهم.

ظل الحبل ممدودًا بين «همام» و«عمران»، يذهب الثاني إلى الأول ليطلعه على سير العمل في الأرض، وما تُغلُّه أيام الحصاد، قبل أن يُطلع «بديعة» عليه، فيسويان الأمر معًا بما يضمن لهما حصة ليست بالهينة.

راح الفساد يأكل كل شيء. ضج الفلاحون بما عليهم دفعه. تذمروا كثيرًا، وأفصحوا عن غبنهم في جلسات الليل على المصاطب، لكن كلامهم لم يذهب إلى ما هو أبعد من آذانهم. بعضهم لم يطق فترك أرضه وفر هاربًا. بعضهم انتقل للفلاحة في أرض «الجوابر». آخرون ظلوا على حالهم معولين على أن تبلغ مظلمتهم أذن «بديعة».

كانت «بديعة» تسابق الأيام، لا يشغلها سوى حماية «ربيع» من الخطر الذي يحدق به، رافضة أن تُدخل حياتها مَن يضيق به، أو يكيد له. رفضت مجددًا طلبي «سلامة» و«درويش»، فعادا إلى تدبير

المكائد خلال جلسات الدخان الأزرق والجعة والنبيذ. لكن كل ما دبراه كان لا يغير دفة الأمور إلى ما يريدانه، وإن تسبب في إزعاج وقلق لـ «بديعة».

لكن تفتق ذهن «درويش» ذات مرة عن لعبة قاصمة. قال وهو يسحب أنفاسًا متواصلة من الجوزة العامرة بالحشيش: لا بد من أن تفقد «بديعة» الالتزام، فينكسر أنفها.

وتنبه «سلامة» إلى خطر أن يكون «درويش» راغبًا في نقل الالتزام إليه، فقال في حسم: أولى به أخي «همام».

لكن «همام» مات في اليوم التالي. فلما انعقدت جلسة الحشيش بعد أسبوع من رحيله، قال «سلامة»: صرت الأولى بالالتزام.

ابتسم «درويش» مغالبًا حنقه، وقال: لا تنسَ أن الالتزام ملكاني يستمر بالوراثة.

بدا «سلامة» متحسسًا موضع قدميه جيدًا، فقال: أدخل المزاد الذي يُعقد كل سنة في شهر «توت» بالديوان العالي، وأنا واثق من الحصول عليه، وأتفق مع الروزنامة، ويصبح كل شيء رسميًا.

قهقه «درويش»، وسأل: وهل هي عاجزة عن دخول المزاد ضدك؟

- لا أعتقد أنها لا تزال قادرة، بعد كل ما سلبها إياه «عمران».

- وهل أنت قادر على زيادة فوق ما تسدده «بديعة»، وما عليها من فلوس الحلوان؟

- عشت أيامي كلها أعمل لأجل هذا اليوم، وأولاد أخي «همام»

سيقفون معًا، لننقذ التزامنا الذي كاد أن يذهب إلى «آل بخيت».

هز «درويش» رأسه، وقال: عمومًا، لك الالتزام، ولي «بديعة».

وكان «سلامة» يعرف أنه ما طلب يدها إلا ليضع يده على الأرض، فقال: ما يفيدك الارتباط بها بعد تجريدها من الثروة.

زفر «درويش» في ألم، وقال: ما سيتبقى في يدها ليس بالقليل، والمهم عندي أن أنالها، فأنا لا أقبل أن ترفضني امرأة.

وحرر «سلامة» مكتوبًا إلى «خليل شهاب الدين» عن ضيق الفلاحين بالتزام «بديعة»، ورغبتهم في هجران الأرض، وسحب إبهام كل منهم، ليبصم أمام اسمه، بعد أن اتفق مع «عمران» على أن يبقيه في منصب الخولي، ولم تكن لديه طاقة على تحمل مغبة الرفض.

ونال «شهاب الدين» ثلاث صرر من المال كي يرفع المكتوب إلى الوالي مشفوعًا بتوصية منه، لم ينسَ أن ينوه فيها إلى عجز السيدة «بديعة» عن إدارة الالتزام، وعدم صلاحية ابنها الذي لا تزيد سنه على ستة عشر عامًا.

انعقد المزاد في أحد أيام شهر «توت»، ورسا على «سلامة»، فلم يبقَ لـ «بديعة» وابنها سوى القصر وحديقته. لم يمر سوى عام حتى عجزت عن إيواء كل هؤلاء الخدم والطباخين. ربما لو كانت الحبشيات الثلاث اللائي في القصر، إلى جانب أقربائهن من «آل بخيت»، ما زلن عبدات لباعتهن، واستفادت بأثمانهن.

حين ماتت «مسعدة» لم تقدر على جلب مربية غيرها، واعتمدت

على نفسها في هذه المهمة، وعجوز من أهلها، معولة على أن «ربيع» قد كبر، وإن كان لم ينل تربية على النحو الذي أرادته.

كان ولدًا مائقًا، لم يأخذ من أبيه وأمه شيئًا، إنما ورث نزق جده الصابر الكبير، فبدت عليه كثير من خصاله، التي سمعت عنها، وصارت تجري على ألسنة أهل القرية فوق مصاطب السمر، لا سيما «الجوابر»، كلما أرادوا أن ينتقموا بالكلام من «الصوابر»، ويحطوا من شأنهم في عيون الناس، ليردموا الهوة القائمة بينهم في المال والجاه والقوة.

وذات عصر كان «سلامة» راجعًا على فرسه الأشهب من مباشرة الالتزام، فرأى «ربيع» يركب مهرة بيضاء على الجسر، فنظر إليه، وقال: أصبحت رجلًا يا غالي.

ابتسم له، وقال: أهلًا يا عمي.

نظر إليه في حنان مصطنع، وقال: أعتب عليك أنك لم تدخل بيتي إلى الآن.

ـ أمي حريصة على أن أبقى بعيدًا، وتقول إن هذا أفضل من مخالطة قد تسبب المتاعب.

- أصبحت رجلًا وقرارك في يدك.

ثم دعاه إلى زيارة قصره الجديد الذي بناه على الطرف الآخر من «الصابرية»، فقال:

ـ أخبر أمي وآتيك غدًا.

- أخبرها وتعال، لكن لا تدعها تقرر عنك بعد أن صرت رجلًا.

وأبلغها فلم تقبل، فغافلها وذهب بُعيد العشاء، سائرًا على قدميه. شق الشارع الرئيسي، والناس ينظرون إليه مستملحين هيئته التي كانت تتبلور على تلك التي عاهدوا عليها والده، الملامح وطريقة المشي، لكنه لم يكن مثله في تواضعه.

نبت شارب «ربيع» خفيفًا، واخشوشن صوته قليلًا، فبدا يشعر بأنه قد كبر على وصايا أمه، التي كانت تبيع خليّها، قطعة تلو أخرى، حتى تحافظ على عيشه كريمًا كما كان. عاتبته ذات يوم على تعاليه على الفلاحين، فصرخ فيها:

ـ أتعملين حساب هؤلاء الحمير؟

- هم منا ونحن منهم، فلا تتكلم وكأنك من المماليك والعثمانلية.

- منك أنت، أما أنا فلست منهم.

صرخت فيه: هل جننت؟

- لم أنطق سوى بالحقيقة، فأنا ابن سيد البلد، أما أنتِ فأهلكِ كانوا من خدمه.

ألجمها قوله، فلم تجد ردًا يناسبه سوى صفعة قوية على وجهه، فصرخ في وجهها: القصر لي، ولولا العيب لطردتكِ خارجه.

وأحزنها ما سمعته، ولم تكن تتوقعه، فانسحبت من أمامه كاسفة البال، لتختلي في غرفتها، التي كان «الصابر» قد اختارها مخدعًا لهما. جلست على حافة السرير، ونظرت من النافذة إلى الحديقة التي

تطل خلفها زراعات الذرة من بعيد، وخاطبته قائلة: كم أحتاج إلى حكمتك التي لم يرث ابنك منها شيئًا.

وتكررت زيارات «ربيع» إلى بيت «سلامة»، فحكى عنها أمام «درويش»، فوجده يقول له: هاته ليجالسنا.

رفع «سلامة» عينيه في دهشة، وقال: إلا هذه..

قهقه «درويش»، وقال: بل هي، إن أردت أن تفي بوعدك لي، ويكتمل اتفاقنا.

كان «درويش» يرى أن «ربيع» طُعم جيد يصطاد به والدته، سواء طواه تحت جناحيه فكان خير رسول إليها، أو أشعل غضبه أكثر، فتمرد عليها. تمنى أنها حين تعجز عن كبح جماح ابنها ستدرك أنها بحاجة إلى رجل يساعدها في تربيته، بعد أن ابتعد عنها «آل بخيت»، باحثين عن مصلحتهم في أرض «درويش»، الذي أملى لهم كي يبعدهم عنها.

لم يتحقق ما أراده «درويش» سريعًا، إذ لم يجرؤ «سلامة» على أن يطلب من «ربيع» الانضمام إلى جلسات الشكر والسطل المتكررة. لكن «درويش» قال له: إن ثقل عليك الأمر، فهو أخف عندي من الريشة.

وانتهز فرصة خروج «ربيع» للتنزه على الجسر، كما اعتاد، ودفع إليه ابنه الأصغر «مصطفى»، فاقترب منه. كان يكبره بثلاثة أعوام تقريبًا، يجالس أباه في البيت إن راق له شراب أو تدخين، ويشاطره ما يفعل، لكن على مهل.

أفهم «درويش» ابنه أن مصاحبة ابن «الصابر» سيأتي من ورائها خير كثير. كان «مصطفى» قد ورث عن أبيه الخبث، ورغم حداثة سنه، بدا جديرًا بالاعتماد عليه في مشاركة الإشراف على الزراعة، ومراجعة بعض الحسابات.

لم يجد «مصطفى» صعوبة في جذب «ربيع» إليه، حتى صار تابعه. ضرب «مصطفى» موعدًا لصديقه اللدود بعد العشاء عند الزاوية، ليقضيا سهرة لا يحلم بها، فغافل «ربيع» أمه، وخرج ليلتقيه. أخذه ليلتها إلى الجسر العالي، وسارا في موازاة القرية حتى ابتعدا عنها، وهو يحكي له عن تجاربه اللذيذة مع الخادمات. ثم سأله: أليس في قصركم خادمات؟

أجابه وهو يعددهن أمام بصره: قليلات.

- أليس فيهن ما يجده الذكر في الأنثى؟

- واحدة منهن لا تزال حلوة رغم أنها فارقت الأربعين.

ضحك «مصطفى» وقال: الأنثى في هذه السن سخية في عطائها.

ثم مد إليه زجاجة نبيذ أحمر، كان يحملها في يمينه طوال الطريق ويخبئها في كيس من القماش، وقال: خبئها من أمك، وصب منها في كأس حين تختلي بنفسك في غرفتك، وبعد ثلاث كؤوس سيزول عنك الخجل.

ولمّا وجده مترددًا، قال: معي كأسان، سأصب لكل منا واحدة، ولتجرب أمامي ما أبشرك به.

سحب «ربيع» رشفات متتابعة، فراحت النشوة تسري في عروقه،

فقال وهو يكاد يرقص من البهجة: هو السحر الذي كنت أبحث عنه دون أن أعرف ما هو؟ وما الطريق إليه؟ أعطاه «مصطفى» الزجاجة أثناء عودتهما إلى القرية. حملها إلى القصر، ودسها في غرفته فور رجوعه. ولمّا انتصف الليل، واطمأن إلى نوم أمه، صب كأسًا وعبها عبًا، فراقت له الدنيا، فصب أخرى مسترخيًا للبهجة الكاذبة، وفرغ من الكأس الثالثة فاستيقظت الشهوة عارمة. تسلل من غرفته إلى مكان نوم الخادمة التي قصدها. أنساه الخمر الحذر، فدفع الباب غير عابئ باصطكاكه، فهبت مفزوعة، ناظرة إليه في استغراب. اقترب منها، وهو يقول: عاوزك.

ظنت أنه قد أتى إليها لتعد له طعامًا أو شرابًا في هذه الساعة المتأخرة، فنهضت تفرك النوم في عينيها، مقبلة نحو الباب في طريقها إلى المطبخ، لكنه اعترضها، فاتحًا ذراعيه. وقفت مشدوهة، لكنه لم ينظر في عينيها، إنما طوق جسدها بقوة، وأعاد القول: عاوزك.

حاولت الإفلات منه، وهي تقول: عيب يا سي «ربيع» أنت في سن أولادي.

مد فمه إلى عنقها لينهشها، لكنها صرخت، ودفعته بقوة، فسقط إلى جانب مخدعها، وخرجت مسرعة، لكنه نهض ولاحقها، عازمًا هذه المرة على أن ينال منها. زاد صراخها، فاستيقظت بقية الخادمات، وسمع الخفير الواقف عند البوابة الرئيسية، فخلع بندقيته من كتفه، ودخل إلى القصر، وهو يظن أن لصًا قد تسلل إليه.

وصلت الجلبة إلى «بديعة» في الطابق العلوي، فهبت مفزوعة،

لترى مع خادماتها ابنها الوحيد في موقف مُخزٍ. هبطت السلالم سريعًا، حتى صارت واقفة في وجهه. لفت انتباهها أنه يهذي ويترنح قليلًا. اقتربت منه أكثر، وسحبت شهيقًا قويًا، ثم صرخت فيه: سكران يا كلب؟

وشعر بإهانة شديدة، فصرخ فيها: أنا حر، أسكر أو أصلي، لا دخل لكِ بي.

رمته بنظرة هازئة وقالت: ليتني لم أُخلِّفك، لتوسخ سيرة أبيك العظيمة.

أشاح بيده في وجهها، وزاد هياجه وهو ينصرف، دافعًا أمه بقوة، في الجدار، بينما الخادمات يقفن متعجبات مما آل إليه الحال في بيت «غنوم الصابر».

كادت توجه له صفعة أخرى، لكنها أمسكت زمام نفسها أمام الخادمات والخفير، وإن كانت نظراتها الغاضبة قد طيّرت سطوة الخمر من رأسه. ما بقي منها دفعه إلى الإيغال في تمرده، فخرج من باب القصر إلى الحديقة، ومنها إلى الباب الخارجي، حيث سلمته قدماه إلى الفسحة الأمامية المؤدية إلى أول الشارع الرئيسي، فسلكه غير عابئ بالذين ينظرون إلى هيئته في عجب، حتى بلغ قصر «درويش».

رآه «مصطفى» الذي كان لا يزال ساهرًا في الشرفة الأمامية، فهبط سريعًا حتى وصل إليه. مد يده وسحبه خلفه، وهو يغمغم لاعنًا أمه والخادمات وقصر «الصابر» الذي لا يجد فيه مبتغاه. أخذه إلى غرفته، وأجلسه على أريكة إلى جوار مخدعه، وسأله، وهو ينظر إليه

مليًا: هل صدتك الملعونة؟

رفع إليه عينين لا تزالان معقلتين بالخمر، وقال: أمي فضحتني.

قهقه، ثم رد: لا عليك، هكذا تكون البدايات صعبة دائمًا.

ونهض نحو خزانة جانبية، فأخرج منها زجاجة نبيذ، ووضعها على الطاولة، وإلى جوارها وضع كأسين، وقال له: داء هو الدواء.

وصب له كأسًا، فرفعها سريعًا إلى فمه يعبها، وأتبعها بأخرى، ثم ثالثة، حتى دار المكان به، فنهض مترنحًا إلى السرير، وألقى جسده عليه، وراح في سبات عميق.

حين فتح عينيه في الصباح، وجد نفسه عاريًا في أحضان امرأة سمراء متناومة. تلفت حوله مذعورًا، لا يعرف أين هو؟ هز رأسه بعنف، وهو يغمض عينيه ويفتحهما، فلما استرد وعيه، سألها: مَن أنت؟

قالت ضاحكة: أنا مَن بسطتك، وفرجت همك الشديد.

(9)

مضى كل شيء كما خطط له «درويش». راح يعد الأيام لبلوغ ما رمى إليه. عبثًا حاولت «بديعة» أن تثني ابنها عن صحبة الأشرار، لكنه كان قد اعتاد الخمر والحشيش في جلسات الليل، وأدمن معهما جسد العبدة الحبشية «تانا»، ولكل هذا سحره الذي يخطف لب وجسد مراهق نزق.

منعت أمه عنه المال حتى يستقيم، لكن «درويش» تكفل بحل

مشكلته هذه. تركه يوغل في السكر والسطل، وليس عليه سوى أن يبصم له بخاتم الحديد المحفور عليه اسمه، كوارث أبيه، على أوراق ديون تراكمت حتى لم يعد بينها وبين انتزاع القصر وحديقته سوى مبلغ بسيط.

كان «درويش» و«سلامة» قد قدرا ثمن القصر سويًا، حتى لا يقال إن البيع، حال إتمامه، فيه ظلم لـ «بديعة»، حين يصل الخبر إلى أهل «الصابرية»، أو تقدم هي شكوى إلى السنجق.

جرى كل هذا سرًا، إلا على «سلامة» الذي طلب منه «درويش» أن يختار مَن يذهب بين حين وآخر إلى «بديعة» يطمئنها إلى أن إعادة ابنها إلى جادة الصواب ليست صعبة، لكن يجب أن يتم هذا بحكمة، وعلى مهل. كان «سلامة» يدرك أن «بديعة» لا تطيق رؤيته منذ أن سلب منها الالتزام، فأشار على «درويش» أن يختار هو رجلًا من «آل بخيت»، ممن يفلحون في أرض التزامه، للقيام بهذه المهمة، وقال له: لا يخدعها إلا واحد من أهلها.

أوكلت المهمة إلى «جويد»، المعروف بحلاوة اللسان، فأمعن في خداعها. فلما ضاقت بإخفاقه في إعادة ابنها إليها كما وعد، قالت له ذات ليلة: لو كنتم أخواله حقًا لمنعتموه من هذا العبث.

ابتسم، وقال لها: لا تنسي أنه ابن سيدنا، وعلينا أن نخلعه من هذا العبث برفق شديد.

- سيدكم مات، وأدرتم معي أرضه، لكنكم نسيتم ما كنتم فيه، وعدتم إلى الرضا بالذل.

ابتلع ريقه، وقال لها: انفردتِ بتربيته بعيدًا عن أعيننا، فلا تلومين إلا نفسك.

ثم بحث عن سبب آخر لطمأنتها، فقال: كان جده الكبير مثله، ومع هذا ترك أرضًا ومالًا، صنعت للصوابر مكانتهم على مدار السنين.

هزت رأسها في غبن، وقالت: كان جده رجلًا ناضجًا، لم يترك عبثه الصغير يكبر فيدمره.

اقترح عليها الرجل أن ترقيه لدى شيخ الزاوية الجديد «عارف الإسناوي»، فبكت أمام ابنها حتى احمرت عيناها، لتقنعه بأن يذهب إلى الزاوية، وقالت: نزور قبر أبيك، لعل روحه تحل فيك، ثم نختلي إلى المريد الطيب، لينظر في أمرك.

تطلع إليه «الإسناوي» طويلًا، وقال: شياطين الإنس أشد خطرًا.

قالت في انكسار: أحاطوا به من كل جانب، وعجزت عن ردهم.

هز رأسه، وقال: الفراغ يغري بالتفكير في الرذيلة.

واقترح عليها أن تدفعه إلى عمل يشغله، فقالت: راحت الأرض التي كنت أعده لها.

ابتسم، وقال: في التجارة رزق وفير.

وباعت بعض حليّها، وفكرت فيما ينقص «الصابرية»، فهداها عقلها إلى تجارة الأقمشة والأكلمة والسجاد، والتي لم تكن موجودة في دكان «إسحاق» و«موسى» اللذين ورثاه عن أبيهما. واختارت شابًا من «آل بخيت» معروفًا بأمانته، اسمه «عايد» ليساعده في عمله

الجديد.

كان «عايد» يرفع بعض البضائع على جمل، ويخرج بها في البكور، ليبيعها في البلدان المجاورة، ويعود قبيل العشاء، فيسلم إلى «بديعة» ما باع به، ويطلعها على دفتر سجل فيه ما تأجل دفع ثمنه إلى موسم الحصاد. لكن «ربيع» رفض أن تتسلم أمه حصيلة البيع، وقال لها غاضبًا: متى تكفين عن النظر إليّ كطفل يستحق الوصاية؟

ولم تكن تريد منه مالًا، إنما ينشغل بعمله عن نزواته. مستعينة على حاجاتها بما ادخرته، وحصيلة بيع التمر والفاكهة من حديقة القصر، وثلاثة قوارب صيد، يعمل عليها ثلاثة رجال، كانت قد اشترتها بُعيد ضياع الأرض.

لكن التجارة لم تنهَ «ربيع» عن اللهو، وكان ما يشربه ويدخنه قد سكن دمه، فلم يستطع الصبر على الابتعاد عنه إلا أيامًا قلائل عقب زيارته للزاوية. عاد إليه أشد مما كان عليه. مع الأيام لم تعد حصيلة التجارة قادرة على توفير أجر «عايد» وأثمان الحشيش والخمر، فظل رأس المال يتآكل حتى أشرف على النفاد، فعاد «ربيع» إلى الاستدانة.

صار فساد «ربيع» حديث الفلاحين وهم يستريحون قليلًا تحت الشجر، وعلى مصاطب السمر في الليل. تجاذبته ألسنة النساء أمام أفران الخبيز. تندّر به الصغار في ألعابهم. ساحت الأخبار في القرى المجاورة، فشمت الذين كانوا يستكبرون على «بديعة» أن تصير سيدة، وحزن مَن لا يزالون يتذكرون سخاء «غنوم الصابر» وهيبته.

جمع «درويش» ما ورد في الصكوك، فوجده قد وفّى ثمن القصر

والحديقة، فجهز عقد بيع، وقبل أن يجلس «ربيع» ليتناول كأسه، قال له: نتحاسب قبل أن تسكر.

رد في عجالة: ليس بين الخيرين حساب.

قهقه «درويش» وقال: لا يجلس هنا الخيرون يا بن «الصابر».

وسأله: هل أحضرت الختم؟

رد: أنسيت أنني أعرف الكتابة، سأوقع لك.

لكن «درويش» اشترط أن يبصم بختمه إلى جانب التوقيع، فقام ليحضره من الدكان، وعاد سريعًا. جلس متلهفًا، وقال للجالسين: ليحدث هذا أفضل، وأنا سكران، فما أشد حاجتي إلى ما يغيبني وأنا أخلع أمي من مكان لم تفكر يومًا في أنها ستفارقه إلا إلى قبرها.

لكن «درويش» اشترط أن يتم البيع وهو في وعيه، وأن يشهد الشهود وهم كذلك، ومن بينهم «سلامة»، الذي كان موزعًا بين حزن وفرح. حزن من تسليم قصر «الصابر» إلى واحد من «الجوابر»، وفرح لأنه سيرى «بديعة» منكسرة، وقد لا تجد بيتًا يسعها إلا قصره الجديد، الذي بناه خلف الجسر، بعد سنة واحدة من تسلمه الالتزام، وبذلك يكون قد ربح كل شيء، الأرض، وهذه الحسناء التي استعصت عليه في سالف الأيام.

وسمع القوّال ما جرى فأنشد في أسى:

الضبع صالح الديب

على نهش لحم الغزالة

والهزة لمّا تصيب

غرابيلنا ترمي النخالة

الظفرُ واللّحم

(1)

ظل «سالم» يتقلب على جمر، منذ أن عرف نسبه الحقيقي. فارت نفسه حتى كاد ينفجر، لكنه لم يحنق على «روحية»، ولم يتوقف عن مناداتها بأمه. كان قد قرر منذ أن انكشف له السر أن يعود إلى مسقط رأسه ليرى أهله.

أبهجه أن يعرف أن أباه الأصلي كان كبيرًا بين أهله. أخرج الورقة التي كان قد أعادها إلى الحجاب، وقرأ عدة مرات كلمة «جناب» التي سبقت اسم أبيه، واستعذبها كثيرًا. ولما قصت «روحية» على سمعه حكايته منذ أن وجدوه قطعة لحم حمراء ملقاة بالقرب من أحراش عطشى في رمل وحصى، عرف أن ما هو فيه من ثراء يعود إلى «الصابر». حمد لمَن ربياه أنهما حافظا على مال أبيه، ولم يهلكاه في سفه أو إسراف أو انحراف عن جادة الطريق.

وقال ذات مساء لـ «روحية» بعد أن طبع قبلة على رأسها كعادته: أريد أن أرى أهلي يا أمي.

صمتت برهة، وقالت: أخشى إن جئت معك أن يفتكوا بي.

نظر إليها في استغراب، وقال: لا يمكن أن يكون هذا جزاء مَن تولتني بالرعاية، وحافظت على مالي.

قالت وهي تخفض رأسها: عشنا من خيرك حياة لم نحلم بها.

ابتسم، وقال: بل عشت أنا في حجرك، ألم يكِد أبي «عويس»

ويجتهد. كم من رجل في هذه الحياة بدد ثروة كبرى ورثها أو هبطت عليه فجأة!

اقترحت عليه أن يُرسل أحد رجاله إلى «الصابرية» ليجمع الأخبار، حتى إن عاد إليها، كان يعرف جيدًا ما يجري بها. راقت له حكمتها، وفكر فيمَن حوله فاحتار، لكنه سأل الخفر: هل يعرف أحد منكم بلدة اسمها «الصابرية» في الصعيد الجواني؟

نبش الخفير «شلبي عبد السميع» في ذاكرته، وقال: هناك مَن يعرفها؟

- مَن؟

- صاحبي «بسخرون النجار» حكى أمامنا ذات مرة أنه قابل رجلًا منها قبل عشر سنوات في مولد العذراء، يعمل نجارًا مثله، وقضى معه أيامًا، وتواعدا على تبادل الزيارات، لكن هذا لم يتم إلى الآن.

أرسل «سالم» إلى «بسخرون» فجاء مسرعًا، ممنيًا نفسه بنجارة واسعة في القصر، على غرار التي جهزها قبيل العُرس، لكنه فوجئ بمهمة لم تخطر له على بال. تلقى الطلب في فرح، وقال: بركات العذراء، التي تواعدت أمامها على لقاء «جرجس».

أعطاه «سالم» صُرة من النقود، وقال له: اركب الماء من مرسى «المنيا»، وكن حذرًا في أسئلتك.

هز رأسه، وقال: لا تخشَ يا سيدنا.

كان «بسخرون» حكيمًا. نزل في مرسى المراكب الشراعية الذي أكل فيه «عويس» و«روحية» ذات يوم غداءً دسمًا، وشرب «سالم»

لبن ماعز. قال له المراكبي: يمكنك أن تركب قارب صيد يأخذك إلى «الصابرية».

لكن صاحب القارب قال له: لم يعد هذا اسمها، كانت «الصابرية» والآن هي «الجابرية».

احتار قليلًا، ثم قال: لكنني أريد «الصابرية».

ضحك الرجل حتى اهتز القارب تحته، وقال: لا عليك، هي ما تقصدها، وكن متأكدًا أنني لن أضلك.

ولمّا أوصله إلى الشاطئ، أشار إلى قصر بين الزراعات، تطل خلفه منداحة على الجانبين بيوت خفيضة، وقال: ها هي، فانزل.

ما إن صار «بسخرون» على مدخل القرية حتى سأل عن بيت «جرجس»، لكن أتاه الجواب بما لم يكن في حسبانه: توفي قبل سبع سنوات، لكن أبناءه موجودون. جفل قليلًا، فقال له مَن أجابه، وهو يحسب أنه يقصد أعمال نجارة: أولاده أكثر مهارة منه، فلا تخف.

أخذوه إلى بيت «جرجس»، فصارح ابنه الأكبر «سمعان» أنه قادم من «المنيا» لزيارة أبيه، بناءً على تواعدهما قبل سنين. أنصت إليه «سمعان»، وسأله: هل أنت عم «بسخرون»؟

تهلل وجهه، وهز رأسه، فواصل «سمعان»: طالما حكى لنا أبي عن أيام قضيتماها في مولد العذراء. ظل يمنينا بمعاودة الزيارة واصطحابنا معه، لكنه تنيّح قبل أن يحقق ما أراد.

ابتسم «بسخرون»، وقال: يرانا الآن، ويفرح في الأمجاد السماوية، وربما روحه هي التي دفعتني إلى المجيء، لتحققوا معي ما أراد

أبوكم.

استضافوه خمس ليال، كانت كافية ليعرف كل شيء عن آل «الصابر»، وأحوال «الصابرية» عمومًا، ثم رجع من حيث أتى.

(2)

لم يصدق «سالم» ما سمعه من «بسخرون»، وأسف لحال أخيه وأمه «بديعة»، اللذين خرجا من القصر، وسكنا بيتًا بسيطًا بين بيوت «آل بخيت»، وتركا الخادمات يعملن في قصر «سلامة»، فحيل بينهن وبين الذهاب إلى «بديعة» لمجرد السؤال عنها.

كانت «بديعة» لا تزال تحتفظ بثلاث قطع من الحُلي، وقت خروجها من القصر، وثلاثة خيول وفرسة في الإسطبل، وأربعة جِمال، فباعت الأحصنة، وأجّرت الجمال للحمّالين، واستمر الصيادون يأتونها بما لها في بيع الأسماك، إلا أن كل هذا لم يكن يفي بعيش رغيد لها، لا سيما أن «ربيع» لم ينقطع عن الخمر والحشيش.

لكنها مع هذا استطاعت أن ترمم بيتها الجديد، وتطليه بالمصيص واللون الأبيض، واشترت أثاثًا، ليس بمستوى ما كان في القصر، إلا أنه يكفي سيدة لا تريد من الحياة سوى الستر.

لم تفارقها روح «الصابر»، فواظبت على أداء الصلوات الخمس، وكانت تحمل الطعام إلى «الإسناوي» في الزاوية، وتتصدق على ثلاث أرامل من أهلها، وتدخر لشراء ثلاث خرفان تُذبح في عيد الأضحى، وتوزع لحومها على فقراء القرية.

لم ينسَ «درويش» طلبه القديم، فأرسل يطلب يدها، لكنها

استعصمت بهجرة الرجال. وحين قال له «سلامة»: صارت راهبة، ولم يعد لديها ما تعطيه لرجل.

قهقه، وقال: يكفي أن تذوق امرأة استملحها رجل كبير مثل «الصابر».

ولم يدرِ «درويش» أن لسانه قد خانه، وأنه كشف عن نواياه في إذلال «آل الصابر»، فقال له «سلامة» غاضبًا: يبدو أنك لم تنسَ الثأر القديم.

فانفجر فيه، وقال: دم عمي «يونس» لم يجف في عروقي.

وكان «سلامة» قد وصله خبر قبل هذا بيومين أن «درويش» يسعى إلى أن يرسو عليه التزام «الصوابر» في شهر «توت» المقبل، بعد أن اعتزم ديوان الالتزام في المحروسة زيادته. ولم يكن خافيًا على «درويش» إسراف «سلامة»، وضجر الفلاحين من سوء معاملته.

أراد «درويش» استعجال الأمر، فأرسل أحد رجاله ذات ليلة ليأتي له بـ «عوف» كبير الفلاتية، الذين تجمعوا من بلاد شتى، واهتدوا إلى المغارة التي حل بها «يونس» من قبل، فاتخذوها مأوى لهم. ولمّا جاءه يتصبب عرقًا من طول المشوار في هذا الحر، اختلى به في بهو قصره، ورمى إليه ثلاث ضرر من النقود، وقال: أريدك في شيء، وليكن سرًا بيننا.

تلمظ الرجل وهو يضع الصُرر في جيبه، ويعدل وضع بندقيته على كتفه، وقال: جنابك تأمر، وسرك في بئر.

مد «درويش» يده، وأخذ يد الرجل، وقال: حتى الموت.

هز رأسه، وقال: أطال الله عمر جنابك. أنا لص لكن لا أخون عهدًا.

وفي الليلة التالية صرخ رجل كان يمشي على الجسر هاربًا من حر بيته الضيق: حريقة.. حريقة.

هرع الفلاحون ونساؤهم يقاتلون النار، بجريد النخل والعصي وماء يُحمل في جرار من النهر القريب، والقنوات التي تشق الأرض. دفع «درويش» أولاده ورجالًا من «الجوابر» ونساءً ليشاركن في المعركة ضد النار، ليخفي تدبيره. كان ضمن خطته أن يحرق حقل قمح له ملاصق لأرض «سلامة»، فضحى به، كي يُمعن في إخفاء جريمته.

لكن المعركة، التي استمرت حتى مشارف الصبح، انتهت بهزيمة منكرة للناس، إذ أتت النار على أغلب زراعات القمح في التزام «سلامة» ولم يكن يبقى على حصاده سوى أيام قلائل.

هرع «سلامة» عند الضحى إلى غرفة داخلية في قصره، كانت بها خزانة يدخر فيها المال. فتحها وجلس يحصي ما فيها، فوجده لا يكفي عُشر المطلوب منه سداده. طلب من امرأتيه وزوجتي ابنيه أن يأتين بخليهن، وقدره، فلم يفِ سوى بنصف العُشر، فأدرك أن أيامًا عصيبة تنتظره.

بعد العصر كان قد جمع فلاحي التزامه في باحة القصر، وقال لهم: نحن شركاء في الغُنم والغُرم.

قلبوا أبصارهم في وجوههم، وقال أحدهم: جيوبنا خاوية، وجنابك تعلم.

وقال آخر: ما نحصل عليه في مواسم الحصاد لا يكفي سوى الخبز والجبن القديم والكِشك الناشف والبصل.

وقال ثالث: لا نأكل اللحوم إلا في الأعياد.

لكنه صرخ فيهم: لم أحرق القمح لأتحمل وحدي ما علينا.

وكان ما يفعله «غنوم الصابر» حين يأكل الفيضان الزرع يتناقله الناس من جيل إلى آخر، فقال رابع: عمك كان يعرف كيف يواجه المصائب.

فعاد إلى صراخه: لا شأن لي بعمي، لكل زمن ظروفه.

وصمت برهة، وقال: بعضكم يملك بقرة أو جاموسة أو أغنامًا، وهناك حميركم.

رد أحدهم: دونها لا يمكن أن نبقى أحياء.

وعبثًا حاولوا إقناعه بعجزهم عن سداد أي شيء، فانصرفوا كاسفي البال. لم يأتِ الصباح حتى كان كثيرون منهم قد هربوا من القرية.

بلغ الخبر السنجق الجديد «علي بن برقوق» فأتى على فرسه بين مائة من جنود المماليك المسلحين بالبنادق. قصد قصر «سلامة»، فوجد عنده «درويش» يواسيه. جلس بينهما على أريكة لينة، وأسند كوعه على حاشية من ريش النعام، وقال: تعرفان حرج موقفي، ولا بديل عن تسديد ما على الالتزام، والموعد بات على الأبواب.

كان يوجه كلامه لـ «سلامة»، الذي اصفرّ وجهه، وقال بصوت غارق

في الرجاء: أليست هناك طريقة لتسديد جزء هذه السنة، وتأجيل البقية للسنة المقبلة؟

هز السنجق رأسه نافيًا، وقال: الباب العالي زاد الخراج على مصر، وديوان الالتزام لن يرضى بتأجيل شيء.

وكان «سلامة» يعرف أن ما معه من مال وذهب لن يكفي لتسديد الخُمس فقط، فقال: أعطني فرصة لأبيع القصر بما فيه، وأدبر البقية.

ابتهج «درويش» لما سمع، وزاد ابتهاجه حين قال الحكمدار: أعتقد أنه من الصعوبة أن تجد مشتريًا في هذا الوقت الضيق.

هنا انبرى «درويش» وقال: المشتري موجود، وحريص على أن يُخرج «سلامة» من العثرة.

رفع «سلامة» رأسه، وكان مطرقًا في تفكير عميق، وسأل: مَن؟

بلع «درويش» ريقه، وكأنه يستعد لالتهام وجبة دسمة، وقال: أنا.

وقبل أن ينطق «سلامة» بكلمة، قال السنجق: لك الشكر على أي حال.

قدّر «سلامة» ثمن القصر، وغالى في هذا كثيرًا. وقدر «درويش» ثمنًا آخر، وكان أقل كثيرًا. وتمسك كل منهما بما قدّر، فقال السنجق: نقسم البلد نصفين، وهذا ما يفرضه التفاوض في الحرب والسياسة، كما هو في البيع والشراء.

لكن «سلامة» اشترط كي يوافق على البيع أن يتدخل السنجق لدى ديوان الالتزام ليؤجل المتبقي، وهو كثير، إلى العام المقبل. على

مضض وافق السنجق بعد أن قال له «درويش»، ليخفي جريمته تمامًا: البركة فيكم، ولن يبخل «سلامة» عليكم بالحلوان.

وكُتب عقد البيع، وشهد عليه السنجق وإمام المسجد، وأُمهل «سلامة» أسبوعًا كي يُخلي القصر لمَن اشتراه، ويعود إلى بيته القديم في شارع القرية الرئيسي.

كتب السنجق إلى «ديوان» الالتزام يستأذنه في تأجيل نصف المقرر على «سلامة» إلى موسم حصاد القمح المقبل، بعد أن أرسل إليه النصف الذي تحصل عليه، لكن طلبه قوبل بالرفض، وأُرسل إليه كتاب يطالب «سلامة» بتسديد ما عليه بعد شهر واحد، وإلا شحبت منه الأرض، وأُدخلت المزاد القادم، دون أن يُسقط هذا ما تبقى من أموال واجبة السداد، يمكن وقتها تقسيطها سنويًا، فإن تعثر «سلامة» في السداد، قُبض عليه، وأودع السجن، إلى أن يحصل أهل الحكم على ما قدّروه غير منقوص.

لجأ «سلامة» إلى «الصوابر» ليعينوه في محنته، لكن الدهر كان قد أناخ عليهم، فأعطوه ظهورهم، وقالوا: ليس لدينا سوى أرض قليلة، فإن بعناها تعرينا، وأصبحنا خدمًا في بيوت «الجوابر».

وقال له «إسماعيل» الابن الأكبر لـ «همام»: يا عم، لا يرضيك أن نتسول على الأبواب، وقد علّمنا أجدادنا أن الفرد في عائلتنا وجبت عليه التضحية من أجل الكل.

جاء المزاد في موعده، وكان «درويش» قد رتب كل شيء مع السنجق، فرست الأرض عليه. جاء الجند لتسليمها له ذات ضحى، والفلاحون يتقاطرون فرادى وجماعات على الجسر العالي، ينظرون

إلى الأرض التي يكسو الرماد أغلبها، ويفكرون في أيامهم القادمة مع سيدهم الجديد الذي يعرفون ظلمه وبخله جيدًا.

حين بلغه خبر تسليم الأرض إلى «درويش» غامت الدنيا في عيني «سلامة»، وكان في داره يسحب أنفاسًا متلاحقة من الأرجيلة في صمت. سقط مغشيًا عليه وسط دوامات الدخان. هرعت إليه زوجته الأولى التي كانت قريبة منه، هزته مرات، ولم يتحرك. رفعت يده إلى أعلى وتركتها لتتهاوى إلى جانبه. خرجت من صدرها صرخة مدوية، لفت القرية كلها، وأتت بالناس مسرعين.

دُفن «سلامة» في مقبرة العائلة، ووقف «درويش» إلى جانب أولاده وأولاد أخيه يتلقى عزاءه، متصنعًا الحزن، وكأنه للغائب ولي حميم.

لم يمضِ سوى أسبوع على موت «سلامة» حتى كان «درويش» في قصر السنجق حاملًا له هدية ثمينة، هي خنجر من الذهب الصافي، وثلاث صُرر من الفضة. وما إن أخذ الحكمدار ما أُهدي إليه باسمًا، حتى قال له «درويش»: من العدل أن تُسمّى قريتنا باسم كبيرها.

هز الحكمدار رأسه موافقًا، وتحولت «الصابرية» إلى «الجابرية». سجّل هذا في الخطط الرسمية، وأشار إليه خطيب الجمعة، داعيًا الله أن يجعل هذا الاسم مباركًا على أهل القرية، وأن يوفق سيدها، صاحب الالتزام، إلى ما فيه الخير والبركة. أما شيخ الزاوية فقد تلقى الخبر حزينًا، وقضى الليل كله أمام قبر «غنوم» يناجيه.

ضاق «الصوابر» بما جرى، وفي مقدمتهم أولاد «سلامة» و«همام»،

فاجتمعوا ليدبروا أمرهم. انقسموا بين مَن تشبثوا بالبقاء في المكان، معولين على الزمن الدوّار، وبين مَن رأوا أن عارًا شديدًا قد لحق بهم وأنهم لم يعودوا قادرين على رفع عيونهم في عيون الناس، وأن الرحيل هو القرار الأصوب.

علم «درويش» بما دار في اجتماعهم، وكانت له بين «الصوابر» عين منهم، فأحصى مَن قرروا الرحيل، وأرسل عارضًا عليهم شراء أراضيهم وبيوتهم، فوافقوا. لم يبخسهم الثمن، مكتفيًا بالزهو الذي ملأ صدره، والفخار الذي جلبه لأهله، الذين قالوا في الناس: خلعونا من هنا فخلعناهم، والعبرة بالنهاية.

مَن تمسكوا بالبقاء، كان عليهم أن يتحملوا نظرات الناس القاسية، والأقسى هو تضييق «درويش» الخناق عليهم، إذ راح يهدد الفلاحين حتى لا يؤجروا للعمل في أراضيهم. هدد النجارين والحدادين والمقرقرين ليتلكأوا في الاستجابة لهم إن احتاجوا إليهم. فاوض التجار حتى لا يشتروا غلتهم. أمعنت نساء «الجوابر» في الشماتة من نساء «الصوابر». تحرش العيال بالعيال في أوقات اللعب. لم يكن بقية الأهالي من النصارى واليهود وآل بخيت قادرين على مواساة «الصوابر» خوفًا من «درويش» وأهله.

توالت الأيام على «الصوابر» ثقيلة عصيبة، وصارت أرواحهم في أنوفهم. يستدعون ماضيهم حين يختلون في البيوت المغلقة، ويتحسرون على كبارهم الذين ضيّعوا من أيديهم كل شيء. سرت حكايتهم في أوصال القرى، فتغنى بها القوّالون على الرباب، وصارت حكاية رديفة للسيرة الهلالية.

وقال السامعون وهم يهزون رؤوسهم مع العزف المجروح: كأن «الصابر» أبو زيد الهلالي، وكأن «الجابر» دياب بن غانم.

(3)

قال «سالم» حين سمع الحكاية كاملة من «بسخرون»: لا خير فيّ إن تركت أهلي مقهورين.

وعزم على العودة إلى مسقط رأسه، ليجمع أهله، ويأتي بهم إلى حيث يعيش في بحبوحة. وبينما يستعد لهذا مرضت «روحية». توجعت ذات ليلة من رأسها، فعصرت الخادمات الليمون ودعكن به جبينها، لكن الوجع انتقل إلى جذعها. راحت تشكو من وهن قلبها، وثقل في معدتها، وألم في جنبها الأيمن.

وقال المُزيِّن بعد أن فحصها جيدًا: سأوصي لها ببعض العطارة، وعلى الله الشفاء.

لكن العطار لم يُصلح ما أفسده الدهر. كان مرض النهاية، الذي تكسل معه أعضاء الجسد في أداء وظائفها. شعرت هي بدنو الأجل، فاستدعت «سالم» بعد منتصف الليل، وكان ساهرًا في قلق عليها، وكان قلقها أشد بعد ما سمعت منه ما جرى لأهله هناك في الصعيد الجواني. مَثُل بين يديها منكسرًا، فقالت له بصوت واهن: تحتاج مواجهة الأشرار إلى حكمة.

ابتسم، وقال لها: رباني أبي «عويس» على تحسس موضع قدميّ جيدًا.

وأوصته بألا يذهب، إنما يرسل مَن يستدعيهم لزيارته، فلمّا يأتوا

ويجدوا ما هو فيه من نعمة، يمكنه وقتها أن يعرض عليهم البقاء معه، ثم قالت: أريد أن أترك الدنيا وأنا مطمئنة، ولا يرضيني سوى أن أدعك في عزوة، تعينك على قابل الأيام.

وأرسل «بسخرون» مرة أخرى، بعد أن عرّفه مَن يكون، فنزل إلى «الجابرية» ليلًا، وقصد بيت النجارين. هناك طلب منهم أن يدلوه على بيت «ربيع الصابر»، فلمّا طرقه فتحت «بديعة» له الباب، فقال لها: ضيف يقصد بيت الكرام.

نادت «ربيع» وكان يجلس وحيدًا في غرفة علوية، يستعد لسهرة جديدة مع زجاجة نبيذ. هبط لاعنًا في سره هذا الضيف الثقيل الذي أتى في وقت غير مناسب. فلمّا سمع منه، تهللت أساريره، ونظر إلى أمه وقال: أليس هذا أخي الضائع؟

قالت: يبدو هو.

لكن «بسخرون» قال وهو يدوس على الحروف: هو يا سيدتي.

سألته في توجس: هل عرف ما جرى لنا؟

- عرف كل شيء.

- لماذا لم يأتِ هو؟

- أنا رسوله إليكم، ويريدكم أن تأتوا إليه.

صمتت «بديعة» برهة، وقالت: لا أتخيل أن تكون لي حياة بعيدًا عن مكان لا أعرف في الدنيا غيره.

لكن «ربيع» قال بوجه تكسوه فرحة، لم يقدر على كتمها: أنا أجيء

معك.

ولمّا رأى «ربيع» ما فيه أخوه من نعمة، رضي أن يكون رسوله إلى «الصوابر» جميعًا، لكنه قال: بعضهم يعيش معنا في القرية، وهناك مَن تشتتوا في البلاد.

وضع «سالم» كفيه على منكبي «ربيع»، وداس عليهما، ثم قال في ثقة: لا يتوه مَن يسأل.

- أتقصد..؟

- نعم، نجمعهم من البلاد. أنا في حاجة شديدة إليهم.

وحتى يطمئنه، سأله: هل سمعت عن أفضال أبيك على الناس؟

مصمص شفتيه، وقال: ضعنا جميعًا من بعده.

ابتسم، وقال: اعتبرني مكانه. ما أنا فيه هو له، وكما كان ماله للصوابر في الزمن البعيد، يكون لهم الآن، ولأولادهم وأحفادهم من بعد.

جمع «ربيع» مَن تبقوا من رجال «الصوابر» في بيت «بديعة»، وشاورهم في الأمر، لكن أحدهم قال: هل مكتوب علينا الفناء من هذا المكان؟

نظر «ربيع» في وجوههم، وقال: البقاء مع الذل أوعر من الغربة.

ثم أردف، وهو يطيل النظر في عيون الرجال: لن تكون غربة لأن أخي يعرف كيف يعيد أهله إلى سابق مكانتهم.

عرضوا ما تبقى من أراضيهم وبيوتهم للبيع، فاشترى «درويش»

ما استملحه فيها، واشترى النصارى ما تبقى، وآلت بعض الأفدنة إلى «آل بخيت». أما «بديعة» فجمعت ما ادخرته واشترت فدانًا من الأرض قريبًا من الزاوية، وقالت: اذهبوا، أما أنا فسأبقى مع أهلي.

(4)

دخل الصوابر «الحجاني» عند الظهر. كان «سالم» في استقبالهم عند باب الحديقة، فاصطحبهم إلى قصره. بعد الغداء، الذي ذبح لأجله عجلي بقر، أخذهم إلى السطح. وقف أمامهم، وغمس إصبعه في البعيد، وقال: هذه أرض التزامي.

دار مكانه، غامسًا إصبعه في كل اتجاه، فلمّا صار قبالة «الحجاني»، قال: أوصيت الخولي بإخلاء بعض البيوت، إلى أن نبني لكم دورًا جديدة.

حين أشرقت شمس اليوم التالي، كان البناءون يتتابعون إلى القصر، منتظرين أمر «سالم»، فقال لهم: اخترت قطعة أرض ملاصقة لـ «الحجاني» سنبني فيها ثلاثين بيتًا.

مَن لم يرضَ أن يحل بديار غريبة، ضرب «سالم» له خيمة على مقربة من قصره، يعيش فيها مؤقتًا حتى يجهز بيته. في اليوم التالي حملت المراكب الأحجار من البر الشرقي. انهمك الفلاحون يصبون قوالب الطوب النيء. ذهبت جِمال إلى «المنيا» و«سمالوط» لشراء الأواني والخشب. انخرط النجارون يعدون الأسِرّة والخزائن والطاولات. لم يمر سوى شهرين حتى كانت بيوت «الصوابر» جاهزة، فانتقلوا إليها، متطلعين إلى عهد جديد في كنف ابن سيدهم.

شرع «سالم» في بناء قصر جديد له على الطرف الشمالي للجنينة، اختار له بقعة كانت خالية، حتى لا ينقص من أشجار الفاكهة شيئًا. فلمّا انتهى انتقل إليه مع زوجته «مباهج» وابنيه «عطاء الله» و«سعد الله»، وترك القصر القديم لـ «ربيع».

بنى زاوية فوق تلة ترى النيل، وأسكنها واحدًا من المجاذيب جاء ذات يوم إلى «الحجاني» يضرب على صدره بحجر صلد، ويطلق الأدعية والابتهالات، وهو يقول: أبو حجر المدد.. سيدي سيدي المدد.

كان «سالم» يختلي إليه ساعة من كل نهار، ينصت إلى أقواله الغريبة. استمع منه كثيرًا، وكان يقول كلامًا لا تعرف إن كان جدًا أم هذيانًا، فيشرد فيه طويلًا، ويقول: أسرار الكون لا تنتهي.

قام الرجل فجأة، ثم قال: شيخي دعاني، ولا أقدر على معصيته. وجال ببصره في أرجاء الزاوية، وقال: مكان يصلح لاعتكاف رجل واحد من نسل المجاذيب. ورفع خُرجه فوق عصاه، والتقط الحجر الذي كان ساكنًا إلى جواره، وقال: دعني أرحل. طلب منه أن يهديه دعوة صالحة قبل أن يرحل، فقال: كفاك الله شر مَن آويت.

فطن «سالم» إلى أنه يقصد «ربيع»، ففكر في طريقة لإصلاح حاله، وقال لنفسه: «قد يستقيم مَن يعول». واختلى بـ «ربيع» في اليوم التالي، وسأله في ود: ألم يحن وقت إتمام نصف دينك؟

رد في اقتصاب: اعتدت الوحدة.

ثم عدل عن قراره، وتزوج من ابنة أحد «الصوابر» اسمها «مكاسب»، وأنجب منها في خمس سنوات فقط «مالك» و«خليل»

و«زينب». أسند إليه «سالم» مسؤولية الجنينة، فكان يتجول فيها آخر النهار. يقضي الليل مع خمره وحشيشه، بصحبة ثلاثة رجال من أبناء «الحجاني»، ويستيقظ متكاسلًا، يلقي نظرات سريعة على ما قام به الرجال منذ البكور وحتى بعد الظهر، ويعود غير عابئ بما يجري.

ضاقت به زوجته فذهبت إلى «سالم»، وقالت: تعبت من حض أخيك على الاستقامة.

وكان قد تعب من قبلها في أن يثنيه عما يفعل، لا سيما بعد تراجع إيراد الجنينة في السنوات الأخيرة، فكان ينفجر فيه قائلًا: مال أبي، وأنا حر فيه.

صرخ في وجهه هذه المرة: ما أنت فيه نبت من مال أبيك، لكن الرجل الذي رباني زاده، وجئت أنا لأضيف إليه أرضًا جديدة، يجب أن نزيدها لأولادنا.

نظر إليه في استهانة، وقال: لي نصفه حسب الشرع، ويكفي أنك كنت مُنعّمًا هنا بينما أنا هناك أعافر ضيقًا لا ينتهي.

اقترب منه، وقال له بصوت حاسم: استهتارك ضيّع كل شيء في «الصابرية»، بل ضيّع اسمها، ولن أدعك تُفني ما بقي من إرث أبينا.

جمع «الصوابر» ليشهدوا عليه، فجاءوا يرجون «سالم» أن يعطيه فرصة أخرى، فاستجاب لهم. لكن «ربيع» لم يرجع إلى صوابه، استمر في معاملة الفلاحين بقسوة، ولم يُحسن عِشرة زوجته فعادت إلى بيت أبيها مع أبنائها.

فاتح «سالم» أهله في أمر «ربيع»، فقالوا له: لا يلومك أحد إن ألزمته حده.

لكنه كان قد اهتدى إلى الاستعانة بـ «بديعة»، فأرسل إليها «بسخرون» يستدعيها، ولو في زيارة قصيرة، فأتت ذات مساء. اصطحبها شيخ الخفر إلى قصر «سالم»، فباتت ليلتها، وفي الصباح انفرد بها، وقال: لا يعرف عيب أخي أكثر منكِ في هذه الدنيا.

زفرت في أسى، وقالت: أعرف أنه يثير المتاعب، لكنه أخوك، والظفر لا يخرج من اللحم.

اقترب منها، وقال متوسلًا: أرجوكِ يا خالة، ابقي هنا، إن لم يكن من أجلي، فمن أجل ابنك وأحفادك.

فكرت قليلًا، وقالت: وبيتي هناك؟

همت أن تنطق باسم «الجابرية»، لكنها بلعت الكلمة حزينة، وقالت: لا يزال قبر أبيك هناك.

ابتسم، وقال: قبر أبي وبيتك نداء دائم يدعونا إلى استعادة ما كان لنا هناك ذات يوم، أتمنى ألا يكون بعيدًا.

تأثرت «بديعة» بما سمعته، فمدت يدها إليه، وقالت: عدني ألا يبقى أبوك في قبره مخذولًا.

ثم فكرت قليلًا، وقالت: سأبقى هنا، وأعمل لأساعدك على تحقيق ما تسعى إليه.

ابتسم، وشد على يدها، وقال: ليتكِ تزرعين هذا الحلم في نفس

«ربيع»، فإن لم يتحقق في أيامنا حمله أولادنا وأحفادنا من بعد.

أبلغها أنه قد حكى لابنيه كل شيء، بعد أن طالهما الوعي، وقبل أن يرسلهما مع مرافق أمين للدراسة في الأزهر، وقال: لتبقى الرغبة في استعادة ما لنا حيّة.

نظرت إليه في امتنان، وتمنت لو كان هو ابنها، أو كان ابنها مثله، أو يتعلم منه شيئًا. آمنت في هذه اللحظة أن وجودها إلى جوار «سالم» واجب، فقالت له: أريد العودة لآتي بما تبقى معي من مال وذهب.

هز رأسه متعجبًا، فطمأنته: لا تقلق، خبأته في مكان لا يعرفه أحد.

أرسل معها «بسخرون» بصحبة ثلاثة رجال، ورجاها أن تعود سريعًا، فوعدته بهذا، لكنها لم تنسَ أن تقول له: كل ما أريده منك أن تدفنني إلى جوار والدك.

(5)

تموت بعض الأسرار برحيل الذين حفظوها في رؤوسهم فلم تبرحها. بعضها لا يطيق أصحابها عليها صبرًا فيهمسون بها لصديق أو صاحب. في الغالب فإن السر لم يعد سرًّا إن صار بين اثنين. هناك أسرار تُهتك لا بما ينطقه الذين يكتمونها، إنما بسكناتهم وحركاتهم التي يحصيها مَن يراقبونهم ويتعقبونهم بعناية.

لم يكن «درويش» بالرجل الغافل الذي لا يسعى وراء سر رحيل «الصوابر» طواعية عن «الجابرية». سأل في دقة، وتساقطت عنده الأخبار، فعرف وجهتهم. لكنه أراد أن يتأكد أنهم ذاهبون إلى التزام

ابن سيدهم في «المنيا» ولن يصعدوا إلى الجبل، ويُكوِّنوا عصابة من الفلاتية تهاجم «الجابرية» بغتة.

أرسل خلفهم شابًا من «الجوابر» مشهودًا له بالذكاء والفطنة اسمه «أدهم عبد البديع»، فركب النهر مثلهم، لكنه جعل بينه وبينهم مسافة حتى لا يلاحظونه. فلمّا نزلوا في مرسى «المنيا» كانت في انتظارهم قافلة من جِمال وبغال وحمير وأحصنة، حملتهم وأشياءهم إلى قصر «سالم». رآهم «أدهم» يدخلون الجنينة. عرف المكان جيدًا.

أهداه ذكاؤه إلى أن يصرف المكاري الذي أجّره من «المنيا»، واستأجر حمارًا من «الحجاني»، ظل طوال الطريق يسأل صاحبه، الذي كان يمشي خلفه، عن كل شيء، بعد أن وعده بأجر كبير. قدم نفسه للحمّار على أنه تاجر من «أسيوط» سيأتي في الموسم القادم لشراء فاكهة ومحاصيل. حين سأله الحمّار عن اسمه، أجابه في ثقة: زين الغنّامي.

عاد «أدهم» يسعى وراء «بديعة» بتكليف من «درويش»، الذي لم ينسَ أبدًا أن هذه المرأة، التي اشتعل رأسها شيبًا، قد صدته في الزمن البعيد، وكأنه كلب أجرب. فلمّا عادت لأخذ ما تركته من بقايا مالها، لم يكن في حاجة إلى تعقبها. قاوم رغبة في أن يستدعيها ليخبرها بأنه يعرف وجهتها. حسبها جيدًا، بعد أن انقسم بين إظهار اهتمامه بها بعد جريان كل هذه السنين، وبين ضرورة أن تذهب دون أن تعرف أن «الجوابر» قد عرفوا شيئًا عن التزام «الصوابر» الجديد. كالعادة، غلب عقله قلبه، فتركها تمضي هذه المرة، دون أن يرسل خلفها عسسًا.

(6)

شاركت «بديعة» في تربية أبناء «ربيع» مع زوجته «مكاسب». اختارت الكبير بينهم «مالك» لتسقيه حكمة جده. كان في صباه، فشرب حتى ارتوى. انتبه «سالم» إلى نجابته فأسند إليه مشاركة «سعيد» في منصب الخولي، فأظهر قدرة فائقة على معرفة أحوال الزرع والحساب.

كان «سالم» قد أوصى أخاه بإرسال ولديه إلى الأزهر، لكنه رفض، وقال: لا أريد لهم غربة عمنا «محفوظ».

لم يُقلع «ربيع» عن عاداته، حتى أكلت الخمر كبده، فسقط في إعياء شديد. في يومه الأخير، وجده «سالم» يقف على باب الزاوية، كان قد نحل واسود وجهه، قام إليه يأخذ يده في شفقة، وأجلسه إلى جانبه، فأتاه صوته واهنًا: خُلقتُ للهزل، وخُلقتَ أنت للجد.

استعاد «سالم» مع سمعه كثيرًا من «عويس»، وقال: كل منا يختار طريقه.

هز «ربيع» رأسه يمنة ويسرة، رافضًا ما سمع، وقال: العِرق دسّاس، أنت لأبي، وأنا لجدك الكبير.

ابتسم، وقال: أبلغتني أمك أن جدنا من المجاذيب.

أراد أن يقهقه، لكن قدرته خانته، فاكتفى بهز صدره، وعلى شفتيه ابتسامة، وقال: كان غريبًا، زاوج بين الجد والهزل، وهذه قدرة لا يؤتاها رجل نصفه من «آل بخيت».

وطلب «ربيع» من «سالم» أن يؤمه في ركعتين، فنهض فرحًا بما

يريده أخوه. قرأ آيات من سورة «يوسف»، وحين قام من السجدة الثانية، وجده لا يزال ساجدًا، فلمّا انتهى من قراءة التشهد سريعًا، مد يده إليه فوجده قد فارق الحياة.

دُفن «ربيع» إلى جانب «عويس» في طرف الجنينة. أقام له «سالم» سرادقًا كبيرًا، جاءه الناس معزين من كل مكان.

لم يمضِ سوى أسبوع واحد حتى ماتت «بديعة» وقت الغروب، بعد أن اطمأنت على أحفادها في كنف عمهم الكريم الأمين.

احتار «سالم» كيف ينقل جثمانها كل هذه المسافة التي تقطعها المراكب في أسبوع على الأقل، دون أن يفوح منه العفن. أشار عليه المُزيِّن أن تُغمس جثتها تمامًا في صندوق مملوء بالملح، وأن يُحكم إغلاقه، ثم يلف الصندوق بقماش سميك، ويغطيه تمامًا بثوب من الحرير، يربطه جيدًا، حتى لا يتسلل إليه الهواء، فامتثل لما سمعه. طلب من زوجته وزوجة «ربيع» أن يُملحا جثتها على هذا النحو بعد الغُسل، وزاد عليه إفراغ ثلاث زجاجات من العطر على الصندوق من كل جانب. حملته عربة كارو تجرها الخيول إلى النيل. وضعه الرجال في مركب شراعي استأجره «سالم»، ثم جلسوا حول الجثة، وانطلق المركب إلى الجنوب.

كان حزن «سالم» على «بديعة» يطغى على فرحته برؤية مسقط رأسه، وعلى خوفه من لقاء «الجوابر» وجهًا لوجه بعد كل هذه السنين. لكن الحكمة التي كانت تسكن رأس رجل كسر السبعين من عمره، رسمت له معالم الطريق الذي لا بد له من أن يسلكه.

أوقف المركب قبالة «الجابرية»، وطلب من الرجال أن يمدوا

السقالات إلى الشاطئ، فلمّا أنزلوا الصندوق واقفين حوله، أرسل أحدهم إلى «درويش» يستأذنه في الدخول. ما إن أبلغ الرسول «درويش» النبأ، حتى هبّ واقفًا. سرت في أوصاله رعدة، كادت تخور لها ساقاه. تحدرت من عينيه دموع، وقال بصوت غارق في الأسى: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ركب فرسته، وأعطى رسول «سالم» مثلها حتى بلغ النهر، وثالثة لابنه «مصطفى». لم يكن يصعب على رجل مثله أن يعرف غريمه بعد كل هذه السنين. رآه جالسًا على حجر مستوٍ جلبه له رجاله، وهم يفترشون الأرض حوله، فترجّل، ومشى إليه مادًّا يده، وهو يقول: لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم.

أمهله قليلًا حتى يشيع الخبر في «الجابرية» فتكون للمرحومة جنازة تليق بها. أرسل «مصطفى» فجمع الناس. جاءوا من البيوت والحقول، يتقدمهم إمام المسجد. فلمّا وصلوا، قال «درويش»: نقيم صلاة الجنازة عليها هنا. اصطف الفلاحون، يتقدمهم «الجوابر»، فلما فرغوا من الصلاة، طلب «درويش» من «سالم» أن يمتطي فرس رسوله. ركبا أمام الجنازة، حتى بلغوا الزاوية، لتدفن «بديعة» حيث أرادت.

أمر «درويش» البنائين أن يقيموا لها شاهدًا، وقال: كانت سيدة طاهرة عفيفة، يليق بها مجاورة الصالحين.

وارى جثمان «بديعة» الثرى، وجلس الغريمان يقرآن الفاتحة على روحها، ثم انتقلا لقراءتها مرة أخرى عند قبري «الصابر» و«الجابر»، فلمّا فرغا، قال «سالم» لـ «درويش» بصوت غارق في الرجاء: لي

طلب عندك يا سيد «درويش».

رفع رأسه إليه منتظرًا ما يسمعه، فقال: يبقى بيت «بديعة» كما هو، فربما أراد أحفادها زيارته.

هز رأسه موافقًا، فلاحقه بالطلب الثاني: أريد أن أجلس ولو قليلًا في قصرك الذي كان لأبي.

سكت «درويش» برهة، ولم يكن يتوقع الطلب، وقال: تحل فيه ضيفًا مع رجالك حتى يزول التعب، فليس من المناسب أن تقطعا الطريق صدًا ردًا.

وكان القصر خاليًا، إلا من ثلاثة خدم وجاريتين، يذهب إليه «درويش» مرة واحدة في الأسبوع، لينام في مخدع «بديعة» كشيخ طاعن في السن. دخله «سالم» ورجاله، وجلسوا في البهو. جيء لهم بالماء البارد والقرفة، وانخرط الطبّاخون، الذين جلبهم «درويش» من قصره الآخر، في إعداد الطعام.

كانت «بديعة» قد وصفت القصر جيدًا لـ «سالم» حتى جعلته يراه. ترك رجاله، وراح يتجول في أروقته. دخل غرفة أبيه، يتشمم رائحته. سمع صوت «مسعدة»، الذي لم يستقر أبدًا في ذاكرته، لكن صوت أمه وأبيه كان أوضح. شعر بأنهما يريانه، بل يراهما. وجد نفسه يفتح صدره، لتطل الكف الحمراء، ومدها في كل اتجاه ليعرفاه، وتمنى لو دخلا عليه من الباب واحتضناه بشوق جارف، ثم أوصياه بأن يعود.

أراد «الصوابر» الذين كانوا بصحبة «سالم» أن يتجولوا في القرية

فأذن لهم «درويش» على مضض. أرسل معهم خفره. غبّروا أقدامهم في تراب شوارعها. ذهب كل منهم إلى داره التي خرج منها، وقف أمامها، واستأذن صاحبها الجديد في الدخول، فأذن له، وأعطاه حق الضيافة من شراب ومصافحة وابتسامات. انطلقوا على الجسر العالي الذي أقامه «الصابر»، وراحوا يشيرون إلى أراضيهم التي راحت، فرفع الفلاحون إليهم أيديهم مرحبين.

في اليوم الثالث، أرسل «سالم» إلى «درويش» مستئذنًا في الانصراف، فأتى إليه على فرسه مسرعًا. ترجل وسأله: لِمَ تتعجل الرجوع؟

ابتسم، وهو يشد على يده، وقال: كرمك معي دَين في عنقي.

لم يكن يدري وقتها أن روح «بديعة» التي سكنت «درويش» في الزمن البعيد، هي مَن جعلته يلين هكذا، حتى تعجب «الجوابر» مما جرى لسيدهم، وضرب بعضهم كفًّا بكف، وقالوا: لله في خلقه شؤون.

(7)

ظل «سالم» في رحلة العودة واجمًا أغلب الوقت. نعم لم يكن قلبه قبل المجيء إلى «الجابرية» مملوءًا بحنق الثأر وحقده، لكنه كان مشغولًا بالعودة إلى الديار التي خطفه منها أحد رجال «الجوابر»، وحرم أبوه منه حتى مات حزينًا على ضياعه.

ها هو قد عاد، وجلس ونام في قصر أبيه، وقرأ الفاتحة أمام قبره، لكنها عودة الضيف أو عابر السبيل. سأل نفسه بصوت تناهى إلى سمع مَن حوله: هل في العمر بقية لعودة انتظرتها؟

تبادل الرجال النظرات، لكن أحدًا منهم لم ينطق، وإن كان قد وصلهم ما يحل في نفس سيدهم من هموم، أرجعوها إلى حزنه على فراق امرأة كان يعتبرها بمنزلة أمه الثالثة.

لم يمضِ سوى شهر واحد، حتى شعر «سالم» ذات ليلة بثقل في صدره. طلب من الخدم أن يسندوه إلى مخدعه. تمدد وأمرهم بالانصراف. جاءت «مباهج» ملهوفة حين أبلغها الخدم. نظر إليها، وسأل: ما رأيكِ في «مكاسب»؟

أجابت على الفور: أختي التي لم تلدها أمي.

هز رأسه، وقال: الحمد لله.

ثم أخذ يدها في يده، وقال: إن كان «ربيع» مستهترًا فقد وهبنا الله من صلبه رجلًا يُعتمد عليه.

أمّنت على كلامه، وقالت: أخ لولديك، وبينهم محبة غامرة.

سكت برهة، وقال: تمنيت لو كان «عطا الله» و«سعد الله» هنا، لكن المحروسة أخذتهما كما أخذت عمي.

ابتسمت، وقالت: طلبا العلم وناله، ولا ينقصهما إلا زوجتين صالحتين.

تاه قليلًا، ووضع يده على صدره، وقال لها: أريد الذهاب إلى الزاوية.

جفلت من طلبه، وقالت: لتسترح الليلة، ولتذهب إليها عند الفجر.

لكنه ألح في طلبه، فأرسلت إلى «سعيد» و«مالك» فأتيا مسرعَين.

اصطحباه إلى الزاوية. أجلساه برفق، وأسندا ظهره إلى الجدار. صمت قليلًا، وقال لـ «سعيد»: لم يترك أبوك أبي «عويس»، فلا تترك أنت ابنيّ، وارعَ الأرض مع «مالك».

جزع «سعيد»، وقال: أمدّ الله في عمرك يا سيدنا، لنجتمع في وجودك على الخير والبركة.

وتلقف يد «مالك»، وداس عليها، بكل ما أوتي من قوة، وقال: لا تنسَ وصية جدتك.

هز رأسه، وقال: كل «الصوابر» لا يمكنهم نسيان وصيتها.

وغام وجها «سعيد» و«مالك» في عينَي «سالم»، ونطق الشهادة، ثم أسلم روحه لبارئها.

(8)

حسبت «مباهج» أن ابنيها قد صارا عالمين كبيرين بالأزهر. كانا يهبطان إلى قرية «الحجاني» مرتين في السنة، يرتديان قفطان الأزهر وعمامته، فلم يكن لمخلها أن ترى أبعد من هذا المظهر الجليل في نفسها. أما الحقيقة فكان لها شأن آخر.

برع «سعد الله» في تلقي العلوم، وشهد له شيوخه بالنبوغ، وكان بعضهم يترك له عموده بعض الوقت ليُعلّم مَن هم في مثل سنه. أما «عطا الله» فلم يكن يُحسن الحفظ والفهم، ولم يتقدم إلى حيث بلغ أخوه.

لكن «سعد الله» لم يكشف أمر أخيه أمام أبيه وأمه، وكانا يقتسمان ما يحصلان عليه من نقود كلما هبطا إلى القرية، أو جاء إليهما رسول

أبيهم بالزاد والمال. فلمّا مات «سالم»، اختلى «سعد الله» بأخيه، وقال: الأرض تحتاج إلى مَن يرعاها.

صمت «عطا الله» برهة، وقال: البركة في ابن عمك.

لكن «سعد الله» رفض أن يعيشا عالة على مَن يكدح نهارًا وليلًا، فقال متودّدًا لأخيه: داريت حالك، لكن أجد نفسي الآن في حِل من الكتمان.

أبلغ أمه بما انتهى إليه وأخيه في طلب العلم، فأسفت لحال «عطا الله»، لكنه قال: شاء الله أن يكون له مسار لا يقل خيرًا عن طلب العلم، وما حصله في الأزهر من القراءة والكتابة والحساب، يُعينه على العمل هنا، ويُميزه عن كثير من أصحاب الالتزام.

اقتنع «عطا الله» بالبقاء في «الحجاني»، لا سيما بعد أن رأى «زينب» ابنة عمه في هيئة بالغة الجمال. أخذت من «بديعة» استدارتها وليونتها وعينيها الخضراوين، وأخذت من أمها حلاوة الملامح، وبياض البشرة.

تزوج «عطا الله» من «زينب»، وأنجب منها «فالح» و«رفيدة». أما «سعد الله» فقد راقت له فتاة من «الجمالية» فتزوجها، وأنجب منها «محمد» و«خديجة»، بعد أن سكن بيتًا واسعًا بجوار الأزهر.

وتزوج «مالك» من ابنة أحد «الصوابر»، فسعدت كثيرًا بانتقالها إلى القصر، وأنجبت ولدًا سماه أبوه «عبد الرحمن».

مضت الأحوال طيبة. يتعاون «مالك» و«عطا الله» في الإشراف على الالتزام. تتعزز مكانة «سعد الله» بين أهل العلم، حتى صار له

عموده، وكم كان يسعده أن يقول له أكبر العلماء سنًا في الأزهر: تعلمت طفلًا على يد جدك «محفوظ».. لحقت به في سنته الأخيرة، كان عالمًا متبحرًا، ورجلًا متواضعًا أصيل الحسب والنسب، يجري الخير بين يديه، والعلم على لسانه.

حرص «سعد الله» في إحدى زياراته إلى «الحجاني» على توسيع المسجد القديم. أقام فوق سطحه كُتابًا لتحفيظ أطفال القرية القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ الحساب والفقه. استقدم لهذه المهمة شيخين من «المنيا»، أحدهما كان من مريدي «الفولي»، وأقنعهما بالبقاء في القرية حتى يكونا قريبين من تلاميذ العلم. اشترك «عطا الله» و«مالك» في بناء بيتين لأسرتيهما. وبنى «مالك» إلى جوار المسجد حوض مياه من الحجر، ظليت جدرانه الخارجية بالجص، وجعل له سقفًا من الخشب، إلا من فتحة لها غطاء من حديد. جعل عشرة رجال ينقطعون لملئه من النيل. اشترى لهم عربة كارو يجرها بغل عفي، فكانوا يقضون النهار في حمل المياه، لتأخذ كل امرأة إلى بيتها منه ما تشاء، بعد تعبهن الطويل في السقاية، حين كانت الواحدة منهن تتردد غير مرة كل يوم على النهر لتملأ بلاصها، وتسكبه في زير يقف في مدخل البيت.

كما بنى «مالك» سورًا من الحجر في الجهة الشرقية لأرض الالتزام حتى يحميها من الفيضان إن أتى، وقال بعد أن انتهى البناءون من عملهم: هو بديل للجسر العالي الذي أقامه جدنا «غنوم الصابر» ذات يوم بعيد.

(9)

لم يمضِ على زيارة «سالم» لقرية «الجابرية» سوى شهر واحد، حتى مات «درويش» في الخريف، وسار الناس وراء جنازته يكتمون البهجة في صدورهم، وقبلوا على مضض دفنه في قبر إلى جوار أبيه «إبراهيم». وآل الالتزام إلى «مصطفى»، وكان عربيدًا أشد قسوة من أبيه، فأذاق الفلاحين طعم الظلم والقهر أضعافًا مضاعفة. حتى أهله من «الجوابر» لم يسلموا من صلفه وطول لسانه.

اشترى ثلاث جوارٍ من سوق الجلّابة، كن حسناوات قادمات من بلاد القوقاز، وهجر زوجتيه اللتين فعلتا كل شيء في سبيل إنجاب ولد، لكن سعيهما خاب. كانت الأولى منهما قد أنجبت «جواهر»، ثم انقطع خلفها. أما الثانية فلم تحمل قط. وعبثًا حاولتا دفعه إلى العطارين لعله يجد لديهم ما تطلبان، لكنه أبى، وقال للأولى: لا يعيبني شيء، وابنتي خير برهان، اللهم إلا إذا كانت ابنة حرام.

صرخت في وجهه: اخرس، أنا أشرف من الشرف نفسه.

لطمها على وجهها، وقال: لا يعيب الرجل سوى عجزه عن وطء النساء.

غرق في الملذات ليل نهار، وأجزل العطاء للسنجق، وانتظم في إرسال الحلوان كل سنة إلى «ديوان الالتزام». حمّل كل هذا على عاتق الفلاحين، الذين كانوا يعرقون في الأرض بلا هوادة، في سبيل أن يوفروا ما يملأ بطونهم طعامًا خشنًا.

فر بعض الفلاحين من «الجابرية» باحثين عن ملتزم آخر، لكن «مصطفى» جلب غيرهم من بلدان مجاورة، وكانوا أجراء بلا أرض، فرضوا بما وجدوه صابرين.

لم يعبأ «مصطفى» بتآكل الجسر العالي من أطرافه، ومن ممشاه العلوي، بعد أن كنست الريح كثيرًا من ترابه. فلما جاء الفيضان غزيرًا، اعتلى الجسر. وعبثًا حاول الفلاحون أن يزموا الماء بعيدًا عن زروعهم فغرقت قبيل حصادها، لكن «مصطفى» لم يرحمهم. ألزمهم بأن يؤدوا ما عليهم كاملًا. لم يُنصت إلى استرحامهم الممزوج بالبكاء والانكسار، فاضطروا إلى بيع مواشيهم وأغنامهم وحميرهم. مَن كان قد اشترى قطعة خلي لزوجته استردها وباعها.

كانوا يعولون على انحسار الماء، لتعود الأرض عفية بما شربته من طمي، فيجدوا عوضًا في موسم الحصاد الجديد. انحسر الماء شرق الجسر، وعاد إلى مجرى النهر المعتاد. أما غربه فقد ركد. صده الجسر، وصار بركًا آسنة، تسكنها الضفادع والبعوض والذباب.

لم يجدوا سبيلًا لرد الماء الراكد إلى النهر سوى قطع الجسر. مزقوه في أماكن كثيرة، تتوالى على قدر طول أرض الالتزام. صنعوا زحافات من الجريد، ربطوها فوق ظهورهم، وراحوا يدلونها حتى تحط فوق الطين ثم سحبوا الماء والطمي الذائب فيه إلى الشرق.

قضوا شهرًا كاملًا يكدحون نهارًا وليلًا حتى انجلى وجه الأرض. حين عادوا إلى زراعتها نبت زرعهم ضعيفًا هذه المرة. كانوا قد باعوا أغلب بهائمهم، فلم يعد في حظائرهم سماد بلدي. لجأوا إلى «مصطفى» شاكين، فقال لهم: أجلب لكم السماد من قرى مجاورة، وأقيّد أثمانه على زرعكم الجديد.

لم يكن أمامهم بد من القبول، فأرهقوا أنفسهم بديون جديدة. حين أدرك بعضهم أن زرعه لن يقدر على سداد ما عليه، أخذ زوجته

وأولاده ليلًا، وفر من «الجابرية» دون أن يقف برهة لينظر إلى بيوتها الخفيضة التي تنيخ تحت النخيل.

أدرك «الجوابر» أن ترك الأمر لسيدهم الجديد سيلحقهم بـ «الصوابر»، فاجتمعوا ذات ليلة في دار «عبد البديع»، وكان أكبرهم سنًا. انتهوا إلى مكاتبة السنجق لينقل الالتزام إلى أحد منهم غير «مصطفى». لكن الأخير قد بلغه ما يعتزمون فعله، فدخل عليهم غاضبًا والخمر تثقل رأسه ولسانه، بصحبة خفره، وقال: اللعنة على الخائنين.

نهض «عبد البديع» متكئًا على عصاه، وقال له في غضب أشد: الخائن هو مَن يُضيِّع أهله.

رد في اشمئزاز: ما يضيعكم سوى التآمر.

مشى «عبد البديع» نحوه وسأله: هل جئت بخفرك لتهديد أهلك؟

قهقه، وقال: لا أحتاج إلى أحد لمواجهة أنصاف الرجال.

اكتسى وجه المجتمعين من «الجوابر» بالغضب. نظروا إلى «عبد البديع» لعله يرد عنهم الإهانة، فلم يجد سبيلًا إلى هذا سوى البصق على وجه «مصطفى». وقبل أن يهم الرجال ليحولوا بينهما، كان «مصطفى» قد أخرج خنجره ودقه في صدر «عبد البديع» فسقط وسط دمه في سرعة خاطفة، وسط ذهول الجميع.

وقف الخفر عاجزين، لا يدرون ما يفعلون، وبنادقهم معلقة في أكتافهم، فصرخ فيهم أحد «الجوابر»: اخرجوا، وإلا صار ثأرنا معكم.

ارتبكوا، ونظروا إلى «مصطفى»، الذي كان يقف مذهولًا، لا يدري

كيف فعل هذا، وخرجوا تباعًا. وبينما كانت عينا «مصطفى» تحطان على بقعة الدم التي تنداح تحت الجثة الهامدة، ويده ترتعش، هجم عليه ثلاثة رجال، وجردوه من سلاحه. نزع رابع كوفيته، وهمّ أن يربط يديه من خلاف، لكن «مصطفى» كان قد عاد من ذهوله، فأخذ يقاوم، وهو يسب ويعلن ويبصق. تكاثر الرجال عليه، وربطوا يديه وقدميه، وألقوا به في ركن المجلس.

تركوه مكانه في حراسة رجال منهم. حملوا جثة «عبد البديع» لغسله ودفنه، فلمّا فرغوا من هذا، عادوا ليجدوا «مصطفى» يرغي ويزبد، ويمد أذنيه ليسمع تشاور الرجال حول مصيره. منهم مَن قال: القاتل يُقتل.

لكن أحدهم قال: لا تنسوا أنه منا، ولا نريد أن يُقال إن «الجوابر» قد قتلوا رجلًا منهم، كان كبيرهم.

انتهوا إلى طرده من «الجابرية»، فإن حاول العودة إليها يُقتل، فوافق على هذا الحُكم، واشترط أن يخرج بزوجتيه وجواريه وماله. جاءه الرد من الرجال بعد تشاورهم ثانية: لك نساؤك، ولنا مالك، نُصلح به الأرض التي أفسدها إهمالك وظُلمك.

لكن أحدهم، قال: لا تنسوا أن زوجتيه وابنته منا، ومن العار أن نجعلهم يمدون أيديهم إلى الناس.

جردوا ما بحوزته من نقود وذهب، وأعطوه الخُمس، وسألوه عن الوجهة التي يريدها، فقال على الفور: المحروسة.

تبادلوا النظرات مستغربين من اختياره، فقال لهم: قاتل ظالم مثلي

يحتاج في أيامه الأخيرة إلى مجاورة سيدنا الحسين.

(10)

استقبلت «القاهرة» في صبح يوم غائم «مصطفى» وزوجتيه وابنته وجواريه. استأجر بيتًا خلف مسجد «الحسين»، لم يكن يسعه وكل هؤلاء النسوة، فاصطحب جواريه في اليوم التالي إلى سوق الجلّابة، فباع لمَن دفع، وعاد يفكر كيف يدبر عيشه في قابل أيامه بما تبقى له من مال.

جمع زوجتيه ذات صباح، ليطلعهما على ما فكر فيه، وقال: لا أعرف كيف تمضي بنا حياة ضيقة لم نعتدها.

قالت الأولى، وهي أم البنت: لم تشك إحدانا سوء العيش.

أطرق برهة، وقال: أقدر الضيق الذي حلّ بنا، ولا أحتاج إلى شكوى.

واستفهما منه عما يريد فعله، فقال: رحلة واحدة، إما أصابت أو خابت.

ركب النهر ليلًا إلى الصعيد الجواني. هبط من المركب، واستأجر فرسًا، ركبه إلى قصر السنجق، الذي ما إن رآه، حتى سأله: هل أنت قادم من «الجابرية»؟

أجابه بعينين كسيرتين: لا بد أنه قد بلغك أنهم سيقتلونني إن غُبرت قدماي بتراب أي شارع منها.

رفت ابتسامة فاترة على شفتي السنجق، وقال: إذا كان الأمر

كذلك، فماذا بوسعي أن أفعل لك؟

قال وهو يتودد إليه: عشمي أن تسندني.

سكت برهة، وسأله: ماذا تريد؟

قال باستجداء: يعيدني جنودك إلى قصري، وأتسلم التزامي، ولك الحلوان.

هز السنجق رأسه، وقال في جدية: فات الأوان.

وعبثًا حاول أن يقنعه، لكن السنجق كان قد رتب الأمر مع «الجوابر»، وحصل على حلوان كبير، ولم يجد ما يقوله له سوى ما أطلق الفزع أكثر في أوصال «مصطفى»: بوسعك أن تدخل المزاد القادم، فإن رسا عليك، مكنتك من العودة.

عاد «مصطفى» إلى المحروسة خائبًا، فما تبقى معه من مال لا يكفي لدخول المزاد، ولا يعرف سبيلًا لإكمال ما ينقص، فليس له في «المحروسة» أهل، ولا أحد من ملتزمي المناطق المجاورة لقريته، التي طُرد منها، سيقرضه فيخسر «الجوابر»، وقد يُغضب السنجق.

آل الالتزام إلى «أدهم عبد البديع»، وكان أقدر رجل في «الجوابر» على إدارة شؤون الزراعة، كما رأى أهله أن هذا يعوضه عن قتل أبيه. اعتمد السنجق «علي بن برقوق» اختيارهم، على أن يدخل مَن اختاروه مزاد السنة القادمة.

(11)

كان «أدهم» عند حسن ظن «الجوابر»، فأقبل على إصلاح أرض

الالتزام من المال الذي صادروه من «مصطفى». طلب من المسّاح أن يعيد قياس الأرض بعد أن ذوّب الماء حدودها، ليعرف كل مزارع أرضه. أعاد ترميم الجسر وتعليته، ليتقي هجوم الفيضان القادم.

بعد انقضاء موسم الحصاد، وتسليم مخصصات الالتزام، جمع الفلاحين، وقال لهم: لا بد من عمران بيوتكم الخاوية. فتطلعوا إليه فرحين، وظن كل منهم أنه سيفتح الشونة ليعطيهم بعض ما فيها من غلة، كما عرفوا عن «غنوم الصابر»، وتناقلته الحكايات فوق المصاطب، لكنه كان أبعد نظرًا، فاشترى لكل فلاح عجلة جاموس يربيها، على أن يكون للفلاح الثلثين وللملتزم الثلث من بيع وليدها حين يكبر. قال لهم: لا يبدد أي منكم ثلثيه، بل يشتري به نعجة أو عنزة. لم تمضِ سوى خمس سنوات، حتى عمرت البيوت بالضأن.

بنى «أدهم» مسجدًا جديدًا، بعد أن اشتكى الناس من تداعي جدران مسجدهم القديم. عمّر الزاوية، التي كان ينقطع للعبادة فيها مجذوب جديد اسمه «مبارك البقلي»، يقال إنه كان يجاور مسجد «أبي حسن الشاذلي» في «عيذاب».

(12)

لم يُغيّر «مصطفى» عاداته، وإن كان قد قلل مرات الشراب. عرف الحانات الرخيصة التي تقدم البوظة، فكان يعب ثلاث قرعات حتى يسكر، ويعود إلى بيته مترنحًا. نبهته زوجتاه مرارًا إلى أن المال يقل مع الأيام، ولا يعرفان كيف تمضي بهما الحياة إن نفد.

قالت له أم «جواهر»: بنتك صارت عروسًا، ولن يتقدم إليها مَن يراك سكيرًا معدمًا.

ترك البيت في عصر يوم ثلاثاء، ودخل مسجد «الحسين»، فوجد جمعًا من المريدين، يجلسون في صفين متقابلين، وبينهما رجل بهي الطلعة اسمه «أبو العينين» يقرأ من كتاب وردًا. وقف على الحافة ينظر إليهم، فقال له الرجل: تعالَ.

مد الرجل يده، فسار «مصطفى» نحوه، ثم أشار إليه أن يجلس في الصف الأيمن، فأفسح له الرجال مكانًا. كانوا يرددون ما لا يعرفه مع الشيخ، فحرك شفتيه كأنه ينطق مثلهم. لم يكن يعرف معنى كل ما يسمع، لكنه شعر به يسري في أوصاله، ففاضت عيناه بالدمع. فلمّا أشار الشيخ إلى الجالسين أن ينهضوا نهض معهم، وبدأت الحضرة. راح يتطوح يمنة ويسرة، وهو يردد: «الله حي.. الله حي»، حتى انخطف، فلم يعد يدري أين هو!

بعد انقضاء الحضرة، استمهله الشيخ، وانفرد به، وقال: باب الله مفتوح دومًا، لا يُغلق في وجه مَن يطرقه.

أجهش بالبكاء، وقال: دمي خمر يا مولانا.

ابتسم الشيخ، وقال: ابقَ معنا، لتسكر بلا خمر.

اعتاد الذهاب إلى الحضرة، وتراجعت مرات زيارته للحانة، حتى جفل منها. ذات يوم سأله الشيخ: هل تريد ملازمتنا؟

تهلل وجهه فرحًا، وقال: طبعًا يا مولانا.

شد على يده، وقال: لسنا مقطوعين للذكر، إنما انقطاعنا أكبر للذكر الأكبر.

نظر إليه مستفهمًا، فواصل الشيخ: الكد فوق الذِّكر.

طأطأ رأسه خجلًا، وأدرك أن الشيخ يعرف ما هو فيه، فقال بصوت خفيض: مالي نفد، وورائي مَن أعول.

ألحقه «أبو العينين» بدكان عطارة يملكه أحد مريديه، فواظب على العمل، دون أن يحرم نفسه من مرة واحدة كل شهر يذهب فيها إلى الحانة. ذات مرة كان خارجًا منها يترنح فتحرش به صبية كانوا ساهرين على ناصية الحارة. عبثوا به كأنه لعبة رخيصة، وزفوه حتى بلغ بيته.

نظرت ابنته من وراء المشربية فرأته ألعوبة تتهاوى في غبشة الفجر بين أيدي العابثين. فلمّا صعد إلى البيت، قابلته في الصالة، وقالت له وهي تغالب البكاء: حين تفيق لي معك عتاب.

وكان نصف الخمر قد طار من رأسه والصبية يتجاذبونه، فقال لها: هاتي ما عندك.

أطارت النصف الآخر حين فجعته: إن لم تقلع عما أنت فيه سأترك البيت.

قال لها مستعطفًا: احتاج أحيانًا إلى نسيان ما كان.

لكنها ضربته بالسيف الذي لا مرد لحكمه، فقالت: عهدتك رجلًا، والرجال لا ينكسرون.

غاص في نفسه حزينًا، وقال: أعاهدكِ على أن تري مني ما تفخرين به.

كان قد ادخر بعض المال من عمله في دكان العطار، فأولم للشيخ وبعض مريديه. جاءوا بعد صلاة العشاء، أكلوا وأقاموا حضرة في صالة البيت. حين انتهوا مد الشيخ يده وأخذ يد «مصطفى»، وقال: الآن تعاهدني.

قرأ خلفه العهد، وأقسم ألا يخونه، فطلّق حياة الماضي إلى غير رجعة، وانخرط في العمل والذكر، متساميًا على الأحقاد التي كانت تغزوه بين حين وآخر، كلما تذكر أيام أن كان وجيهًا مقتدرًا في قلب التزامه.

كان يعمل معه في دكان العطارة شاب من مريدي الشيخ اسمه «حمزة»، رأى «جواهر» ذات مرة حين أتت إليه تطلب المغات والمرمية لأمها التي تشكو وجعًا في بطنها. كان وجهها مختبئًا خلف البرقع، الذي أظهر جمال عينيها، لكنها حين مالت لتلتقط قرطاس نعناع سقط من يد أبيها على الأرض، لمح كامل وجهها، فراق له حسنها. لم يمر سوى أسبوع حتى ذهب إلى بيت «مصطفى» خاطبًا ابنته. بارك الشيخ الخطبة، التي استمرت شهرين فقط، بعدها انتقلت «جواهر» إلى بيت زوجها. سعد «مصطفى» بزواج ابنته، وقال لزوجتيه: خفتما أن يحرمها عبثي من زوج صالح.

قالت أم «جواهر»: أرسلك الله إلى الشيخ في الوقت المناسب.

سعد «مصطفى» أكثر بحفيدته «فردوس»، فكان يقضي معها أول الليل يلاعبها، ثم يهجع إلى مخدعه ليستيقظ في البكور إلى دكان العطارة. تاق إلى أن تنجب ابنته ولدًا، وفق عادة تربى عليها، لكن أجله انقضى دون أن يرى غير البنت، وهي تكبر أمامه، ويستدير

جسدها على نحو غاية في اللطف والليونة.

عاشت أم بنته بعده عامًا، ثم ماتت يوم جمعة من شهر رمضان. فرغت الدار على زوجته الثانية، لكن «جواهر» عرضت عليها أن تنتقل للعيش معها، فوافقت. تولت رعاية «فردوس»، تنقل إلى رأسها ما رسخ في ذهنها وقلبها من حكمة، فأنضجتها قبل الأوان فتاة عارفة بتصاريف الحياة، ثم ماتت مطمئنة إلى صلاح الزرع الذي غرسته.

(13)

كان بيت «حمزة» يقف ضيقًا خفيضًا إلى جوار بيت «سعد الله»، الذي كان من طابقين فسيح الأرجاء، أمامه فسحة تتوسطها فسقية يندفع منها الماء، وعلى جانبيها أشجار دقن الباشا، تزقزق فوق أغصانها العصافير من الفجر حتى المغرب.

كان يحلو لابن «سعد الله» وبنته، اللعب في الفسحة لاسيما أيام الجمعة، حين تتوقف دروس «محمد» في الأزهر، ولا يأتي محفظ القرآن لـ «خديجة». يوم جمعة خرجت «خديجة» من البيت لتجد «فردوس» واقفة إلى جانب جدار البيت الذي يواجهه، تنظر إلى الفسقية في فرح. نادتها فجاءت إليها، فأدخلتها إلى الفسحة، وقالت لها: قفي هنا، وسأعود إليك.

صعدت إلى أبيها، الذي كان جالسًا فوق أريكة يراجع الدرس الذي سيلقيه غدًا، فاستأذنته في أن تلعب بنت جارهم معها. كان «سعد الله» يعرف «حمزة» مما كانت تقوله الخادمة التي كان يرسلها إليه لشراء بعض العطارة، ورآه مرات في مسجد الحسين ملتحقًا بحضرة

الشيخ «أبو العينين»، مغمضًا في خشوع بين الذاكرين.

دخلت «فردوس» إلى بيت «سعد الله»، فدخل «محمد» إلى بيت «حمزة»، وجرت السنوات كعادتها، وأهدت الطفلين فرصة، زادت حين صار هو صبي، وهي فتاة. ومع الأيام قام بينهما رباط وثيق من المحبة.

حين جاء اليوم الذي فاتح فيه «سعد الله» ابنه في أمر زواجه بعد أن أتم دراسته، قال له على الفور: العروس موجودة، وأنت تعرفها.

وعُقد قران «محمد» على «فردوس»، وانتقل بها إلى بيت اشتراه له أبوه في «الغورية».

(14)

تتقلب الأيام بين رخاء وشدة، ويسر وعسر، ومسرات وأحزان. يبتعد القريب، ويقترب البعيد. تظمأ النفوس، وتطلب ارتواء، وكل إنسان يرويها بما يهتدي إليه، أو يلقيه الدهر في طريقه. ينقبض الجبر في كف الاختيار، وينفلت الاختيار من بين أصابع الجبر. يولد من نسل العالم جاهل، ومن نسل الجاهل عالم، والعرق دائمًا دساس.

ينادي منادٍ في جوف الليل البهيم: يا مُقلب القلوب والأبصار ثبتها على محبتك.

لكن قلة من الناس تسمع. أكثرهم ينساقون وراء اللهو والدعة، وينسى الأحفاد ما كان عليه أجدادهم، ويتمنى الأجداد في قبورهم لو عادوا ليأخذوا بأيدي الأحفاد إلى جادة الصواب، لكن منذ متى كانت للموتى عودة؟

(15)

لم يسر «فالح» و«عبد الرحمن» على درب أبيهما بعد أن فارقا الحياة، ونسيا وصايا «مباهج» و«مكاسب» التي ضاعت في بطن سنين طويلة أعقبت موتهما. أما وصايا «بديعة» فلم يعد لها ذكر.

تشاحنت زوجتا «فالح» و«عبد الرحمن». كل منهما تحصي للأخرى خليّها وجواريها، وتراقب ما تأكل وتشرب، وتقول لزوجها: أنت تأخذ النصيب الأصغر، وتظلم ذرارينا.

وثرثرة النساء في آذان الرجال أمر من السحر. كان «فالح» و«عبد الرحمن» في البداية يدافع كل منهما عن الآخر. راح الدفاع يخفت مع ازدياد الثرثرة، التي تحولت إلى تحريض صريح، فسكن الحنق القلوب واستقر. كل منهما بدأ يعتقد أن زوجته ترى ما هو لاهٍ عنه، فأخذ ينصت إليها، وهو يخشى أن تراه زوجته عاجزًا عن حماية حقوقه.

تباغض الرجلان صامتَين في البداية. انهمر الحقد فولدت مواجهة صريحة، ظهرت عند استدعاء كل منهما لماسك الحسابات كي يراجعه. قلّ الحرص على المال المشترك فآثر كل منهما أن يأخذ منه دون حساب، حتى تشابكت الأيدي ذات مساء.

صار صراع القصرين حديث الناس في «الحجاني». سعى كل منهما إلى الانفراد بالالتزام، فلم يجد السنجق طريقة لإنهاء الفتنة سوى اقتسامه بينهما. لم يُحسن أي منهما رعاية ما آل إليه، فقلت غلة الأرض، وهرب فلاحون بعد عجزهم عن الإيفاء بما عليهم.

عرف كل منهما طريق الاستدانة من تجار في المحروسة وأصحاب التزام مجاور، ليلبي الملذات التي غرق فيها مع الجواري، وتدخين الحشيش والأفيون، الذي كان يجلبه لهما «أبو سريع» كبير فلاتية الجبل.

تراكمت الديون حتى عجزا عن سدادها. كل واحد منهما كان يُحمّل الآخر مسؤولية تراكم الدين. كل منهما يريد للآخر أن يسدد. ألح الدائنون في طلب ما لهم، فأرجأ الرجلان الدفع إلى مواسم الحصاد، جاءت المواسم بلا سداد، فعاد الدائنون إلى إلحاحهم، فصدهم «فالح» و«عبد الرحمن» في صلف وتنطع.

لجأ الدائنون إلى السنجق، وأعطوه رشوة كبيرة، فجاء ذات يوم على رأس تجريدة تضم ثلاثمائة جندي من المماليك مسلحين بالبنادق. دخلوا «الحجاني» عند الضحى، فانتبه إليهم «الصوابر»، وانتظروا ما هم فاعلون. فلمّا هجموا على الجنينة وأرض الالتزام، حمل «الصوابر» ومَن تضامن معهم من رجال القرية، العصي والبنادق، وهاجموا الجند، فدارت رحى معركة حامية، لم يشهدها الزمام كله من قبل.

قُتل كثير من «الصوابر» وجُرحوا، وقُتل بعض الجند وجرحوا. سقط «عبد الرحمن» صريعًا، وقُبض على «مالك» واقتيد إلى السجن. أقسم الحكمدار ألا يُبقي في «الحجاني» أحدًا من «الصوابر». دار الجند على بيوتهم فقبضوا على مَن وجدوا من رجالهم. بعضهم فر مع أسرته إلى الشمال والجنوب. ما تبقى من النساء والأطفال أُخرجوا من ديارهم، فتفرقوا في البلاد.

أما التزام «مالك» و«عبد الرحمن» فقد آل إلى المملوكي «عليان الطوبجي».

وجاء القوّال في اليوم التالي. نظر إلى الحديقة وأنشد وهو يكاد يبكي:

راح الوجيه الأصيل

سايب وراه الهوايل

يجي زمن العويل

يهد شمل العوايل

الفَلَاتيّة

(1)

لا يفنى نبت بقيت بذرته على قيد الحياة. فحتى لو ذرتها العاصفة في أي اتجاه، تخبئ تحت قشرتها الواهية شجرة وارفة الظلال، تهدي إلى الدنيا أطيب الثمر. تنتظر اللحظة التي تسقط فوقها قطرة ماء، وتغمرها الشمس بالنور والدفء، وتطيب لها النسائم سخيّة رخيّة.

كما تنبت شجرة في الأرض العفيّة، المسكونة بالطمي وعرق الفلاحين، تنبت أخرى في الرمل، بين الصخر الصوان. تعلو وتشاكس الريح، حتى يقف السائرون في القيظ أمامها مندهشين من قدرتها على البقاء في القحل.

(2)

تشتت «الصوابر» في بلاد الناس. كان أغلب مَن بقي منهم نساء. كل واحدة راحت تنظر إلى صغارها، وتنتظر أن تراهم رجالًا من جديد، فتهديهم إلى الغابرين في قبورهم، وتقول لهم بملء فمها: يبقى النسل طالما الأرحام تدفع.

فني الرجال من صلب «رضوان الصابر» بالموت حين حان الأجل، وبالقتل في الأرض يوم المعركة الحامية، أو بمفارقة الحياة في السجن الطويل. فأولو الأمر في المحروسة التي انتقل الذين قُبض عليهم من «الصوابر» إلى أحد سجونها؛ لم يرضوا أبدًا الإفراج عن فلاحين أجهزوا على جند من المماليك، وأرادوا أن يجعلوا القاتلين

عبرة لمَن يعتبر.

رجلان فقط من صلب «رضوان» بقيا على قيد الحياة. الأول ابتعد عن الأرض، وإن كان بعض خيرها يأتيه، واعتمد على راتبه المنتظم من التدريس في الأزهر هو «محمد سعد الله»، الذي كان قد اقترب من الستين، الثاني شاب كان قد سمع الوصايا من أحفاد «الصوابر»، الذين كانوا يتناقلونها على مصاطب السمر في الصيف، وهو «مهدي» الذي أنجبه «فالح» بعد الأربعين.

فر «مهدي» من «الحجاني» مع أمه «نفيسة» و«جمال الدين» الذي كان عجوزًا، يساعد في عمل خولي الالتزام بعد موت أبيه «سعيد». هربوا شرقًا حتى وصلوا إلى شاطئ النهر، فقال «مهدي»: لا أمل لنا في النجاة إلا بعبور النهر، فقد يلحق بنا جند المماليك.

صمتت الأم، غارقة في أحزانها، بينما قال «جمال الدين»، وهو يشير إلى الجبل الذي يطل هناك خلف النهر: ركوب النهر إلى الشمال أو الجنوب ليس آمنًا، ولا ينجينا من الموت إلا الجبل.

نظر إليه «مهدي» في اندهاش، وسأل: الجبل؟!

هز «جمال الدين» رأسه، وأجابه: منذ قرون وهو وحده الأكثر أمنًا من عسس المماليك وبني عثمان، وبنادق جندهم.

قال «مهدي» بصوت يرتعش: ليس معنا زاد ولا قربة ماء.

اغتصب «جمال الدين» ابتسامة من أنياب الوجل والحسرة، وقال: أعرف الطريق، والوصول إلى مَن يوفر لنا الأمان ليس طويلًا.

كان «جمال الدين» قد صعد إلى الجبل مرات مع «أبو سريع»،

ليأتي لسيديه «مالك» و«عبد الرحمن» بالأفيون والحشيش، ويعطي الفلاتية هدايا السيدين حتى لا يكريهم مَن يريد إلحاق أذى بأرض الالتزام أو أصحابه.

ساروا على شاطئ النهر مبتعدين، حتى لاح لهم قارب صيد، نادى «مهدي» بأعلى صوته، كما نادى «عويس» في الزمن القديم: عدينا يا معداوي ولك ما تريد.

كانوا لا يملكون إلا ثلاث ضرر من النقود، خطفتها «نفيسة» قبيل هروبها، وما في جيدها ومعصميها من حُلي. جاء القارب سريعًا، فركبوه إلى الشاطئ الشرقي. صعدوا وتوغلوا في شريط ضيق من الزرع، حتى بلغوا الجبل. توقف «جمال الدين»، وقال، وهو يشير إلى الجنوب: هذا نخيل نجع، وهناك نشتري قِربة ماء وطعامًا.

تزودوا للطريق بما يحتاجون، ومشى «مهدي» وأمه على وقع خطوات «جمال الدين» حتى بلغوا مدقًّا، يمزع الصخر نصفين. مضوا فيه ست ساعات، إلى أن لاحت مظاهر حياة، يقيمها الفلاتية. كانت هناك أحصنة واقفة وجِمالًا، وملابس معلقة في حبل ترفرف في الريح السخية. حين اقتربوا انبرى لهم رجل على حصانه، رمح حتى بلغهم، فقال له «جمال الدين»: نحن ضيوف المعلم «أبو سريع».

(3)

باتت «نفيسة» ليلتها في مكان منعزل بالمغارة. في الصباح نادت ابنها فهرع إليها. تلفتت حولها، وسألته: هل تترك أمك بين رجال غرباء؟ اقترب منها، ووضع كفه على كتفها، وهمس: كبيرهم لا ينسى خير أبي، وأبلغني أنكِ أخت الرجال جميعًا هنا. لكنها أبت، وقالت:

هؤلاء لصوص لا عهد لهم. رد، وهو ينظر في عينيها مليًا: أغلبهم هاربون من ظلم بني عثمان والمماليك. صمتت برهة، وقالت: لا أقدر على البقاء. أشعر باختناق رغم وسع الجبل.

عبثًا حاول إقناعها، ولم يكن يعرف كيف يُدبر أمره، حتى قالت له: أنسيت أن لك ابن جد في المحروسة؟

وخرج «مهدي» إلى «أبو سريع»، وقال له: صرنا في مأمن، ولنا أن نذهب.

ابتسم «أبو سريع» فبانت أسنانه السوداء من فرط شرب الكيوف، وقال: واجبي أن أحميك إلى النهاية، وقد يكون الجند الآن في بحث عنك، ولن تكون بعيدًا عن عسسهم حتى ولو في المحروسة، فما جرى في «الحجاني» لا بد أنه قد بلغ الوالي، وكل مَن هو من نسل أبيك وعمك مطلوب للقتل، أو السجن على أحسن حال.

- وأمي؟

- قلت لك إنها أخت الرجال.

لكن «نفيسة» تمسكت بالرحيل، فقال «أبو سريع»: يصحبها «جمال الدين» إلى المحروسة، وسأرسل أحد رجالي حتى يبلغهما مرسى «سمالوط»، وتبحر من هناك في مركب.

غادرت «نفيسة» في اليوم التالي، بعد أن اختلت بابنها في مكانها من المغارة. مدت إليه صرتين من النقود، وهمت أن تخلع بعض حُليها، لكنه قال لها: لا أحتاج شيئًا. صرت اليوم واحدًا من الفلاتية.

(4)

حين وصلت «نفيسة» إلى الأزهر سألت عن الشيخ «محمد سعد الله»، فقيل لها: تعيشي أنت. وقفت محتارة، لا تعرف ماذا تفعل؟ لكن أحد الشباب قال لها: لا تجزعي يا عمة، سأصحبك إلى بيت ابنه «خير الله» في الغورية.

كان «محمد» قد طُرد من الأزهر. اتهمه المشايخ بإفساد عقول طلبة العلم بآرائه الغريبة. حين قاومهم أوغروا عليه صدر الوالي، وقالوا: له آراء مسمومة قد تثير الفتنة.

وجد «محمد» أن عليه الاختيار بين مغادرة الأزهر أو السجن، فاختار الأولى مرغمًا، بعد أن توسط له الشيخ الكبير عند الوالي، آخذًا في الاعتبار مكانة أبيه «سعد الله» وجده «محفوظ»، وقال للوالي: لم أسمعه قط يقدح فيكم يا مولانا، فهو واحد من المخلصين، واختلافه لا يتعدى مسائل الشرع، وعقابه بأيدينا نحن.

كان «محمد» قد بلغه ما جرى لأهله من «الصوابر»، حين ذهب ذات يوم إلى ديوان الالتزم وقت المزاد، كما اعتاد، لعله يقابل أحد أعمامه. سأل رجلًا كان قد رآه في مرة سابقة يلازم «عبد الرحمن»، فأجابه: ضاع التزامهم، ورسا على غيرهم، وشرّدهم جند المماليك في البلاد.

حكى له ما جرى، وطلب منه ألا يفكر في زيارة «الحجاني» فكتم «محمد» السر، وأدرك أن ما قد يأتيه من أهله قد انقطع، فجمع ما في بيته من مال، وباع حُلي امرأته، واشترى دكانًا صغيرًا وسط طائفتي القماشة والقمصانجية، يبيع فيه عمائم الكتان والشيلان والعبايات والجلابيب والمآزر والزعابيط والفوط. بدا مخلصًا لتجارته فربحت، واكتفى من علمه بإلقائه في رأسي ابنه «خير الله» وابنته «سكينة».

رفض إلحاق «خير الله» بالأزهر، وقال له: يكفيك ما جرى لأبيك، وما علمته إياك سيجلب لك المتاعب.

كانت تجارته قد اتسعت، فتركها لابنه، وزوجه حين بلغ الثامنة عشرة، من ابنة تاجر حرير وأصواف في خان الخليلي اسمها «كريمة». زوّج ابنته من ابن أحد أصحاب الخانات في قيسارية النحاسين. وكان له نصيب أن يرى حفيده «أحمد» وحفيدته «رابحة»، قبل أن يموت. وبعده بشهور قليلة ماتت زوجته «فردوس».

التحق «جمال الدين» بالعمل في دكان «خير الله» ونفعه ما يعرفه من مبادئ الحساب وإدارة المال، وزاد على ذلك بقدرة عجيبة على التقاط الزبائن السائرين في الخان ينظرون إلى البضائع، وأيديهم في جيوبهم، وبرع في مفاوضتهم على السعر.

أما «نفيسة» فقد تفانت في مساعدة « كريمة» في أعمال المنزل، وتربية «أحمد» و«رابحة»، فعوضاها عن غياب «مهدي»، وعن رغبتها في أن ترى من صلبه أحفادًا.

(5)

أظهر «مهدي» منذ البداية حكمة وشجاعة، جعلت ثقة «أبو سريع» تزداد فيه كل يوم. كان قد تعلم النيشان بمختلف أنواع البنادق في الجنينة، وعرف كيف يُصلح الأسلحة الخربة. حين يجلس الرجال للتشاور يلتزم الصمت، فهو أصغرهم، فلمّا يأتي دوره في النهاية ينطق بما يذهلهم، حتى قال «أبو سريع» ذات مرة: خُلق هذا الفتى

ليكون سلطانًا. ثم جال ببصره حوله، وواصل: الجبل خارج سيطرة أي سلطان، لكن سياسة مَن فيه، وما فيه، أصعب من حكم الخلائق في الوادي المزروع.

بمرور الأيام آمن الفلاتية بقدرة «مهدي» على قيادتهم، حين كان «أبو سريع» يسند إليه أمرًا ما. كان هو من الفطنة بمكان لينزع من قلوبهم أي حقد عليه، إذ حرص على إرضائهم في اقتسام ما يسرقونه، أو في مخاطبتهم بما يجعل كلًا منهم يشعر بأنه شريك في كل شيء.

ذات مرة هجموا على قرية في الليل فسلبوا منها ما استطاعوا، لكن أهلها أطلقوا عليهم نيرانًا كثيفة، فسقط منهم رجلان، وأصيب «أبو سريع» إصابة بالغة. أعانه «مهدي» على العودة إلى المغارة، وطببه على قدر استطاعته، بعد أن نزع الرجال من فوق ركبتيه رصاصتين، بسكين وضع على النار حتى احمرّ نصله. نجا الرجل من الموت، لكنه لم ينجُ من العجز، صار أعرج، يضنيه الأسى على أيام خفته وهمته.

حال عرج «أبو سريع» دون اشتراكه في بعض السرقات الكبرى، فأسند إلى «مهدي» قيادة الرجال، الذين يهبطون إلى القرى ليلًا لسرقة بهائم أو محاصيل. لكن «مهدي» قال لهم ذات يوم: تحلو سرقة بيوت الأثرياء.

نظروا إليه في تعجب، وقال «غندور»: لكن هؤلاء لهم خفر مسلحون يحرسونهم.

ضحك «مهدي» وقال: خفر أثقلتهم كروشهم، وراحتهم الطويلة.

شرح لهم ما يعرفه عن خفر التزامهم الذي راح، وقال: لنركز على ما خفّ وزنه، وغلا ثمنه.

قرر أن تكون وجهة أول سرقة كبرى من قصرَي أجداده اللذين سكن فيهما «عليان الطوبجي» وأخوه. وسمع «أبو سريع» ما يعتزم «مهدي» فعله، فجمع الرجال، وقال: هذه مغامرة، قد تكلفنا الكثير.

هز بقية الفلاتية رؤوسهم موافقين، وقال أحدهم: هذا إعلان حرب.

تفحص وجوههم جميعًا، ثم قال: من الحروب ما هو كر وفر.

وتدخل «شديد» بعد أن دار الكلام في رأسه، وقال: «ضربة بالمرزبة ولا عشرة بالشاكوش».

طمأنهم «مهدي» قائلًا: أعرف أن «الطوبجي» هذا له أعداء كثيرون حتى من بين كبار المماليك أنفسهم، وسيذهب رأسه إلى الشك فيهم.

راقت الفكرة لكبيرهم «أبو سريع»، بعد أن فكر مليًا، ورآها تجربة مظفرة لـ «مهدي» مع رجاله، وكان يعتزم أن يتركهم له بعد وفاته، بعد أن أدرك محبتهم له، واقتناعهم بقدرته. اعتبر هذا أقل ما يجب أن يؤديه إلى «مالك» و«عبد الرحمن» اللذين عاش ورجاله في خيرهما طويلًا، حيث وجد المال والأمان والصحبة التي لا تُنسى.

أرسل «مهدي» اثنين من رجاله ليتسقطوا الأخبار. عرفا أن «الطوبجي» وأخاه قد ركبا النهر إلى «المحروسة» لحضور مزاد حول الالتزام، واصطحبا معهما زوجتيهما لشراء ما تحتاجانه من «خان الخليلي». ما إن عاد الرجلان بالخبر، حتى قال «أبو سريع»: فرصة لا

يجب أن تفوتنا.

عبر الرجال النهر في ليلة من أواخر الشهر العربي، لم يكن قمرها قد طلع بعد. ركبوا المركب نفسه الذي كان الفلاتية يؤجرونه من صاحبه، ولا يستطيع أن يرد لهم طلبًا، لا سيما أنهم كانوا يجزلون له العطاء.

قسمهم «مهدي» إلى مجموعتين. كل منها تقصد قصرًا. تسللوا خفية حتى وصلوا إلى سور الجنينة، الذي كان «مهدي» يعرفه جيدًا. أخذهم إلى جزء متهدم فيه، كان بعيدًا أيضًا عن عيون الخفر. قفزوا فصاروا في الداخل، وأخفتهم أشجار الفواكه عن أي عين ناظرة.

بلغت المجموعة الأولى باب القصر الذي بناه «سالم» في سالف الأيام، بينما وصلت المجموعة الثانية إلى القصر الذي ورثه «عويس» وعاش فيه «ربيع». كانت كل عصابة تعرف ما يجب عليها أن تفعله، بعد أن وضع لهم «مهدي» الخطة، وهو الذي كان يعرف غرف القصرين جيدًا، وأين تُخبأ النقود والذهب؟ وقبل هذا أين يكون المدخل الخلفي البعيد عن عيون الخفر.

كان الرجال متمرسون على التسلل والاختباء، فسلكوا في يُسر طريقهم إلى المكان الذي حدده لهم «مهدي». الخدم والعبيد هجعوا إلى مخادعهم. الخفر يتساهلون في غياب سيدهم وأخيه. الفلاحون الذين يعملون في تنقية حشائش الجنينة غادروا أماكن كدحهم بُعيد المغرب.

لم يجد الشرّاق صعوبة في بلوغ ما يسعون إليه، فمكان الخزانة التي تحوي النقود والذهب، في كل قصر، معروف لقائدهم. خطفت

المجموعة الثانية ما وجدته، وعاد رجالها يمشون على أطراف أصابعهم، داخل القصر، حتى عبروا مدخله الخلفي، ومنه غشّاهم ظلام الأشجار الكثيف، حتى صاروا عند السور الخارجي، يتقاطرون نحو الجزء المتهدم منه.

المجموعة الأولى التي كان يقودها «مهدي»، وجدت عقبة أمامها، لم تكن سوى جارية فائقة الحُسن تنام في حجرة مفتوح بابها إلى جانب غرفة «الطوبجي». كانت جالسة في مخدعها الذي يواجه الباب حاسرة الرأس عن شعر ذهبي، ترتدي قميص نوم خفيف يبين مفاتنها. رأت أشباحًا تتسلل من أمامها. هبت واقفة، وخرجت تغالب خوفها، لتجد نفسها أمام «مهدي». همت لتصرخ، لكنه كتم فمها بكفه اليمنى، ودفعها إلى الخلف حتى أدخلها الحجرة.

مد فرده المحشو بالرصاص إلى رأسها، وقال لها بصوت خفيض يخرج من بين أسنانه، لكن في حزم: اصمتي وإلا قتلتك.

كتمت أنفاسها مغمغمة، فرفع يده عن فمها، وهي ترتعش. نزع شاله الذي كان يخبئ به وجهه، ولفه حول فمها. أزاح كوفيته المدلاة قليلًا حول عنقه، وربط يديها من خلاف. همّ أن يخرج ليلحق بالرجال، بعد أن يُغلق عليها الباب. كانوا قد وصلوا إلى الخزانة، وحملوا النقود وخلي النساء. رآهم يتسللون فنادى بصوت واهن: انتظروا.

كان يقاوم رغبة عارمة اندفعت في أوصاله، حين مست أطرافه جسد الجارية الساخن، وسكنت عيناها الزرقاوان الوسيعتان نفسه. وجد نفسه مشدودًا إليها، وهو الذي طالما كتم شهوته الحارقة بين الصخور والرمل.

عاد إليها، فأمسك يديها المربوطتين، ودفعها في لطف أمامه، وهو يقول: «امشي ساكتة وإلا قتلتك»، خرجت كلمة «قتلتك» هذه المرة كاذبة. جاءت واهنة غارقة في التردد والرجاء. وكأي أنثى تنظر إلى عيني رجل لتقيس ضعفه ولهفته، أدركت أنه لن يقتلها، إنما يريدها.

في هذه اللحظة، تلاقت إرادتها مع إرادته. هي فتاة روسية اسمها «كاترين»، من السبايا اللاتي غنمتهن جيوش بني عثمان في حربها ضد الروس، وبيعت في سوق الجلابة بالمحروسة، واشتراها «الطوبجي» بثمن باهظ، لتقض منذ مجيئها إلى القصر مضجع زوجته وجواريه الأخريات.

كان «الطوبجي» يعشقها، لكنه لم يستجب أبدًا لرغبتها في أن يحررها. طالما عانت معه وهو رجل غليظ يقع على أنثاه كالبهيمة، بعد أن يعذبها كي تثير دموعها شهوته المتبلدة. كان يفعل هذا مع جواريه، أما زوجته فلم يجرؤ على تعذيبها، وإلا عاقبه أهلها من المماليك، لهذا بدا معها عاجزًا، لكنها ارتضت منه بما كان يجلبه لها من حُلي وهدايا، وهي تحسب أن زهده فيها يعود إلى عجزه القاهر، وأنه يكتفي من جواريه بمداعبة تنتهي دون شيء. كان هو قد أمر الجواري بألا يُبلغن زوجته بقدرته على وطئهن، حتى لا تغار وتطردهن جميعًا.

في كثير من الأيام والليالي فكرت «كاترين» في الهرب، لكنها كانت تدرك أن هذا مستحيل، فهي تعرف أن بينها وبين الخروج من القصر عيونًا تراقب، وأن في الجنينة عيونًا أخرى، وحتى لو خرجت من سورها، فلا تعرف أين تسير؟ وإن سارت فإن تعقبها يسير،

واقتناصها واقع لا محالة، ووقتها ستذوق من العذاب أصنافًا لا قبل لها بها.

لهذا اندفعت أمام «مهدي» في يُسر. كانت تدرك أن اللصوص جاءوا من أجل المال والذهب، وليس من أجل جارية، قد تثقل طريق عودتهم، ولهذا قد يتركونها بعد أن يبلغوا مأمنًا، ووقتها تفر في هذا الليل، مستترة بظلامه الكثيف، حتى تبتعد. المهم أن تفر من هذا المكان الموحش، الذي جرح روحها قبل أن يُضني جسدها، ويكون بمقدورها أن تغادر أرض الالتزام قبل طلوع الفجر، ووقتها يمكن أن تجد مَن يساعدها على العودة إلى المحروسة، أو بلوغ أي مدينة، تلتقط فيها رزقها، حتى ولو مدت يدها إلى الناس.

سارت صامتة أمام «مهدي»، فلما بلغ منتصف الجنينة، فك يديها، وترك فمها مربوطًا. أبقاها على حالها حتى بلغ الرجال النهر، فلما ابتعد المركب إلى منتصفه، حرر فمها، بينما الرجال ينظرون إلى وجهها الفاتن الذي أجلاه شعاع قمر أطل في استحياء، فمنح جمالها نورًا على نوره.

(6)

قبل الفجر كان الرجال قد وصلوا إلى المغارة. انهمكوا جميعًا، وفي مقدمتهم «أبو سريع» في حصر السرقات الثمينة. أما «مهدي» فكان مشغولًا بعيني «كاترين»، التي كانت تنطق العربية مكسورة، فتبدو ليست كلمات يمكن لمَن يسمعها أن يفكر في معناها، إنما موسيقى تهيج لها العواطف.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها أنثى إلى الجبل. فمن

قبل جاء «أبو سريع» كثيرًا بغجريات، إحداهن كانت غازية ترقص في الموالد، راقت له بعد أن أثقل الشراب رأسه، فأجزل لها العطاء، وقال لها: داري شرق النهر، فتعالي معي.

جاءت، وأخلى الرجال له مكانًا منعزلًا في المغارة، وأعدوا له مخدعًا لينًا من بسط وحاشيات قطن ووسائد. إنه المكان الذي حلت فيه «نفيسة» ذات يوم. بقيت الغجرية شهرًا كاملًا، لا يقربها سوى مَن أتى بها، وهو يكتم فمها حتى لا يثير غنجها رجاله المحرومين.

تكرر هذا مع رجال آخرين، إن أتى أحدهم بامرأة تكون له وحده، حتى تغادر. قانون متفق عليه بينهم، ولم يكسره أي منهم. بعضهم كان يتسلل أحيانًا إلى داره التي غادرها خوفًا من ثأر، أو دَين تراكم عليه حين عجزت الأرض التي يفلحها عن الإيفاء به، أو توعُّد أيٍّ من جند المماليك له بالسجن أو القتل. يصل إلى الدار ليلًا، ليجد امرأته يحرقها الشوق إليه، فيقضي وطره منها، ثم يفر إلى الجبل من جديد.

لهذا اعتبر الرجال أن «كاترين» هي لمَن أتى بها. وقال «أبو سريع» بعد أن رأى الجارية الروسية الحسناء: سلطانة تليق بسلطان.

على النقيض من قصر «الطوبجي» وجدت «كاترين» في هذه المغارة الموحشة متعة وراحة وسكينة. رأت نفسها قد صارت حرة وهي تنظر إلى الصحراء الطليقة. غمر هذا الشعور نفسها بعد أن قال لها «مهدي» وهو يحتضنها في لهفة: يعلم الله أنكِ زوجتي.

ورغم أن الحياة الجديدة قد راقت لها، كانت تخشى أن تكون مجرد غنيمة حرب أخرى. ولما امتلأت نفسها محبة لفارسها، الذي

خلصها من العبودية، قبلته في جبينه، كما يحلو للفرسان أن يتلقوا القبلات بعد معاركهم المظفرة، وقالت: أريد أن أبقى معك إلى الأبد.

ولما عرف منها أن «الطوبجي» متعلق بها، أسعده هذا، وارتضاه ثأرًا مما فعله بأهله، وقال في نفسه: حرقت قلبه، كما سرقت ماله. إني أقتله في بطء.

(7)

منذ متى كان البغاة يتركون حولهم أرضًا حرة؟ مَن يطمع في أرض حتى تؤول إلى قبضته، يمد عينيه دومًا إلى ما بعدها، وإلى البشر الذين يعيشون عليها. ما لا يبلغه السائرون على أقدامهم، تبلغه الخيل، وهي تثير حولها عجيجًا مؤذنًا بمعركة حامية.

كان المماليك قد اعتادوا، حماية لأنفسهم أو بأمر من بني عثمان، أن يدفعوا تجريدة بين وقت وآخر إلى الجبل، ليصدوا العربان ويؤدبوهم إن أغاروا على القرى. كذلك فعلوا ضد الفلاتية، ليعيدوهم خاضعين.

(8)

صرخ «الطوبجي» حين أخبره الخولي بما جرى. أبلغوه أن عصابة قد سرقت المال والذهب من القصرين، وزاد في صراخه حين علم أن جاريته المفضلة قد اختفت. كانت زوجته موزعة بين فرح لغياب «كاترين» وأسى على خليها الضائع.

وحدها التي كانت تبحث عن سلوى في موازنة بين مكسب وخسارة، أما «الطوبجي» فلم يكن أمامه إلا التفكير حزينًا في

الخسارة التي حلت به. زاد إحساسه بالخسارة حين داهمه شعور بأن «كاترين» قد سهلت للصوص كل شيء، كي تنتقم منه. لكنه تشكك في هذا الخيار، فهي لم تبرح القصر منذ أن جاء بها، ولا يعرف أنها قد اتصلت بأحد.

ساوره شك آخر في زوجته، للتخلص من «كاترين» لكنه استبعد هذا، فهي كانت معه في المحروسة، وهي قد تسهل تهريب الجارية الحسناء، لكنها لا يمكن أن تفرط في خليها، وفي ماله الذي تطمع كعادتها أن تأخذ منه على قدر استطاعتها.

أطلعها على ما يضنيه من شكوك، فقالت له: كارهوك كثيرون في الزمام كله.

ذهب إلى سنجق الإقليم، فجمع الملتزمين، وقادة جُند المماليك في قصره. أبلغهم «الطوبجي» بما جرى، فهرع واحد منهم إلى المصحف الذي كان موضوعًا على طاولة في ركن البهو، ورفعه إلى عينيه، وقال: أعماني الله إن كذبت. أنا لم أدرِ بما جرى سوى الآن. فعل باقون مثله، وإن كان بعضهم قد اعترف بأن الخبر قد وصله. وكان «الطوبجي» يُمعن النظر في عيونهم طوال الجلسة، ليتبين الكاذب من الصادق، ويلتقط كل ما يخرج من أفواههم، لعله يجد أي قول يستدل به على شكوكه في أي منهم.

أيقن «الطوبجي» والسنجق معه، أن المجتمعين أبرياء، فسأل في انكسار: مَن فعلها إذن؟

رد السنجق في ثقة: لم يعد أمامك سارق سوى الفلاتية. وأكد الجالسون ما انتهى إليه السنجق، فتوازى قولهم وتتابع: ليس غيرهم

أبدًا. فصمت «الطوبجي» كاسف البال، ثم جال ببصره في وجوههم وقال: شرقت اليوم، وإن مر هذا دون عقاب، فسيسرق أي منكم غدًا.

سرى في أوصالهم خوف، فعزموا على خطوة استباقية يحمون بها أموالهم وسمعتهم، التي لا يقبلون أن تُهان على أيدي فلاتية، هم في النهاية من الفلاحين، الذين يخضعون لهم بالقول والفعل، نهارًا وليلًا. ونظروا إلى السنجق ليعينهم على التدبير، فقال: سأدفع تجريدة كبيرة لتأديب الفلاتية، وليشارك خفر كل منكم في الهجوم. ارتاحوا جميعًا للقرار، لكن قلقًا جديدًا اندلع في نفس «الطوبجي»، فقال في تودد: نؤدبهم، لكن يعود إليّ مالي وذهبي وجاريتي.

اقترح أحدهم أن يكون «الطوبجي» نفسه مع التجريدة، حتى يطمئن إلى استرداد كل ما سُلب. ضربوا موعدًا لإطلاق جندهم وخفرهم إلى الجبل، لكن جاءهم ما لم يكن في الحسبان. فبعد يوم فاض النهر غزيرًا جارفًا أمامه أشياء كثيرة. انهمك كل منهم في حماية أرضه، وهو يدرك أن العبور إلى الشاطئ الآخر وقت الفيضان عمل شاق إن لم يكن مستحيلًا.

(9)

كرّت أيام الفيضان على الفلاتية وهم في سعادة غامرة. حسبوا أنهم قد أفلتوا بسريقتهم. وحسب «مهدي» أنه قد فاز أيضًا بالحسناء، التي فاجأته بعد شهرين من مجيئها إلى المغارة، وقالت بلهجة عربية مكسورة: يبدو أنني حُبلى.

انفرجت أساريره بابتسامة عذبة، وقال: ولد يحفظ نسل الصابر.

وقالت هي: بنت ترقق قلب أبيها على أمها.

حين أُبلغ «أبو سريع» بالخبر السعيد، قال له: يمكننا أن نعرف إن كان ولدًا أو بنتًا. عرج نحو غرفة داخلية بها أشولة القمح والشعير المرصوصة حول رحايا مستقرة في المنتصف. قبض بيمناه على القمح، وبيسراه على الشعير، وخرج إلى «مهدي». مد إليه ما معه، وقال: منذ آلاف السنين، والحُبلى تبول على القمح والشعير، فإن نبت الأول كان ما في بطنها ولدًا، وإن نبت الشعير كانت بنتًا.

كانوا قد زرعوا حقلًا من القمح على أطراف الأرض، يسقونه من ماء البئر، ليسد جزءًا من مؤونتهم. وزرع أحد الرجال واسمه «خراجة»، كان يعمل قبل هروبه في مخمرة لصناعة البوظة، فظل يمارس مهنته بقدر خفيف، إذ كان الرجال يفضلون الحشيش والأفيون، عدا «سبعاوي» الذي كان يجمع بين الكيفين، فيشاطر «خراجة» الشراب أحيانًا، ويأتي بين وقت وآخر أحد العربان، ليجلس ثلاثتهم، في الخلاء، حول قرعات البوظة في بعض الليالي القمرية.

أظهرت التجربة القديمة أن «كاترين» تحمل في رحمها ذكرًا من نسل «الصابر»، تمنت هي أن تكون له شجاعة أبيه، وملاحة أمه. وقال «مهدي» وهو يضحك: شاء الله أن يُحسّن نسل أسرتنا العريقة، فليسعد جدنا الطيب في قبره.

(10)

انحسر الفيضان، وعاد النهر إلى سابق عهده، يجري هادئًا سخيًا. وجاءهم الناضورجي ذات ضحى يلهث. خرجت حروف كلامه

متقطعة ضائعة، لكنها كانت كفيلة بإيقاظ الهلع في نفوس الرجال: جنود يسدون عين الشمس في الطريق إلى هنا.

في لمح البصر كان الفلاتية على ظهور الخيل، ومعهم ما سرقوه من مال وذهب. أما أدوات معيشتهم فقد خطفوا منها ما قدروا عليه، ثم ابتلعتهم الصحراء وهم يهربون نحو الجنوب، باحثين عن مأوى جديد، لا يصل إليه متعقبوهم.

سارعت الخيل مبتعدة بالفلاتية، ولأنهم عارفون بمسالك الجبل جيدًا، بينما لا يعرف مهاجموهم عنه كثيرًا، تمكنوا من النجاة. دخلوا في فجاج بين الصخور ألفتها خيولهم. انتهوا إلى مدق طالما مر منه العربان يسوقون إبلهم وماعزهم.

لم يتوقفوا إلا حين اطمأنوا إلى أن الجبال قد حالت بينهم وبين الذين يطاردونهم. اختاروا بقعة ظليلة تحت كتف صخرة مقطوعة من الجبل. جلسوا ليتناولوا طعامهم، ويفكروا في مكان جديد يجب أن ينتهوا إليه، ويجعلوه مقرًا.

رأى «مهدي» شيئًا يتحرك عن بعد. نهض من مكانه، ومضى خطوات إلى الأمام، ثم التفت إلى الرجال، وقال: نصيبنا أن نأكل لحمًا.

أدرك «أبو سريع» ما يرمي إليه، فقال: لا تفتح علينا باب جهنم.

قهقه «مهدي»، وسأل: أي جهنم هذه التي يفتحها اصطياد تيس بري؟

رد «أبو سريع»: أخاف أن يكون التيس لواحد من العربان.

وأشار «أبو سريع» إلى واحد من رجاله اسمه «سبعاوي»، فنهض ومشى في حذر حتى حاذى «مهدي». دقق النظر جيدًا، وهو العارف بكل الحيوانات التي تسكن هضبة البحر الأحمر، ثم قال: ماعز جبلي.

وكان «سبعاوي» قد اصطاد من قبل غزلانًا وكباشًا وأرانب ليأكلوها، وثعالب وحميرًا برية لبيع جلودها، وقنافذ لبيعها إلى مَن يستخدمون لحمها في التداوي من الاستسقاء والجذام والثعلبة والبثور والجرب وأوجاع الكلى والصداع، ويستخدمها رجال الجبل حين يُجرحون في معاركهم؛ لأن لحمها يساعد الجروح على الالتئام سريعًا، ويمنع تقرحها.

كانت بندقية «مهدي» بيمناه، فرفعها ليصوبها نحو التيس، الذي كان لا يزال يقف هناك، يأكل من حرش وحيد، وينظر إلى الرجال الجالسين. قال «سبعاوي»: هذا لا تأتي به بندقيتك إنما سهمي. وكانت معلقة في ظهره جعبة سهام، فحبتها جيدًا، وراح يتقدم في حذر، و«مهدي» إلى جانبه. أطلق «سبعاوي» السهم، فاستقر في الفخذ الخلفية للتيس، لكنه لم يسقط، بل جرى، ثم أخذت خطواته تضيق، وهو يبتعد خلف تلة رقيقة، بدت أشبه بجدار عازل. توقف «سبعاوي» وقال: لا بد أنه سيعجز عن مواصلة الهرب، لكننا نحتاج إلى فرس لنحمله عليه.

رجع «مهدي» وامتطى جواده، ورمح إلى حيث يتوقع أن يكون التيس واقفًا مكانه ينتظر نهايته المحتومة. وجده يترنح بمنطقة رملية في أرض منخفضة، تغطيها طبقة من الطمي الخفيف، تتناثر عليها أحراش وبقع من العشب، وثلاث شجرات من العوسج، ويحط

فوقها ضباب خفيف، ويطن النحل، ويحوم الطير.

سمع صوت سرسوب صغير يسيل في هدوء نحو فجوة بين صخرتين تميلان إلى الشرق، ويهبط لتبتلعه الأحجار في الأعماق، دون أن يكون بوسع أحد أن يراه. تقدم خطوات، ورمى جسده في لطف فوق الصخر، ومد أذنه اليسرى، فتأكد من خرير يأتي من بعيد.

وقف ينظر إلى ما حوله، ووجهه يكتسي بفرحة غامرة، ليس فقط لما يراه من منظر افتقده منذ أن جاء إلى الصحراء، إنما لما دار في رأسه. دار حول نفسه، وهو مطمئن إلى رقود التيس مكانه يئن. ترامت أمامه مساحات شاسعة تحيط بها الجبال عن بعد من الجهات الأربع، فقال بصوتٍ عالٍ لكن أحدًا لم يسمعه: لتكن هنا مملكة صغيرة جديدة لآل الصابر.

وقفز إلى ذهنه ما يمدحه به «أبو سريع» حين يراه سلطانًا، ثم سخر من نفسه، وقال: أي مملكة هذه التي يكون كل سكانها من الفلاتية؟

حين عاد واضعًا التيس أمامه على الفرس، والروح لا تزال تجري في دمه، قال للرجال في فرح: أخيرًا وجدنا مكان إقامتنا. ثم حكى لهم ما رآه خلف الصخرة التي تطل هناك، وهم في إنصات شديد له، ثم مدوا أبصارهم نحو «أبو سريع» الذي سأل ساخرًا: هل مكان مثل هذا بعيد عن سطوة العربان؟ فنظر «سبعاوي» إلى «مهدي»، وسأله: هل رأيت ما يدل على أثر حياة آدميين في المكان؟ هز رأسه، وقال: يمكن أن نرى الإجابة جميعًا، بعد أن نضع التيس على النار، لنسد جوعنا.

ذبح أحدهم التيس، ونزع أحشاءه، وغسله بنصف قربة ماء. كان الرجال قد جمعوا حطب شجرة صغيرة يابسة على مقربة منهم. تركوا أحدهم يحرك التيس على النار، بعد أن دبوا فيه سيخًا حديديًا مزعه من أوله إلى آخره، وقاموا ليروا ما بشرهم به «مهدي» بينما يطل من عينيه أمل غريب جديد.

(11)

تطلع الرجال إلى المكان حائرين، وقال أحدهم: لم أرَ مثله منذ مجيئي إلى الجبل قبل عشرين سنة.

قال آخر: سيكون مطمعًا على أي حال.

هز «مهدي» رأسه، وقال: لكل طامع ثمن.

انفرجت أسارير «أبو سريع»، وقال: ابن الكبار كبير.

تطلع الرجال إلى «مهدي» ليعرفوا ما ينوي، فقال: لو أن العربان اكتشفوا هذا المكان من قبل لحفروا هنا بئرًا، وضربوا خيامهم حولها، أو أقاموا بيوتًا من حجر.

سأل أحدهم السؤال الذي طالما أقلق الخلائق منذ الماضي السحيق: ما العمل؟

أجاب «مهدي»: نحفر بئرًا هنا.

تدخل «أبو سريع»: هل نضمن إن حفرنا أن يخرج لنا الماء؟

أجاب «مهدي»: كل العلامات هنا تدل على ماء مخبوء تحت الرمل.

ولم تكن معهم أدوات حفر كافية، فجلسوا ينبشون الأرض

بخناجرهم، لكن «مهدي» قال: نحتاج إلى فؤوس وكواريك وأزاميل ومرزبات ومقاطف.

قال «أبو سريع»: نرسل مَن يأتي بها إلينا من أي نجع قريب من النهر.

سأل «مهدي»: أي بلد يقع هناك إن سرنا في خط مستقيم؟

قال «أبو سريع»: رمحت بنا الخيول ست ساعات، وأظن أننا بين «أسيوط» و«سوهاج».

فقال «سبعاوي»: ابتعدنا عن حريمنا وأولادنا. إنها غربة مضاعفة.

قهقه «مهدي»، وقال: لعل الشمل يجتمع في هذا المكان.

(12)

لم تمضِ سوى أيام وبان الماء هناك في الأعماق، وراح يعلو حتى وصل إلى السطح. طوق الرجال البئر بسور من حجر، طلوه من الخارج بالرمل المخلوط بالماء والحصى، لكن بعض الماء أخذ ينز من شتى الجوانب، فقال «مهدي»: بئر عفيّة. ثم قهقه، وقال: نشرب ويشرب زرعنا.

سأله «أبو سريع» في اندهاش: زرعنا؟

أجابه: أغلبكم فلاحون تركوا أرضهم من فرط الظلم، وآن الأوان أن تكون لهم هنا أرض جديدة، لهم ولأولادهم، وليس لأصحاب الالتزام.

تهلل وجه «أبو سريع»، وقال: نزرع الحشيش والأفيون فتؤول إلينا أثمانه، بعد أن كنا نوزعه ونجني عائدًا قليلًا.

رد «مهدي»: ليس هذا فقط، فالمكان صالح لإنبات الشيح الجبلي، وبصل العنصل، والزعتر، والحنظل، وشوك الجمل، وعبّاد القمر، والحبق.

سأل «سبعاوي»: وما فائدة هذا لنا؟

لاحقه «مهدي»: نباتات يتداوى بها الناس، ويُقبل على شرائها العطارون في المدن، ولها مكانها في «خان الخليلي»، رأيته في زيارتي الوحيدة للمحروسة مع أبي، وأنا صغير، وقرأت هذا في كتاب عن العطارة.

هز «أبو سريع» رأسه، وقال في موافقة تامة: رائحتها ستغطي رائحة الحشيش والأفيون، فلا تطير إلى حيث تصل إلى أنوف العربان أو مَن يحكمون.

جاء الرجال بالبذور التي عزموا على زراعتها. اتخذوا لهم بيوتًا قريبة منها لم تكن سوى كهوف غير عميقة، أو مساحات ممهدة محصورة بين صخرتين. لكن «مهدي» حدثهم عن بناء بيوت تأويهم. كان يفكر في أن يكون له أحدها، حتى يحمي زوجته، وطفله الذي أصبح على وشك المجيء، من عقارب الصحراء وثعابينها وذئابها.

لمّا نما الزرع جاء النحل من كل مكان، وحط على الزهر مختلف الألوان والأحجام، وبنى خلاياه بين الصخور، وأفرز عسله على مهل، ففتح بابًا جديدًا للخير، لم يكن الرجال يحسبون له أي حساب.

في زمن قليل نجح «مهدي» في ترويض عربان قبيلة «جهينة» الذين كانت لهم سطوة في هذا المكان. جعل بينه وبينهم تجارة،

فرضوا بالخير الذي ساقه الله إليهم على أيدي هؤلاء الذين أقاموا حياة في قلب الموت. تمكن من إبرام هذا الاتفاق قبل أن يحصد زرعه. اشترى بالمال المتبقي من سريقة قصري «آل الطوبجي» كباشًا وتيوسًا من العربان، يذبحونها ليأكلوا لحمها، وإبلًا لتحمل بضاعتهم. جعل من بين العربان ثلاثة، وثق فيهم، يمدون الفلاتية بما يحتاجونه لتستقيم حياتهم هنا، كأنهم هناك في الوادي. عزم على أن يكون من بينهم الذين يوزعون الحشيش والأفيون على الناس في القرى والمدن، وقال لهم: أنتم شركاء في العائد.

رضي العربان بهذا لأنهم لا يجيدون الزراعة والحصاد، ولم يعترضوا على أن يسكن هؤلاء الأغراب أرضًا يعتبرونها مملكتهم التليدة. رضوا أكثر حين زعم لهم «مهدي» أن كبيرهم «أبو سريع» من قبيلة المُزيِّني، وأنه قد عبر خليج القلزم إلى البحر الأحمر. اعتمد في هذا على أن الرجل كان بالفعل قد زار سيناء مرات للحصول على الحشيش، وعرف الكثير عن أهلها، فكان يسوقه أمام العربان كلما جرى الحديث عن المُزيِّنات على الألسنة، فآمنوا أنه واحد منهم.

قال أحد العربان: المُزيِّنات القدامى كانوا من صحابة النبي.

تساءل آخر: كيف لرجل من نسل النبي أن يزرع الحشيش والأفيون؟

رد «مهدي» على الفور: هو مَن أصر على زراعة نصف الأرض بالنباتات الطبية، ولا ينشغل إلا بها، وطالما حاول أن يثنينا عن زراعة المخدرات، ولا يملك حيالنا إلا دعوة الله لنا بالهداية.

لم يتغير موقف العربان بعد أن مات «أبو سريع». شاركوا في عزاءه

آسفين على رحيل واحد من خيرة رجالهم. بنى له «مهدي» قبرًا جعل له شاهدًا، وقال: كانت له كرامات عجيبة، وأعمال غريبة.

تطلع إليه العربان واجمين، فواصل كذبه: قادنا إلى هنا، وضرب يده على الرمل فخرج ماء، ثم أخبرنا بأنه ستكون لنا في المكان حياة سعيدة، وأوصانا خيرًا بأهله من البدو.

ثم نسج من خياله الكثير من الحكايات عن كرامات «أبو سريع»، والعربان منه في عجب، وقبلهم الرجال الذين معه، فسألوه، بعد رحيل العربان، عن جدوى كذبه، فقال: كذب أبيض، والناس يلتفون كثيرًا حول الأساطير.

سأله «سبعاوي»: من أين تأتي بكل هذه الحكايات؟

ضحك وقال: أنسيت أنني قد تعلمت القراءة والكتابة.. كتب الأساطير لا تبخل بشيء.

لمّا رأى الرجال نساء من العربان قادمات، وهن يحملن صغارهن، للتبرك بقبر «أبو سريع»، تعجبوا، وآمنوا بفائدة الكذبة الكبرى، التي صنعها عقل راجح، اختلق ما يجعل العربان راضين عن المكان وأهله.

لا يمر شهر حتى يقول «مهدي» للعربان: جاءني شيخنا «أبو سريع» في المنام بوجه منير مبتسم أضاء الليل، وأوصاني بكم وبرجالي خيرًا. تناسلت الحكايات، وسكنت رؤوس العربان، حتى قال كبيرهم ذات ليلة، وهو يجلس مع رجال «مهدي» حول الشواء: جاءني الشيخ الليلة الفائتة، وأوصاني بكم خيرًا.

اطمأن الفلاتية إلى ما صاروا فيه، فطلب منهم «مهدي» أن يهبطوا

إلى الوادي لاصطحاب زوجاتهم وأولادهم، وقال: تذهبون تباعًا، وليكن هذا خفية، وإياكم أن يشعر بكم أحد.

أبدوا أمامه مخاوفهم، فقال: نتعاهد على أن مَن يقع في أيدي الجُند أو الأهالي، يبتلع لسانه، فلا يدل علينا أبدًا، حتى لو وضعوه على النطع أو الخازوق، وسيكون أولاده في أعناقنا، نرسل إليهم ما يكفيهم كل موسم، دون انقطاع.

كان لبعضهم أولاد قد كبروا وتزوجوا، واستقروا في بيوت بالقرى والمدن. وانتبه «مهدي» إلى هذا، فقال: لا تصحبوا معكم سوى الزوجات والصغار.

عاونهم العربان على تحديد المكان الذي هم فيه بدقة، واصطحبوهم، وهم العارفون بدروب الصحراء، حتى النهر، فاستقل كل منهم مركبًا إلى مكان قريب من قريته، وانتظر حتى جاء الليل، فطرق باب داره، وأمر زوجته بالرحيل معه إلى أرض فيها خير، فأطاعته.

كانوا من بلاد متفرقة، يجيدون الاختباء والتسلل، فنجح أغلبهم في العودة بصحبة زوجاتهم وصغارهم.

واحد منهم، وجد زوجته قد فارقت الحياة، فجاء بصغاره. آخر رفضت زوجته أن تصحبه مفضلة البقاء بين أهلها. ثالث اسمه «مشحوت» لم يرجع.

(13)

انشغل «مهدي» بمَن لم يرجع، وقال لرجاله: أخشى أن يكون قد

وقع في أيدي الجُند.

قال «سبعاوي»: يُلزمه العهد أن يصمت.

لكن «مهدي» قال، وابتسامة فاترة ترف على شفتيه: تخور أحيانًا عزائم الرجال الأشداء من التعذيب الشديد.

(14)

نسي الرجال مَن غاب منهم، وتوالت الأيام رخيّة. يحصدون زرعهم، وتحمله الجِمال إلى حيث يُوزع. نبات التداوي إلى العطارين. الحشيش والأفيون إلى تجار المخدرات الموجودين في كل مكان. وتدفقت الأموال عليهم غزيرة، فكان «مهدي» لا يبخل على الرجال وأولادهم بشيء. ما تبقى كان يحفظه في مكان حفره عميقًا، بمساعدة رجاله، في باطن الصخر، وجعل في أعلاه بابًا سميكًا من حديد عليه أقفال غليظة، مفاتيحها معه.

ذات يوم جمع «مهدي» الرجال، وقال لهم: لا يجب أن نبخل على أولادنا بما كان يمكن أن يحصلوا عليه في القرى.

سألوه عما يقصد، فقال: نعلمهم القراءة والكتابة.

كان قد بنى مسجدًا بالقرب من البيت الذي تعيش فيه «كاترين» وابنها «فخر الدين» فجاء الرجال بأولادهم، فكان يقرأ عليهم من القرآن والأحاديث كل يوم. ثم طلب من العربان أن يساعدوه في استقدام شيخ للقيام بهذه المهمة، فقالوا: نعرف رجلًا فقيرًا غزير العلم يقيم وحيدًا في زاوية قريبة من البحر، اسمه «مكي الطماوي»، فطلب «مهدي» أن يأخذوه إليه ليقنعه، فجلس إليه ساعة من نهار،

ثم قال: حرام أن يذهب هذا العلم دون أن يستفيد منه الناس.

قال «الطماوي»: لا أكتمه على أي سائل.

قال «مهدي»: قد تمر شهور ولا تجد أحدًا من السائلين، وهناك بيننا صغار يسعدهم أن يكونوا لك تلاميذ نجباء.

بنى للطماوي «زاوية» يتعبد فيها حين يفرغ من تعليم الصغار. بنى «مهدي» للصغار كُتّابًا، وقال للرجال: نرجو أن يغفر الله لنا إثم الحشيش والأفيون، بهذا العلم وأعشاب الدواء، وعسل النحل.

رد عليه أحدهم وكان يليه في المكانة بين الرجال: احتياج بعض الناس للغياب عن الهموم ولو ساعة من نهار لا يقل أهمية عن حاجتهم إلى الدواء.

ضحك «سبعاوي» وقال: لكل داء دواء، ونحن لم نبخل على خلق الله بشيء.

(15)

لم يبخل «مهدي» على رجاله في مقامهم الجديد بالترويح عن نفوسهم، وكان يعرف ما ينقصهم وسط هذه الصحراء. كما كان يتذكر جيدًا الأفراح التي كان يقيمها أهله في القصرين، اللذين صارا للغريب، وكانوا يقولون له: هذا سلو عائلتنا منذ أيام جدنا «رضوان»، الجد الأكبر كان لا ينسى حظه من المتعة.

قال «مهدي» ذات يوم لأحد العربان: ما حال أعراسكم؟

نظر إليه متعجبًا، فالبدو لا يزوجون بناتهم للفلاحين، وظن أن

«مهدي» يريد مصاهرتهم لتقوى الرابطة بينهم، لكن فوجئ به يقول له: أتعرفون الغوازي والقوّالين وعازفي الرباب؟

هز البدوي رأسه، وقال: لنا طريقتنا، لكننا نعرفهم وبعضنا يأتي بهم لإحياء أفراح عُرس أو طهور، لكن هذا يتم على فترات متباعدة.

ثم نظر إلى «مهدي» وسأله: هل تريد هؤلاء؟

- نعم.

- هل سيتزوج أحد رجالك؟

- لا، لكننا نريد أن نحتفل بأرضنا الجديدة، ولم شمل أسرنا.

فكّر قليلًا، وقال: سأحدث شيخ قبيلتنا في الأمر، ليرسل أحدًا من رجالنا في طلب جوقة «عبد الوارث»، فمعه غازيتان من المساليت، واحدة اسمها «بخت» والثانية «زارا»، ما سلم أحد من سحر رقصهما.

جاءت الجوقة بعد أن أقنعها رسول شيخ قبيلة «جهينة» بأن صاحب الفرح رجل كريم سيجزل لهم العطاء. اختاروا بقعة من الرمل الصافي، يطل عليها قمر ليلة صيفية طيبة النسائم، وأقاموا فوقها نصبة من الأحجار المستوية، وفرشوها بالسجاجيد. جاءوا بمقاعد من بيت «مهدي»، وفرشوا حصرًا للرجال، وأخرى للنساء والأطفال. كانت الليلة الوحيدة التي اختلط فيها نساء العربان بنساء الفلاحين، والأولاد بالأولاد.

قبل أن يبدأ الغناء والرقص مُدت أسمطة الطعام من اللحم والطبيخ والأرز، وصواني البسبوسة والكنافة، ووضعت «الجوَز» المعمرة بالحشيش، فانفتحت النفوس على الطرب. شرب «خراجة»

و«سبعاوي» ومعهما ثلاثة من العربان قرعات البوظة، فكانوا الأشد تمايلًا حين عزف الرباب.

بدا «مهدي» غاية في الامتنان لأنه شعر في هذه اللحظة بأنه يستعيد جانبًا من أمجاد عائلته. كان حريصًا، إن جالس الرجال لشرب الحشيش، على ألا ينسطل، مثلما كان يفعل والده وعمه، مكتفيًا بالضحكات الصافية، كلما أطلق أحدهم نكتة، أو حكى حكاية غريبة، لا يعرفون إن كانت حقيقة أم خرافة.

هذه المرة لم تطلق ضحكات على شيء، إنما كان التمايل مع العزف والرقص، الذي ألهب النشوة في نفوس الرجال. نسوا أين هم، وسقط من رؤوسهم الأسى على ما جرى في أيامهم السابقة التي حاولوا فيها أن يغلبوا التعاسة، لشعورهم العميق بأنهم سجناء حتى في هذه الأرض المفتوحة على السماء.

رقصت «بخت» و«زارا» حافيتين على النصبة المستوية. مالتا مع الرباب كالخيزران، تستعرضان مفاتنهما. زادتا في الرقص كلما هبّ الرجال واقفين، رافعين عصيهم ليشاركوا الراقصتين الدوران اللطيف، ويرمون على جسديهما اللولبيين ما في جيوبهم من نقود.

لعبت البوظة برأس «خراجة» وكان يعب منها دون حساب، فغاب عن كل مَن حوله إلا الراقصتين. صعد إليهما يغالب ترنحه. دس يده في جيبه، وأفرغ كل ما فيه من نقود فوق رأس «زارا»، التي كانت أشد حُسنًا، وراح يقول وهو يشير إلى الزرع الذي يحط عليه ضوء شحيح لقمر يريد الرحيل، حتى تردد الراقصة خلفه: سمعني أحلى سلام يا عم لأكبر زُرّاع الكيف في الزمام كله. ثم أمسك عصاه بكلتا

يديه ورفعها، وطوق بها جسد الراقصة، وهي تميل معه، فتثير جنونه. دون أن يدري جذبها إليه، فالتصقت به على غير إرادة منها، فعصرها عصرًا، لتسقط العصا، وتصير «زارا» في حضنه، نهداها في صدره، وجيدها يستقبل قبلات لاهبة من فمه الذي تفوح منه رائحة البوظة.

وقع هذا في ثوانٍ معدودات، فتوقف الرباب عن العزف، واكتسى وجه «عبد الوارث» بفزع شديد. جرى لينزع «زارا» من يد «خراجة»، بينما كان رجلان يصعدان سريعًا إلى النصبة. جذبا صاحبهما بشدة، فسقط مكانه، والنساء يغطين عيونهن، ناظرات من أطراف الطُرح السوداء إلى زوجة «خراجة» التي كانت ساهمة في غضب.

نظر «عبد الوارث» إلى «مهدي» الذي كان يجلس بين رجاله مندهشًا مما يجري، وقال: لست قوادًا يا سادة، وليس معي لحم رخيص.

نطق «مهدي» على الفور: الحق معك، وما تطلبه مجابًا.

مشى «عبد الوارث» خطوات إلى الأمام حتى صار على طرف النصبة في وجه الرجال، وقال: أنا مثلكم من الصعيد، لا أقبل ما جرى، والبنتان إن كانتا راقصتين من المساليب فهما ليستا عاهرتين.

كانت «زارا» واقفة في الخلف تجهش بالبكاء، بينما «بخت» تُهدئ من روعها. كان العازفون قد ركنوا الرباب إلى جانبهم، وأسند الطبال طبلته فوق فخذه صامتًا مثلها.

طلب «مهدي» قطعتين من الجبن الغارق في المش وكوزًا من الماء،

فجيء بها على الفور. أمر «خراجة» أن يأكل الجبن، وصب على رأسه الماء، فلما أفاق، قال له: اصعد لتعتذر عما فعلت.

نظر إليه، وسأله: وماذا فعلت؟

همس أحد الرجال في أذنه بما جرى، فسرى الخجل في ملامحه، ثم قال: ما يأمر به سيدنا.

صعد إلى النصبة، ووقف أمام «زارا» وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه في عينيها، ثم لثم رأسها بقبلة تملمت لها، وقالت له: خلاص، حصل خير.

عاد العزف والطبل والرقص، وصدح «عبد الوارث» بمواويل ارتجلها خصيصًا عن أهل الكيف، وسكان الجبال، والسيد الكريم الذي أولم له، ومنحه وجوقته أكبر أجر حصل عليه في حياته، ولم ينسَ بالطبع شيخ العربان، وكبار رجالهم.

حين استيقظ الجميع بعد الظهر، طلب «مهدي» من أحد الرجال أن يأتي إليه بالقوّال «عبد الوارث»، فلما مَثُل بين يديه، اعتذر له عما جرى أمس، وأهداه ثلاث ظرب من الحشيش وأوقية أفيون، وثلاث صفائح من عسل النحل المُصفًّى.

ابتسم الرجل، وهو ينظر إلى وجه «مهدي» في امتنان، وقال: ليلة لا تُنسى، إنها أجمل ليلة أحييتها طوال عمري.

(16)

حين استقر الوضع للرجال في مكانهم الجديد، فكر «مهدي» في أمرين كان يؤجلهما إلى الوقت المناسب: الاطمئنان على والدته التي

انقطعت أخبارها عنه منذ سفرها، ومعرفة ما يجري في «الجابرية»، امتثالًا للوصية التي لم ينسها.

كان يريد أن ترى أمه حفيدها الذي أنجبته الروسية الحسناء. طلب من زوجته أن تستعد لزيارة خاطفة إلى المحروسة، فانخطف قلبها من الفرح، وقالت: كم أنا في حاجة إلى رحلة!

ابتسم، وقال لها: فرصة أن تري حماتك، وترى هي حفيدها.

لم يكن يعرف في المحروسة سوى عمه «محمد»، الشيخ الأزهري الجليل، هكذا ظل قائمًا في مخيلته، منذ أن رآه صغيرًا. كان يتذكر أيضًا ابنه «خير الله» الذي كان قد شب عن الطوق صبيًا فتيًا تظهر عليه علامات النجابة والشجاعة.

نزل مع زوجته وطفله في فندق اسمه «التفاحة»، قريب من «خان الخليلي»، يرتاده التجار الواردون إلى الخان من بلاد بعيدة. استأجر غرفة، وبات فيها ليلته. في الصباح تناول إفطاره، ونزل إلى قهوة قريبة. دخن أرجيلة، بدلًا من جوزة الحشيش التي يتناقلها الرجال في يسر بجلسة لهم على الرمل، وإلى جوارهم راكية تنفخ الريح في جمرها الزاهي.

كان يريد للوقت أن يمر حتى تقترب صلاة الظهر، فيكون الشيخ «محمد» قد ذهب إلى عموده ليلقي درسه على طلاب العلم. قبيل الظهر، صعد إلى الفندق، واصطحب معه «كاترين». سارت خلفه تحمل طفلها على صدرها، حتى بلغ الجامع الأزهر.

حين نطق باسم مَن يريده في الأزهر، قال له شيخ معمم من

تلاميذ «محمد»: توفاه الله قبل سنين، لكن البركة في ابنه. ثم قاده إلى دكان «خير الله»، الذي كان يجلس داخله فوق كرسي عالٍ، يتابع البيع والشراء. دخل إليه وخلفه «كاترين» ملفوفة في عباءتها، ووجهها محجوب خلف اليشمك، لكن حُسنها يطل من الفتحات المتتابعة. قام لها «خير الله» مرسلًا كل ناظريه إليها، دون أن يرى الرجل الذي يتقدمها بخطوتين.

كشف «مهدي» عن شخصيته، فتلقفه «خير الله» بين ذراعيه، وقال: الغالي ابن الغالية.

ثم طأطأ رأسه في أسى، ولم يدرِ ما يقول، فأطلق التوجس في نفس «مهدي»، الذي نطق بصوت خفيض: لعل أمي بخير.

صمت «خير الله» وقال: تعالَ نتحدث في البيت أفضل.

في البيت أبلغه بأن أمه ماتت قبل سنة، ومات «جمال الدين» بعدها بشهرين، ودفنهما في مقبرة الأسرة. بكى «مهدي» بحرقة، حتى أبكى «كاترين»، وقال: أريد أن أزور قبرها. فأخذه إلى حيث ترقد. جلس أمام قبرها، وعلا نحيبه، و«خير الله» يشاطره البكاء، وقال: لم تكن أمك وحدك، كانت أمي، وقد عاشت معنا، لا كلام لها إلا عنك. وصمت برهة، وقال: قبل موتها بأسبوع فاتحتني في أمر رحيلها للبحث عنك، لكني خفت عليها، واستمهلتها أيامًا حتى أطمئن على تجارتي وأسافر أنا لهذه المهمة، وسبقنا جميعًا السر الإلهي.

هز «مهدي» رأسه، وكأنه يستجمع كل الذكريات في نقطة واحدة، وقال: كنت أنوي أخذها إلى حيث أقيم الآن في بيت يليق بها. أنا الآن لي مكان ومكانة كانت ستعيدها سيدة عزيزة كما كانت في

قصر أبي.

رد «خير الله» في أسى: يكفيها أنها مدت الحبل بيني وبينك، ثم مدته إلى الصعيد الجواني، حيث «الصابرية» المغدورة، وأوصتني بما أوصتك به.

(17)

حين عاد «مهدي» إلى الجبل، وخلفه جمل يحمل ما اشترته زوجته من ملابس وأثاث وبعض أطعمة جافة، كان «شلتوت» الذي أرسله إلى «الجابرية» قد رجع حاملًا أخبارًا جديدة.

عرف «مهدي» أن التزام «الجوابر» لم يعد على حاله بعد موت «أدهم»، فابنه الأكبر «خالد» لم تكن له حكمة أبيه وكرمه. صار أهل القرية يتهامسون عنه بكل أمر مشين، لا سيما ما يفعله مع عمته «لواحظ»، وهي أرملة جميلة، أصابها خبل بعد الخمسين.

كانت تغافل مَن في السرايا، وتتسلل هائمة على وجهها فوق الجسر، ثم تنزل إلى الزرع لتختبئ فيه. يبحثون عنها في شوارع القرية، ويسألون الناس، فيدلونهم على المكان الذي ذهبت إليه. حين يعثرون عليها يجدونها قد خلعت ملابسها، ونامت عارية لا تسترها إلا أعواد الذرة أو القصب أو أغصان القطن، وسبلات القمح، فهي كانت تهرب في كل المواسم. أحيانًا كانت تملأ حجرها بالأحجار، وترمي الصغار وهي تسبهم بألفاظ نابية، فيجرون منها ضاحكين.

جاءوا إليها بالشيوخ والقساوسة، وهم يظنون أن جنية شريرة قد سكنت جسدها، ولا بد لها من الخروج، لتعود إلى سيرتها الأولى، لكن

الجميع فشل في إعادتها.

قال لهم «مجذوب» يسكن الزاوية: انجذبت، فاتركوها. لكن عطارًا قديمًا ذا حكمة، قال، بعد أن سمع منهم حكايتها: هو خبل، لن تفلح فيه الأدوية، وقد يذهب عنها فجأة، كما جاء فجأة. وسألهم إن كان في أجدادهم مَن كان على حالها، فقالوا له: لا نعرف. فهز رأسه، وقال: يكمن الخبل أجيالًا، ثم يظهر من جديد. ونصحهم بألا يضايقوها، وحدثهم عن بيمارستان في «القاهرة» عمره قرون ينظر في أمثال حالتها، ونصحهم بالذهاب إليه.

لكن «خالد» حبسها في غرفة بالسرايا، تدخل عليها الخادمة بالطعام والشراب، وتسوقها إلى الحمّام لتقضي حاجتها، ثم تعيدها إلى غرفتها. تهاجمها في بعض الليالي نوبات من الصراخ، فيمزع صوتها النافذة، ويدور في الشوارع القريبة من السرايا، فيمصمص الناس شفاههم في أسى، ويرفعون أيديهم إلى السماء داعين الله أن يرد إليها عقلها. أما «خالد» فيهرع إلى غرفتها ويوسعها ضربًا، حتى تخمد.

حكى «شلتوت» أيضًا عن هروب فلاحين كثر من أراضيهم، باحثين عن ملتزمين آخرين في أقاليم أخرى. زاد الرجل في هذا أن قال: حفيد «أدهم» واسمه «عماد» يشكو أطفال الجابرية من أذاه. خلع عين أحد أبناء عمومته، وكسر رجل طفل آخر من آل بخيت، وقطع إصبع طفل من النصارى بالمنجل.

سأله «مهدي»: هل سكتوا على ما جرى لأولادهم؟

أجاب «شلتوت»: لا أحد منهم يجرؤ على الاعتراض أو الثأر.

رمى «مهدي» بصره إلى قدميه، وقال: مع هذا الصغير المجرم سيضيع الالتزام.

لكن «شلتوت» قال: بعض المجرمين يحسنون إدارة أموالهم.

(18)

لم يكن «مشحوت» قاتلًا أو هاربًا من أرض الالتزام، إنما سرق بقرة وباعها في السوق، ولمّا ثبتت عليه السرقة، حكم عليه رجال قريته بدفع ثمنها لصاحبها كاملًا، وزادوا على ذلك بأن يُزفّ في القرية راكبًا فوق حمار، وجهه إلى الخلف، وظهره إلى الأمام.

أمهل أهله دائنيه يومين حتى يدبروا المال كاملًا، وقالوا: أنفق أغلبه في شراء أشياء لبيته. ثم طلبوا منه الهرب، حتى لا يجد الناس مَن يزفونه غارقًا في عاره، على أن يجمعوا هم المال ويسددوه عنه. ولمّا صعد إلى الجبل، وانضم إلى الفلاتية، تنصلوا من الإيفاء بدينه. عرف الناس أنه قد صار لصًا محترفًا، فأقسموا أن يُعاقَب بما هو فوق دفع ما عليه أو زفه، وأبلغوا السنجق، فسجله من المجرمين الهاربين. ولمّا عاد إلى قريته شعر به بعض الساهرين على المصاطب، فتعقبوه وأمسكوا به، وسلمه الخفر إلى الحكمدارية، فنقلته إلى السجن.

في السجن يُسري الموقوفون عن أنفسهم بالحكايات. كل يقص على الناس ما جرى له. وجد «مشحوت» أن المبالغة في إظهار الإجرام تعطيه قوة في مواجهة عتاة المجرمين، فقص على الأسماع مغامرته. زعم أنه هو مَن حفر البئر، وغرس الزرع، وادخر ثروة طائلة

من صناديق مملوءة بالنقود والمجوهرات والذهب مدفونة في بطن الجبل، لا يعرفها غيره، ثم وعد الرجال بأن يكون لهم منها نصيب حين يخرج.

في السجن يندس العسس بين الزنازين، يلتقطون الأخبار، ويُبلغون عمّن يفكر في الهرب، ويكتشفون حقيقة الجرائم الخفية، ويعرفون ما يُضمره السجناء حيال المماليك وبني عثمان. اقترب أحد العسس وكان اسمه «سعدون» من «مشحوت»، حتى صار يراه صديقه الصدوق، وكانت مهمته أن يعرف منه مكان الثروة المزعومة. وقال له ذات ليلة بعد أن هرّب إليه علبة من دخان فاخر: ربما أموت قبلك، أو تموت قبلي هنا، فأعمارنا في يد صاحبها.

نظر إليه في اندهاش، إذ كانت المرة الأولى التي يسمع فيها أحدًا يتحدث عن الموت في السجن بهذا الجلال، وقال: لن أموت إلا بين رجالي في مملكة الجبل.

وكلمة بكلمة، عرف «سعدون» مكان المملكة التي يتحدث عنها «مشحوت»، وعرف أيضًا أن سلطانها الحقيقي اسمه «مهدي بن مالك»، وأنه رجل انحدر من نسل كبار كان لهم التزام في «المنيا» ترمح فيه الخيل فلا تبلغ آخره بعد ساعة، وأنه هو مَن يؤتمن على الثروة الطائلة، لكنه لا يبخل على رجاله بكل ما يحتاجونه.

كان السنجق لا يريد منه إلا هذا، لكنه قال لنفسه: ما يدرينا أن يكون السجين يدلنا على مكان خاطئ، فمَن هذا الذي يفرط بهذه السهولة في نصيبه في ثروة طائلة، جُمعت من بيع المخدرات والعطارة وعسل النحل الجبلي الشهي.

ووضعت الخطة الناجعة، التي تهدي الطامعين إلى أرض «مهدي» الجديدة. همس «سعدون» ذات ليلة في أذن «مشحوت»: من العبث أن نموت معدمين بينما عيش هانئ ينتظرنا هناك؟

رفع «مشحوت» رأسه، وقال: لا أمل لنا إلا أن يمد الله في أعمارنا إلى أن نخرج من هنا سالمين.

قهقه، وقال: أغلب مَن دخلوا إلى هنا خرجوا إلى قبورهم.

(19)

ذات ليلة جاء «سعدون» يلهث، وقال لـ «مشحوت» الذي كان يستعد لغسل واحد من جلبابين قديمين يمتلكهما: حان وقت الهرب.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: أي هرب والحراس ساهرون؟

اقترب منه في تصنع، وقال: رشوت حارسًا منهم، وسيترك لنا بابًا خلفيًا يطل على الزرع، فإن خرجنا سترتنا الذرة، ولم يدرِ أحد بنا.

تردد «مشحوت»، وقال: يبدو أنك تسعى إلى قتلنا.

شد على يده، وقال: الفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، وهي في السجن نصف فرصة، فإن لم ننتهزها الآن تحسرنا عليها حتى نموت بين هذه الجدران الكالحة.

وأشار إليه: اتبعني.

مشى خلفه حذرًا، حتى بلغا الباب، وكان الحارس يبتسم لهما، وإمعانًا في الخداع، أمسك بكتف «سعدون» وقال: ما دفعته يكفي لهروب سجين واحد.

دس «سعدون» يده في جيبه، وأخرج فضيات وألقاها في يد الحارس، ثم هرع نحو الباب حتى خرج، و«مشحوت» خلفه. أغلق الحارس الباب وراءهما، فقال «سعدون» آمرًا: استلقِ على بطنك، وازحف على هذا النجيل حتى نصل إلى غيطان الذرة.

زحفا مسافة لا تزيد على عشرة أمتار، ثم دخلا إلى الزرع، فغطتهما أعواد الذرة العالية. سارا فيها نحو الشمال حتى ابتعدا عن السجن، وعندها قال له «سعدون»: هل تعرف الطريق إلى النهر؟

هز رأسه، وقال: هذا أسهل عليّ من شرب الماء.

ضحك «سعدون» وقال: وأسهل عندي من شم الهواء.

أبلغه بأنه يعرف مكان مكوث قوارب صيادين، فسار خلفه، حتى وصلا إلي المكان المقصود. كانت القوارب راسية، مشدود كل منها إلى وتد مدقوق على الشاطئ. انتبه «مشحوت» إلى مراكب تظهر أشرعتها في الظلام، فقال: فأل طيب، فهي تحمل الأرزاق إلى البعيد.

كانت المراكب مملوءة بجند مدججين بالسلاح. وضعوا أسلحتهم في قعورها وجلسوا في أماكنهم حتى لا يُفضح أمرهم. كان بين الجند مَن يراقب تحرك الرجلين جيدًا، ويأمر المراكبية بالابتعاد كي لا يلاحظ «مشحوت» مَن بها.

استأجر «سعدون» قارب صيد، فاندفع بهما إلى الشاطئ الشرقي. حين نزلا، قال «مشحوت»: أعرف رجلًا من نجع قريب اسمه «عسران»، يوزع لنا الحشيش، سنقصده ليرسل معنا دليلنا في الجبل، وقد نبيت عنده ليلتنا، والصباح رباح.

رفض «سعدون»، وقال: الليل ستار، ولا بد أن نكون في قلب الجبل قبل أن يطلع النهار، فقد يكون بقية الحراس قد اكتشفوا هروبنا، وأرسلوا خلفنا مَن يلاحقنا.

هبط الجنود على الشاطئ. جعلوا بينهم وبين الرجلين مسافة كافية لتغطية تقدمهم الوئيد. كان بينهم رجال مختصون في العس والمراقبة، فتقاطروا تباعًا، أولهم يرى «سعدون» و«مشحوت»، وآخرهم يسبق الجند بخطوات.

حين دخل الرجلان النجع، وقف الجنود بعيدًا، محتمين بحقول الذرة. طرق «مشحوت» بابًا على طرف النجع، ففتح رجل ربعة يفرك عينيه من أثر النعاس. كان يعرف «مشحوت» جيدًا، فطالما قابله في الجبل، أو كان هو يهبط إليه في النجع حاملًا ظرب الحشيش على ظهر جمل عفي، بعد أن غطاها بأعواد الشيح والحبق.

قال «عسران» وهو يطوق «مشحوت» بذراعيه: أهلًا بالغائب العزيز.

صافح «سعدون» ثم أخذهما إلى مندرة الضيوف. أيقظ زوجته لتعد لهما طعامًا وشرابًا، لكن «سعدون» قال له: ضيافتنا أن ترسل معنا مَن يدلنا على الطريق.

نظر «عسران» إلى «مشحوت»، وقال: لم تُعرِّفني بصاحبك.

رد: زميلي في السجن، اسمه «سعدون»، ساعدني على الهرب، وله في عنقي دَين لا أنساه طالما أتنفس.

حين جلس «سعدون» طلت من جيبه فوهة طبنجة، فلمحها

«عسران» ودارت في رأسه الظنون. كان يعرف أن هذا السلاح قد ورد حديثًا إلى مصر، ولا يحمله إلا جند المماليك، وستمضي سنوات حتى يُمكن أن يصل قديمه إلى أيدي الفلاحين.

نظر «عسران» في وجه «سعدون» طويلًا، ثم سأله: من أي بلد أنت؟

قفزت إلى ذهنه إحدى القرى التي طالما عس أخبار أهلها، ففتح الباب لمداهمة جند المماليك لها في أيام سالفة، فقال: أنا من «السفيانية». كان «عسران» يعرف العائلات التي تقطن هذه القرية، حيث يوزع الحشيش على كبارها، فسأله: من أي عائلة أنت؟

خانته الذاكرة، فأجابه: عائلة البهجوري.

ولم يكن في هذه القرية أي فرد ينتمي إلى هذه العائلة، فأدرك «عسران» أنه ربما يكون فخًا قد نُصب لـ «مشحوت» ولا يدري. ولأنه موزع مخدرات له أنف يقظ، يشم به رائحة الفخاخ والشراك التي تُنصب لأمثاله، ساوره شك عارم في «سعدون». قام من مكانه، وخرج من الغرفة، ثم أشار إلى «مشحوت»، وقال: لا بد أن ترى أولادي، لقد كبروا، وسيفرحون برؤية رجل كان يحمل إليهم العسل الجبلي الذي يحبونه.

حين انفرد به في غرفة أخرى، سأله: هل تعرف هذا الرجل جيدًا؟

أجابه: قضى معي في السجن الشهور الأخيرة، وكان نِعمَ الصاحب.

وكرجل محنك، مد «عسران» دائرة الشك لتطول «مشحوت»، فلم يخبره بهواجسه. أخذه إلى غرفة أولاده، وكانت أجسادهم قد

تمددت فوق حصير مفروشة عليه حاشية من قطن. فأشار إليهم، وقال: لقد كبروا.

ثم التفت إلى «مشحوت» وقال: هل أوقظهم، أم يرونك حين يستيقظون فجرًا كعادتهم.

ابتسم «مشحوت»، وقال: لا تقلقهم.

دخل إلى زوجته، وأيقظها، وقال لها: جهزي ما عندك من طعام.

فلما عاد إلى مندرة الضيوف، قال: لا ملح في البيت، سأخرج لأحضر بعضه من عند الجيران.

خرج مسرعًا، قطع الشارع الجانبي، حتى وصل إلى بيت «محجوب» الناضورجي، فأيقظه، وقال له: اركب فرسك، واصعد سريعًا إلى الجبل، أبلغ السيد «مهدي» أن أمره انكشف، وقد يهجم الجند عليه قبل طلوع النهار.

أثناء عودته حاملًا قرطاس ملح، أخذه من بيت «محجوب»، لمح رجلًا يحاول الاختباء خلف جدار بيت جانبي، فأدرك أن شكوكه كانت في محلها. عاد إلى البيت، وقال لضيفيه: لم أجد ملحًا في هذا النجع البائس إلا في بيت بعيد.

استبقاهما حتى أكلا، وكان يطمئنهما وثلاثتهم يزدردون بشهية مفتوحة، إلى أنه سيمضي بعد أن يفرغوا من الطعام، ليوقظ الدليل.

لكن «مشحوت» قال له: لن نحتاج إليه، فقد تذكرت الآن الطريق إلى الجبل.

(20)

عاد العساس إلى قائد التجريدة، وحكى له ما رآه، فهز رأسه، وقال: يبدو أننا مضطرون إلى الانتقال إلى الخطة البديلة.

ثم نظر إلى العساس، وسأله: هل تعرف بيت الرجل الذي ذهب إليه الهارب ورجلنا؟

هز رأسه، وقال: أعرفه كما أعرف نفسي.

أمر القائد أغلب جنده أن يسبقوه إلى سفح الجبل وينتظروا، حيث وقفت الخيل والجِمال التي حملتها ثلاثة مراكب. استبقى معه عشرين رجلًا، قادهم داخل نجع نائم، والعساس يحدد له أين يمضي، حتى بلغت التجريدة الصغرى بيت «عسران». كان الباب مغلقًا، فدفعه الجنود بأقدامهم وانكسر الترباس، وصاروا داخل البيت، فلما لمحهم «سعدون» أخرج طبنجته سريعًا، ووضعها في رأس «عسران»، وقال لـ «مشحوت» مواصلًا خداعًا تدرب عليه طويلًا: نصب لنا صاحبك فخًا.

وقف «مشحوت» مبهوتًا من فرط الفجيعة، لا يقدر على تحريك ساقيه، حتى أمسك به الجُند. قاد الجُند الرجلين إلى خارج النجع، وساروا بهما حتى بلغوا الجبل، فرأى «مشحوت» جندًا كثيفًا ينتظرون. كان «سعدون» يلاصقه، فنظر إليه متحيرًا، فقال له ضاحكًا: أديت واجبي، وأشهد بأنك كنت صيدًا سهلًا.

ثم همس في أذنه: ليس أمامك سوى أن تدلنا على الطريق إلى سيدك «مهدي» وإلا قتلناك.

تدخل قائد الجند: تضليلنا يعني صلبكما أو حرقكما وأنتما حيّان.

تململ «عسران» و«مشحوت» في سيرهما، فدفعهما الجند بدباشك البنادق في جنبيهما، فندت عنهما صرختان مزعتا الليل الجاثم فوق الرمل والحصى والصخر. في هذه اللحظة كان الناضورجي يركب فرسه، ويضربها بقدميه في جنبيها لتسرع به نحو الشرق، حيث «مهدي» ورجاله.

(21)

لم يفزع «مهدي» لما سمعه من الناضورجي، حين دق باب بيته وأيقظه، وقال: ربما «عسران» يبالغ كعادته.

وما هي سوى ساعة حتى وصل ناضورجي آخر، وقال: تجريدة لم أرَ مثلها من قبل متوجهة إلى هنا، ولا يمكننا هزيمتها.

أرسل «مهدي» الناضورجيين لإيقاظ الرجال، فهبوا فزعين إلى بنادقهم. أما هو فأيقظ «كاترين» وأركبها فرسة عفية، ووضع على فرسة أخرى ما استطاع من صناديق المال والذهب، وكان رجاله قد تجمعوا حوله، فقال لهم: نهرب بعيدًا ونراقب.

ساعدهم العربان في أن يسلكوا مدقًّا ينتهي إلى تلٍّ عالٍ يحجبهم عن الأنظار، فغابوا بعيدًا، حتى وصلوا مغارة مهجورة، فقال «مهدي»: نحط رحالنا هنا إلى حين.

(22)

لم يستطع «عسران» و«مشحوت» عصيان أمر الجند، فقاداهم إلى حيث مملكة «الفلاتية» المهجورة. بلغوها والفجر يرمي غبشه على

الجبل. فزعوا لما رأوه. أرض مزروعة تحيطها الصخور العالية. بيوت من طابق واحد مبنية من الحجر. بيت واسع من طابقين يقف على الطرف في اتجاه النسائم البحرية.

صرخ قائد الجند في أسيريه: أين مكان الخبيئة؟

أخذه «مشحوت» إلى مكان قريب من البيت الوسيع. وقف فوق رمل، وقال: لنحفر هنا.

على الفور، ضرب الجنود دباشك البنادق، فهالت الرمل بعيدًا. أطل عليهم باب من حديد عليه أقفال غليظة. ضربوه بقوة لكنه استعصى عليهم. فقال القائد: أشعلوا نارًا.

جيء بالنار لتصهر الأقفال. حين احمرّ الحديد حزوه بالخناجر في عنف فانكسر، وكان الحديد تحته قد صار جمرة كبيرة، فهالوا عليه الرمل. انطفأت النار، ثم أفرغوا فوقها ماء ثلاث قِرب ليبرد الحديد، فبرد، حين مد القائد يده، ورفع الباب انزاح عن سرداب فارغ.

صرخ القائد في «مشحوت»: أين الكنز الذي كنت تتحدث عنه في سجنك؟

أجابه وهو يرتعش: لا أعرف غير هذا المكان.

حاوره القائد طويلًا، وهو يتوعده، ثم أدرك أن الهاربين قد أخذوا معهم المال والذهب. أرسل ثلثي التجريدة تبحث عن الهاربين في الجهات الأربع. حين عادوا بلا أحد ولا شيء، قال القائد: أحرقوا كل شيء.

حرقوا الزروع التي كان موعد حصادها قد اقترب. حرقوا ما

تبقى في البيوت من أثاث، فصارت خاوية. خلعوا سور البئر، وألقوا الأحجار في جوفه، ثم أهالوا فيه الرمل حتى ظمر الماء. حرقوا ألواح الإردواز في الكُتاب، وكل ما وجدوه فيه من قراطيس وكتب.

اندلع الدخان كثيفًا، فهرب النحل تاركًا خلاياه، وهجم الجنود عليها، يخلعون الشمع المملوء بالعسل، ويلهطون منه ما شاءوا، ويضعون البقية في أوانٍ التقطوها من البيوت المشتعلة فيها النيران، ثم حملوا بلاليص المش والعسل الأسود والأبيض، ورصات البتاو التي كانت واقفة في غرف الخزين، وأجولة الخبز المحمص، وزكائب الدقيق والسكر والأرز. رفعوا كل هذه المؤن فوق ظهور الجمال، التي كانوا قد جهزوها لحمل ما يجدونه.

بعدها وقف القائد بين جنده، وقال: سنعود ومعنا ما نهدم به كل هذه البيوت.

وقيّد الجند أذرع الأسيرين من خلاف، ليؤخذا إلى السجن. وقال القائد لهما ساخرًا: لولا أنكما تعرفان وجه «مهدي» هذا لدفنتكما في السرداب الذي لم نجد فيه الخبيئة.

لم يبقَ في المكان سوى الرماد، وضريح «أبو سريع»، وأطلال بيوت شاهدة على أن رجالًا قد مكثوا هنا طويلًا، وأقاموا مملكة فوق الرمل والحصى، تنظر إليها التلال المحيطة في عجب، من قدرة الإنسان على صنع الحياة في قلب الموت. وغنّى القوّال على ربابته بصوت يفضي إلى البكاء. كان يطوح رأسه يمنة ويسرة، وكأنه يبحث عن دروب ضائعة أمام أقدام الهاربين:

فلاتي ينادي ليلاتي

ع الخلا يستر هروبه

الخوف لمّا يواتي

السبع تهرب دروبه

حَيّ الغُربَاء

(1)

تهدي الطبيعة وتجارب السابقين الأذكياء من البشر بعض سبل الفلاح والسلامة. إنهم أولئك الذين يستفيدون من قوانين الأشياء حولهم، ومما عركه الذين دبت أقدامهم على هذه الأرض ورحلوا. الأحمق فقط مَن يظن أنه جاء بغتة، وسيظل معلقًا في الفراغ، لا أصل له مغروس في الطين، ولا هامة تلامس النجوم الزاهية.

تجربة وحيدة كان على «مهدي» أن يبحث عما يشبهها في تاريخ أجداده، وهو يجلس هناك أمام قصر أبيه ساعة من النهار ينظر إلى الزرع والنخل والشجر، أو إلى النحل والنمل والفراشات والجراد والعصافير واليمام، بل إلى السحالي والثعابين في الجبال، ليتعلم منها كل ما ينقصه.

(2)

فر العربان لأنهم يدركون أن المماليك لن يصدقوا أبدًا أن فلاحين من الوادي قد جاءوا إلى الجبل، وعمّروا ما تحت أقدامهم، دون أن يعلم هذا سكان الصحاري الأصليين، وهم إن كانوا لا يجيدون فنون الزراعة، فدون شك قد شاركوهم التجارة، أو قبضوا ثمن بقاء هؤلاء الأغراب كل هذه السنين.

وحدهم العربان كان بوسعهم أن يعشوا على ما جرى في المكان الذي تركوه خلفهم. حين تلصصوا من بعيد، مرسلين هذه المرة، بعض نسائهم يركبن الحمير، ويشقن أمامهن الماعز والغنم، عرفن أن

المماليك قد دمروا كل شيء. حتى البيوت رأوها تتهدم بأيدي رجال يضربون فيها الأزاميل، فتتكوم أحجارًا، متآلفة مع التلال المحيطة بها من بعيد.

لم تنطق النسوة، وماعزهن تزحف نحو نباتات قليلة لم يطلها الحرق، لكنهن حين رأين الأزاميل تمتد إلى ضريح «أبو سريع»، رمحن نحو الهادمين، وقالت إحداهن: هذا شيخ مبروك منا، لا علاقة له بالأغراب، فلا تهدموه وإلا طالكم الأذى.

أنصت خولي الأنفار لهن، ورفع بصره إلى الضريح، وقال: اتركوه.

حين علم «مهدي» بما جرى، قال لرجاله: لا مكان لنا في الجبل.

نظروا إليه في عجب، فكلهم هاربون من الوادي إلى الصحراء بحثًا عن أمان وصحبة ورزق ولو شحيح يبقيهم على قيد الحياة. سألوه، فأجابهم: نبتعد ونبحث عن مكان آمن.

نادى شيخ العربان، وأعطاه مالًا وذهبًا مما معه، حتى يتركهم يغادرون إلى حيث شاء رجل لا يزال مسكونًا بالأرض العفيّة التي قسّمها أولو الأمر بين الكبار، يعصرون فيها عرق الفلاحين ودماءهم، من أجل أن تمتلئ خزائن السادة بالمال.

حين هبط «مهدي» مع زوجته وطفله ورجاله إلى الوادي، نظر إلى «كاترين» وقال: آن الأوان أن تكوني سيدة في بيت وسط الناس.

(3)

نزل «مهدي» ورجاله إلى «قنا». كان في الطريق إليها قد استعاد حكاياته حول «أبو سريع»، وقال لرجاله:

- هو الوحيد الذي نجا من أيدي العابثين.

نظروا إليه مستطلعين ما يفكر فيه، فقال: حول ضريح «القناوي» تكون أيامنا القادمة.

(4)

تحدث الناس في «قنا» طويلًا عن تاجر أتى من بلاد بعيدة، بعد أن ناداه «القناوي»، فترك دنيا مُنعمة خلفه، ورضي أن يكون مجرد مجاور للشيخ الكبير.

كانوا يستعيدون الحكاية ويتعجبون، لكنهم امتثلوا في النهاية لقول واحد من المتصوفة، شاع قوله حتى صار على طرف كل لسان: أوقات المسرّة لا تغر إلا الغافلين.

(5)

أجّر «مهدي» بيوتًا لرجاله بالقرب من ضريح «القناوي». سكن هو بيتًا مناسبًا، كما وعد «كاترين»، كانت أمامه باحة واسعة يلتقي رجاله فيها. لم يرضَ الشيخ «مكي الطماوي» أن يكون له بيت، إنما قضى أيامه إلى جوار ضريح الشيخ، يجلس في المسجد منذ صلاة الفجر حتى العشاء، وينام في الساحة المترامية أمامه.

وقال «مهدي» لرجاله: لا تنسوا أن العسس في كل مكان.

وإمعانًا في الاختباء اقترح عليهم أن يقيموا حضرة مساء كل جمعة في ساحة بيته. وأرسل إلى «الطماوي» مَن اصطحبه إلى بيته، وقال له: نحن مريدوك يا مولانا.

ابتسم «الطماوي»، وقال: لك من المعرفة والبداهة يا سيدي ما يجعلك تقوم بهذه المهمة.

لكن «مهدي» كان يعرف أن له في الحياة طريقًا آخر، وهو إن خدع الغرباء، وكان مكشوفًا لأقربين منه يجارونه، فلا يجب أن يخدع نفسه. أخذ بيمنى «الطماوي» وداس عليها، وقال: لا يبدأ هذا الطريق بالهزل.

اندمج الرجال في دورهم الجديد، مستندين في تدبير عيش أسرهم على ما يعطيه لهم «مهدي» أول كل شهر هجري. أمّنوه على المال، وأخلص هو لحقهم فيه، لكنه، كسليل عائلة يُحسن بعض رجالها إدارة ما في أيديهم من مال، قال لهم ذات مساء: إن بقينا بلا عمل، نفد ما معنا، ومددنا أيدينا إلى الناس.

ضحك «سبعاوي»، وقال: يُقال إن الصوفية هم أول مَن أدخلوا الحشيش إلى مصر، ليعينهم على السهر والتجلي.

قهقه الرجال، وسألهم «مهدي» في اهتمام: ولماذا لا يكون الشيء الآخر الذي نعرفه جيدًا؟

اشترى دكانًا واسعًا في الشارع الخلفي لمقام «القناوي»، صار وكالة كاملة وقسّمه إلى ثلاثة أقسام، الأول للعلافة، والثاني للعطارة، والثالث للتوابل، وأوكل رجاله لشراء ما يلزم لبدء تجارته الجديدة من «وكالة الجداوي». أرسل آخرين لجمع الغلال، فساحوا في القرى المجاورة، كل واحد على حمار. باع الحمير واشترى ثلاثة بغال تجر ثلاث عربات «كارُو»، وجعل على كل عربة ثلاثة رجال. جعل اثني عشر من الرجال باعة في الدكان الواسع، يتبادلون الورديتين،

الصباحية والمسائية. واختار اثنين منهم سقاءين يملآن أزيار بيوتهم بالماء الذي يغرفونه في القِرَب من النهر. جعل رجلين يخدمان مَن يقصد بيته ليطلب طعامًا أو شرابًا.

شاركت زوجات الرجال في إعداد الطعام يوم الحضرة، فاقتربن أكثر من «كاترين». التقطت منهن الكثير من الكلمات والعبارات، فتحسنت لهجتها الصعيدية. أصر «مهدي» أن يرسل الرجال أولادهم إلى الكُتّاب القريب من مسجد «القناوي»، وكان يجلس هو قبل الحضرة يراجع عليهم بعض ما حفظوه من القرآن والأحاديث النبوية والشِّعر.

مع الأيام ربحت التجارة، فاسترد ما كان قد أعطاه للعربان، وما أنفقه على رجاله في الشهور الأولى، التي ظلوا فيها بلا عمل. ساوم أصحاب البيوت المكتراة على شرائها، فوافق بعض الملاك، وأبى آخرون. لم تمضِ سوى سنة واحدة حتى كان لكل رجل بيت يملكه، سواء كان يؤجره من قبل ثم اشتراه من صاحبه، أو كان بيتًا جديدًا بالقرب من الوكالة.

بلغ صيت «مهدي» المدينة كلها، فانضم إلى حضرته رجال جدد، كانوا يقصدون الذكر والطعام. ضاق بيته عن طهي ما يأكله كل هؤلاء، فاشترى مكانًا وبنى فيه أفرانًا للخبيز، ومواقد للطهي، وخزائن للمؤن.

في أيام مولد «القناوي» كانت رصات البتاو وصواني الطعام تُنقل إلى خيمة، يقصدها القادمون إلى المولد. ولأن كل خيمة تتبع طريقة، كتب على خيمته «الطريقة المكية الشاذلية»، نسبة إلى المجذوب،

الذي جاء معهم من الجبل.

لكن الناس كانوا يسمونها «خيمة المهدي»، حتى قال أحدهم ذات يوم بعد أن أكل حتى التخمة: يبدو أنه المهدي المنتظر.

وكما كان «مهدي» بارعًا في نسج أسطورة «أبو سريع»، التقط رجاله بعض براعته، فألقوا على الأسماع حكايات عجيبة عن صاحب الوكالة والخيمة، وأطلقوا على المكان الذي يسكنه الرجال «حي السالكين»، ووصفوا الرجال أنفسهم بالغرباء؛ لأنهم رأوا أن ما يفعلونه في خدمة الناس من ربح تجارة حلال شيئًا بالغ الغرابة، في أيام بلغ فيها الفقر مداه.

(6)

لكل ناجح حاسد، يسعى خلفه بالشر، أو يثير حوله الضغائن. أي منفعة لا تذهب هينة إلى مَن يقصدها. ففي أيام الندرة تتكالب الكثرة على القُتات. قصعة واحدة وجوعى كثيرون، وحين تجوع البطون ينظر أصحابها، خاضعين أو طامعين، إلى مَن يملك الطعام، بعضهم يأكل ويشكر ويمضي، وبعضهم يتساءل: من أين يأتينا بكل هذا الطعام؟ وهناك مَن يتطوع بالإجابة: لا يمكن أن يكون كل هذا من الوكالة.

فتح السؤال أسئلة حول «مهدي» ورجاله الغرباء، الذين هبطوا على «قنا» فجأة. لم يتوجس الناس منهم في البداية، فمقام «القناوي» يقصده المصريون من كل مكان. حتى بعض سكان مديريات الوجه البحري يأتون إليه، سواء كانوا من مريدي الطرق الصوفية، أو أولئك الذين يتباركون بأولياء الله الصالحين.

كان أول مَن أثار الأسئلة وأطلق الشكوك في نفوس الناس، هو «صميدة» صاحب وكالة تبيع ما يبيعه «مهدي». كان قبل مجيء الغرباء يحتكر التوابل والغلال في المدينة كلها، ويفرض ما يريد من سعر على الزبائن، ويعاملهم في تمنع وصلف.

كان يشبه «درويش إبراهيم الجابر» في كثير من طباعه، يتفنن في صناعة الأذى بمَن يراهم خصومه. جاءت أول ضربة وجهها إلى «مهدي» عن طريق «قابض الضرائب» الذي كان يُحصّلها لكشوفية السنجق، فينفق منها على الإقليم، الذي يتولى شؤونه، أما حصيلة أرض الالتزام، فكانت كالعادة، تتجمع في المحروسة، وتذهب خراجًا إلى السلطان في «الآستانة».

لم يكن «مهدي» يتهرب من الدفع، ولا يقدر هو أو غيره من التجار على التهرب، وإلا دُمرت تجارتهم وسيقوا إلى السجن. كان قابض الضرائب يُحصّل من «مهدي» المبلغ نفسه الذي يأخذه من وكالة «صميدة» سنويًا. فلمّا جاء في آخر العام، قال له «صميدة»: أسألك العدل، وهو اسم الله فلا تخذلني.

تطلع إليه الرجل في استغراب، وسأله: هل عهدتني ظالمًا من قبل؟

فاقترب منه في تودد، وقال: حاشا لله، لكن أريد أن أنبهك إلى ما غفلت عنه.

صمت الرجل، فواصل «صميدة»: وكالة «مهدي» تبيع أضعاف ما أبيع، وتربح بلا حساب، وليس من المعقول أن يدفع ما أدفعه، دون زيادة.

قال قابض الضرائب: نراجع دفاتره، ونرى.

ابتسم «صميدة»، وقال: ورثت هذه المهنة عن أبي، ولا أعرف أنها تعطي صاحبها كل هذا المال.

سأله في اندهاش: ماذا تقصد؟

قهقه، وقال: راجت تجارة الحشيش في المدينة، ولم يراعِ الأوغاد أن بها المقام الطاهر.

ثم مد يده في جيبه، وأخرج ضرة نقود، ودسها في يد قابض الضرائب، الذي وضعها في جيبه، وقال: هذا كثير.

رد «صميدة» وهو يداري فرحته: هناك أكثر لو قام العدل على يديك.

(7)

فوجئ «مهدي» بمضاعفة الضرائب ثلاثة أمثالها، فسأل القابض عن السبب، فأبلغه أن رواج تجارته قد بلغ السنجق، وهو مَن يحدد ما يُقبض، ولا راد لكلمته. دفع إليه ما أراد، ثم قال لرجاله قبيل الحضرة، وهو ينفخ في أسى: يريدون مشاركتنا في رزقنا بلا حياء.

عرف بعد أيام أن منافسه في التجارة وراء ما جرى. قال له هذا «دياب»، وهو أحد العسس، استماله وأجزل له العطاء، فكان أذنه وعينه على أولي الأمر في المدينة. فكّر «مهدي» في أن يفتح باب رزق آخر، فقال للرجال بعد انتهاء الحضرة: عزمت على تجارة جديدة.

سأله «خراجة» وهو ينظر إلى وجوه الرجال: أي تجارة يا سيدنا؟

أجابه، وهو ينظر إلى بعيد، ليرى ما لا يرونه: ابن عمي في المحروسة يتاجر في الأقمشة، وأعرف أنها تُدر عليه دخلًا وفيرًا، ويمكنه أن يمدنا بما نريد.

وتبادل الرجال النظرات، وقالوا: نحن لا نفهم في هذا الكار.

ابتسم، وقال: اتفقت مع اليهودي «هارون منشة» على العمل معي. زدت أجره عما يتقاضاه في «وكالة عامير» للأقمشة فوافق. سيأتي من الغد ليشرف على النجارين وهم يحددون أماكن تركيب الأرفف. عليكم أن تلازموه وتتعلموا منه.

ووصف لثلاثة من رجاله دكان «خير الله» في المحروسة الذي كان قد اتسع مع الأيام، فصار وكالة أيضًا، وقال: اركبوا النيل، وسأعطكيم المال، وهاتوا من عنده ما يصلح للبيع هنا.

اتصل حفيدا «الصابر» رغم بُعد المسافة، وتعززت بينهما المنفعة من التجارة، والصُحبة من الرسائل المتبادلة، التي كانت لا تخلو أحيانًا من ذكر بعض ما ورثوه من حكايات عن «الصابرية» التي ضاع اسمها ذات يوم بعيد.

(8)

فُرضت ضريبة جديدة على دكان الأقمشة، دفعها «مهدي» رغم فداحتها. رضي بما يتبقى من أرباح تلبي احتياجات بيته، وأجور رجاله، ونفقات ما يُذبح ويُطهى ليأكل الرجال وعابرو السبيل والمجاذيب وكل مَن يقصده من مريدي الشيخ «القناوي».

يهون كل تعبه حين يختلي إلى ابنه «فخر الدين»، الذي شب عن الطوق، وصار صبيًا لا يخفى ذكاؤه وفطنته على أحد. أخذه معه إلى الوكالة ودكان الأقمشة، وكان حريصًا على أن ينقل إليه خبرته، فتلقاها مسرورًا، حتى أسند إليه بعض المهام الكبرى في تجارته، فلم يخذله.

(9)

تخبئ الأيام ما لم يكن في الحسبان. تدخره صامتة كحية رقطاء رابضة تنتظر ضحية لاهية لتلدغها. فجأة ضنت الأيام بمسراتها، وفتحت باب الأوجاع على مصراعيه، فانهمرت المصائب على الرؤوس، لتنسى أنها قد تنعّمت، ولو ساعة من النهار، بالراحة والسكينة.

وكما قال السابقون، وآمن اللاحقون: «المصائب لا تأتي فُرادى».

(10)

انتفض «مهدي» واقفًا ينظر إلى رجل دخل الوكالة، وخلفه سيدة وصبي وفتاة. فرك عينيه، لا يصدق ما يرى. غاب عن عقله كل شيء لحظة، ولم يدرِ إن كان مَن يُقبل عليه حقيقيًا أم طيفًا رماه حلم يقظة أو حلم ليل أتى في النهار.

جرى نحو القادم إليه، وأخذه في حضنه، وقال: شرّفت الصعيد يا «خير الله».

وقبّل وجنتي «أحمد» و«رابحة»، ومد يده ليصافح «كريمة» فمدت إليه يدها مدسوسة في طرف طرحتها. أفسح لهم مكانًا في الوكالة،

ورص الرجال ثلاثة كراسي للضيوف، وجيء بمشروب الخروب والدوم. راح «خير الله» يرشف على مهل، مُطرقًا في تفكير عميق، فنظر إليه «مهدي» وقال: زيارة عزيزة كم تمنيتها.

وضع الكوب جانبه، وقال: زيارة ستطول.

رفع عينيه إلى الرجال الذين ترك أحدهم البيع، ومد ناظريه إلى الضيف ومَن معه، فقال «مهدي»: نقوم إلى البيت، وهناك تنبئني بكل شيء.

(11)

عاش «خير الله» وسط أسرته وتجارته مُنعّمًا، يدفع ما عليه من ضرائب إلى قابضها بانتظام، ويعطي الفتوة «سلومة البطش» ما يحدده من إتاوة بلا تردد.

سعى «خير الله» إلى أن تكون علاقته بالفتوة طيبة، وكان يعطيه فوق الإتاوة كل سنة ثوبًا من الجوخ، ولاسة من الحرير، ويقول له: كرامة فتوتنا من كرامتنا.

ظن أن الحياة ستمضي على حالها، إلى أن ضجت الحارة في عصر يوم قائظ بزفة مدوية. ظهر رجال يرفعون نبابيتهم في وجه المشربيات، ووجوه النساء التي تطل من خلفها في توجس. ظهر رجل ذو جسد فارع ممتلئ، قبيح المنظر، يشرخ الهواء بنبوته، ويفتح فمه منتشيًا، وهو يسمع مَن يصرخون حوله: أبو ضب.. أبو ضب.. اسم الله عليه.

تهامست النساء في البيوت باحثات عن الخبر، فجاءهن به الرجال

الكادحون في الدكاكين والورش، حين حلّ المساء، وقالوا: هُزم البطش في معركة حامية.

أبتلي «خان الخليلي» بفتوة جديد غاشم اسمه «فرجوح أبو ضب»، أخذ اسمه من هيئته، فهو يوسع بين ساقيه في سيره كأنه يريد أن يملأ الحارة، وله أسنان بارزة تستعد لتمزق أي جسد يقابله. ومعه عصبة من القُساة المجانين.

كان «أبو ضب» قد رتّب أمره مع أهل الحكم، يرشو صغارهم قبل كبارهم، ويعس لهم على مَن يفكر في التذمر أو الغضب، ويتولى تأديبه، فأطقلوا يده تعبث بالناس كما يشاء. ضاعف الإتاوة على الجميع. أما بالنسبة لـ «خير الله» فضاعفها ثلاث مرات، وقال له: عقاب لك على صحبة «البطش» الخسيس.

كان «خير الله» حكيمًا بين التجار، يقصدونه لفض نزاعاتهم، وحل أي مشكلات تقع بينهم، ويستدينون منه إن احتاجوا، ثم يردون الديون في امتنان. وكان «البطش» يعرف أن «خير الله» يقضي بين الناس من دونه، فصمت على هذا، وقال: حتى أنا أحتاج إلى حكمته في الأوقات العصيبة. وحين نبهه بعض رجال عصابته إلى أن هذا قد يُنقص من قدره أمام الناس، قال لهم في حسم: الكل يعرف أنه صاحبي، ويعيش، مثل غيره، في حمايتي.

لجأ التجار إلى «خير الله» ليقودهم إلى تفكير في مواجهة الفتوة الجديد الغاشم. تداولوا خيارات كثيرة أولها اللجوء إلى الوالي، لكن أحدهم قال: هذا رجل لا يشغله سوى زيادة الخراج، وإن شكونا إليه، ربما ينتبه إلى ما معنا جيدًا، وقد يزيد الضرائب، فنخرج خاسرين.

اقترح أحدهم الذهاب إلى القاضي، لكنهم كانوا جميعًا يعرفون أنه رجل مرتعش ومرتشٍ، على النقيض من سابقه. قال «خير الله» وهو ينظر في وجوههم: لا يفل الحديد إلا الحديد. تطلعوا إليه، فقال: نرسل إلى «فرماوي أبو شنب» فتوة الحسينية، ونفتح له بابًا لنكون تحت حمايته، فهو على الأقل لا يخرج عن أصول تعارف عليها الفتوات.

وافق الرجال على هذا الاقتراح، وأرسلوا إلى «أبو شنب»، لكنه كان يدرك أن خطوة من هذا القبيل لا بد أن يبدأها بموافقة قائد فرقة الإنكشارية. ولمّا عرف الأخير أبلغ «أبو ضب» بما جرى، فطفح الشر من رأسه، وجأر من فرط الغضب، وأقسم ألا يُبقي لـ «خير الله» شيئًا، وإن لم يقتله أعاده متسولًا مشردًا، أو بهلولًا من مجاذيب الحسين. بلغ «خير الله» الخبر، وقال له مَن اجتمعوا معه بالأمس: اختفِ أيامًا حتى يهدأ.

هرب بأسرته إلى بيت تاجر أقمشة في «عين شمس»، ربطت بينهما صداقة عميقة، وأرسل مَن يعس له على الأخبار، فجاءته أسوأ مما تصور. نهب رجال «أبو ضب» دكان «خير الله». باعوا محتوياته بثمن بخس، وبعض التجار الذين تداولوا معه الأمر اشتروا ما قدروا عليه. ضرب رجال الفتوة نبابيتهم في أرفف الدكان فصارت حطامًا. نُهب بيته في «الغورية»، فُعل في أثاثه ما فُعل في الأقمشة، واشترى بعض الناس ما كومته عصابة الفتوة في الشارع، والأدهى أن «أبو ضب» أخذ كل ما كان يدخره «خير الله» من نقود وذهب.

شرح له رسوله الأمر وهو يتصبب عرقًا، ثم قال له: أقسم الظالم إن

رآك سيقتلك. فلم يجد أمامه من سبيل سوى الهروب إلى الصعيد.

(12)

ترك «مهدي» دكان الأقمشة لـ «خير الله»، وقال له: واثق أنه سيكبر معك ويصبح وكالة كبرى.

لم يرضَ «خير الله» أن يكون رزقه خصمًا من رزق ابن عمه. كان يخشى أن يكون قد أثقل على رجل ذي همة، لكن «مهدي» قال له ذات يوم حين صارحه بمشاعره: ما أنا فيه من خير كان أساسه البعيد هو المال والذهب الذي صحب جدنا «سالم»، وهو رضيع رموه في الصحراء ينتظر الموت.

صبر «خير الله» على ما آلت إليه حاله، حتى انفتح أمامه ذات يوم باب رزق لم يذر بخلده أبدًا.

(13)

كان يمر بـ «خير الله» في دكان الأقمشة بخان الخليلي رجل ثري من أهل الصعيد اسمه «عطوة السايح»، فيُحسن ضيافته، ويمنحه سعرًا خاصًا لما يشتريه من أقمشة فاخرة. حين توطدت علاقته به قال له ذات يوم:

- في بلدنا ما هو أثمن من تجارة الأقمشة.

ابتسم يومها، وقال: لا أعرف غيرها.

نظر إليه الرجل وقال: أنا أعرف، وليس مطلوبًا منك سوى جزء من أموالك، وستعود إليك أضعافًا. ثم أبلغه بأنه يعمل خفية في

استخراج الذهب من الصحراء الشرقية، ويحتاج إلى توسيع عمله، فيجلب له رجالًا من السودان والحبشة، يبرعون في هذه المهنة، لكن هذا يتطلب مزيدًا من المال.

أنصت إليه «خير الله» يومها، ثم قال: دعني أُدِر الأمر في رأسي.

أعطاه الرجل يومها عنوان بيته في «أسوان» وقال: إن غيرت رأيك فأنا أنتظرك، لترى بنفسك، ويطمئن قلبك.

لكن «خير الله» أصبح على فيض الكريم، ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يفاتح «مهدي» في الأمر. اختلى به في ركن من دكان الأقمشة، وباح له بما يفكر فيه، فقال له: سنضع مالنا على حافة الخطر.

ابتسم يومها وقال: منذ متى كانت التجارة تخلو من المخاطرة؟

هز رأسه، وقال: اتركني أفكر، فربما لا يكون أمامنا سوى العودة إلى الجبل.

(14)

كان «مهدي» قد بلغه منذ أيام ما جرى في مولد «القناوي»، داخل خيمة البهجة والافتتان. جاء إليه «سبعاوي» لاهثًا، وقال بحروف متقطعة من فرط الخوف والتعب: انكشف الأمر يا سيدنا.

حكى له أن جوقة «عبد الوارث» نصبت خيمة في مولد «القناوي»، وأن «خراجة» ذهب إليها، وعبّ من البوظة حتى ترنح، وفعل ما فعله في الجبل دون أن يدري. ثم التقط الرجل أنفاسه المبهورة، وقال: تخيل يا سيدنا أنه طلب من الجوقة مرارًا مديح تجار

المخدرات، وكان يجلس في الصف الأول بين الحاضرين رجال من جند المماليك والإنكشارية وعسسهم.

بصق «مهدي» غاضبًا، وقال: لا بد أن نبعده عن هنا.

طأطأ «سبعاوي» رأسه، وقال: عرفته «زارا» وفضحته أمام الجالسين، وغنى «عبد الوارث» الموال الذي ارتجله عنا في الجبل.

صرخ «مهدي»، وقال: كلب، أحسنت إليه فغدر بي.

زاد «سبعاوي» من مخاوف «مهدي»، حين قال: تردد اسمك على النصبة، حين حياه «خراجة» مرات على أنك كبيرنا الذي علمنا الكسب، فتبادل الحاضرون من العوام النظرات في حيرة.

وجم «مهدي» كاتمًا غضبه وخوفه، لكنه لم يقدر حين طأطأ «سبعاوي» رأسه مرة أخرى، وقال: كان بين الحاضرين بعض الباعة في دكان «صميدة».

صرخ «مهدي» من جديد: هذه مصيبة كبرى.

ثم أمر «سبعاوي» وهو يعض على أنيابه: هات لي «خراجة» حالًا.

(15)

كان العسس ومعهم بعض الجند قد تعقبوا «خراجة» وهو يعود إلى بيته مترنحًا، بعد أن ظنوا أنهم قد وجدوا خيطًا لأسباب انتشار المخدرات في المدينة. قبل أن يدفع الباب ليدخل، وجد أيادي غليظة تقبض على كتفيه، فالتفت إليها حيث يُمسك، وحين رأى الجُند، طار من رأسه الخمر، وقال: أنا من رجال السيد «مهدي»،

وأنتم تعرفونه.

لم يكن مدركًا ما فعله، فقال لزوجته التي مدت رأسها من نافذة ضيقة في صدر البيت: أبلغي سيدنا بما جرى.

سار معهم وهو لا يعرف سبب القبض عليه، حتى وجد نفسه في غرفة مظلمة. دخل عليه جنديان واصطحباه إلى ساحة فارغة، وألقياه على الأرض يتخبط في حيرته. لم تمضِ سوى دقائق، حتى برز من باب جانبي رجال يتقدمون مقرفصين، وخلفهم جنود، يقودهم رجل لم يرَ في غلظته. كان يأمرهم بما يخرق أذني «خراجة» فرأى آثار أمره، حين انهال الجُند على ظهور الرجال ضربًا بالسياط.

تقدم الرجل الغليظ نحو «خراجة»، وقال له: هذا أقل تعذيب لدينا.

ثم ضربه برجله فانطرح على الأرض خائرًا، وهو يسمع مَن يقول له: لأمثالك النطع والخازوق.

اجتاحه الفزع، فبال في سرواله، وهو يسمع من جديد: بوسعك أن تتجنب كل هذا إن تعاونت معنا.

رد في رجاء: أنا تحت أمركم.

لم تمضِ سوى ساعة حتى كان قد اعترف بكل شيء، منذ هروبه من قريته قبل سنين، وحتى دخوله الخيمة. ونقل مَن استجوبوا «خراجة» ما سمعوه إلى نائب السنجق، فنظر إليهم متسائلًا: أليس «مهدي» هذا هو صاحب الوكالة القريبة من المقام؟

(16)

حين عاد «سبعاوي» من بيت «خراجة»، قال لسيده: أبلغتني زوجته بالقبض عليه.

جرت أمام عيني «مهدي» كل أيامه السابقة في لحظة. ترامت أخرى مسكونة بالخوف والحيرة. دفعته نفسه إلى سلوى كاذبة، فسأل «سبعاوي»: هل يقدر «خراجة» على كتمان السر؟

أجابه على الفور: إن لم تذهب عزيمته بالتعذيب، ذهبت في هذيان السُكْر.

قفزت إلى ذهن «مهدي» سلوى أخرى، فسأل «سبعاوي» في لهفة: هل تعرف «دياب»؟

هز رأسه، وأجابه: أعرف بيته أيضًا.

أرسله إلى «دياب» فجاءه يلهث، وقال: كنت سآتيك قبل أن ترسل إليّ. الأمر خطير، وقد يهجم الجُند على دكانك وبيتك، أو على أقل تقدير يرسلون في استدعائك أولًا.

سأله بصوت خفيض: بِمَ تنصح؟

أجابه في إشفاق: استضعفوا رجلك فاعترف بكل شيء، وقد كتبوا ليستخبروا عنك من سنجق الإقليم الذي أرسل جُنده إلى الجبل للإمساك بك قبل سنين.

ضرب «مهدي» مسند مقعده بقبضته في غيظ، وقال: قُدر لي أن أظل هاربًا.

وترامى صوت القوّال إلى أذن «مهدي»:

الخطوة سابقة أختها

والعمر وَلّى هرايب

دي عيلة مال بختها

ومين يلم القرايب